رجال ونساء آل البيت

ومساجدهم فى مصر

حنفى المحلاوى

عالم الكتب

رجـــال.. ونســـاء

آل.. البـــــيت

ومساجدهم فى مصر

* المحلاوى ، حنفى .
* رجال ونساء آل البيت ومساجدهم فى مصر
* حنفى المحلاوى
* ط 1 . – القاهرة : عالم الكتب؛ 2013 م
* 220 ص ؛ 24 سم
* تدمك : 977-232-903-8 * رقم الإيداع : 2375/ 2013
1- اهل بيت الرسول
أ- العنوان 239.8

عالم الكتب

* الإدارة :
16 شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون : 23924626
فاكس : 002023939027

* المكتبة :
38 ش عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون: 23926401 – 23959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدى : 11518
www.alamalkotob.com -- info@alamalkotob.com

رجـــال.. ونســـاء

آل .. البيت

ومساجدهم في مصر

حنفي المحلاوي

الناشر



إهداء

إلى حبيبة أولى حفيداتي..
ونحن في انتظار غيرها من
الأحفاد والحفيدات من
أمها ندى أو من ابني مروان

حنفي المحلاوي



المقدمة

عندما هداني رب العالمين،وأخذت أحاول أن ألبي ما بداخلي من نداء عظيم بشأن الحاجة نحو الكتابة عن آل البيت ،لم أجد أمامي من سبيل أو كلمات أو حروف تعبر عن حبي وتقديري لآل البيت وصاحبه الكريم محمد ﷺ ، سوى ما سطره من قبلي وربما منذ أكثر من أربعين عامًا عملاق الأدب العربي عباس محمود العقاد الذي كتب يقول عن هؤلاء القوم الكرام بالحرف الواحد:

".. وفتحت أذني كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي ﷺ ،وآله مولد ، النبي حفلة سنوية في البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها، لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها ، وأسماء النبي وآل بيته تتردد بين جوانب البيت ليل نهار لأنها أسماء إخوتي أجمعين: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس، وشقيقتي الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمي أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير عباس حلمي الثاني كما كان يتوهم بعض معارفي، وبقيت منسوبًا إلى اسم محمود وهو كذلك من أسماء النبي، ولم يكن لأبي إخوة وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب وأولادهم ينادون بالأسماء التي تغلب عليها هذه العترة الشريفة"[(١)] .

وحتى إذا ما تركنا ما قاله هذا العملاق عن حبه لآل البيت من خلال أسماء أسرته وعائلته، فإننا نجد أن هذا الحب قد امتد لكل ربوع مصر وأبنائها من أقصاها إلى أقصاها، مع اختلاف بسيط في وسائل توقير واحترام هؤلاء القوم الكرام والاحتفال بذكراهم سنويًا. وليس ذلك فقط، بل إننا

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ـ عباس محمود العقاد.

كثيـرًا ما نفاجأ بمن يـعرفك بنفسه مـؤكدًا على أنه من عترة آل البـيت، وفي جيب سترته مـا يثبت ذلك؛ عندئذ لا تجد أمامك من سبيل سوى أن تشمله بالمزيد من الحب والاحترام والتقدير.

أما بالنسبة لكاتب هذه السطور، فإنني من هؤلاء الذين يحبون أيضًا هذا النبي الكريم ويحبون ويحترمون كل آل بيته هنا أو هناك؛ وكنت دائمًا أدعو الله وفي كل لحظة بأن يرزق أولادي وذريتي بند الحب و يجعله دائمًـا وإلى يوم القيامـة، وإن كنت أحسد هذا العـملاق الذي أحبـه الله وجعله يعيش داخل أسرة ارتبط معظم أفرادها بأسماء النبي الكريم وبأسماء آل بيته الطيبين ، وذلك لأنني قد تربيت داخل أسرة، صـحيح تحب الرسول ﷺ حبًا عظيـمًا ولكن الحظ لم يسعف والدي لأجل أن يحمل عددًا كبـيرًا من أسماء هذه العترة الطيـبة فيما عدا كل من أخي الكبـير الذي أسماه أبي محمداً وأخي الصغير والذي أسماه أبي إبراهيم.

وعندما قرأت كلمات عباس محمود العـقاد السابقة وطمعًا في الوقوف على المزيد من المعرفة المرتبطة بالنبي الكريم وآل بيته أخذت أقلب في أوراقي الخاصة والمرتبطة بأسماء بقية أفراد أسرتي الكبيرة خاصة من ناحـية أمي، فاكتشفت ولحسن الطالع أن لي خالة كـانت تدعى فاطمة وأن أحد أولادها يحمل اسم على رضى الله عنه.

ولو أخذت أبحث في شجرة العائلـة وبدقة عن هذه الأسماء التي ارتبطت بالنبي الكريم وبآل بيته لعـثرت على الكثير من هؤلاء، والمسـألة هنا لا تتوقف عندي أو عند أستاذنـا العقاد، بل ومن حقك أنت أيها القـارئ الكريم أن تبحث حولك وداخل أسرتك سـواء الصغيرة أو الكبـيرة عمن يحملون أسـماء النبي وآل بيتـه لأنه شرف كبـير، ودلالة عظيـمة على حب الإنسان المصـري لهذا النبي، وآل بيته، بل ولأصحابه أيضًا، هذا الحب الذي نراه كثيرًا وفي كل المناسبات خاصة ما يرتبط بها بمحمد ﷺ وآل بيته الكرام، ولا شك أن القائمة طويلة لمثل هذه المناسـبات وأعظمها ما نراه في إحياء موالد هؤلاء القوم الكرام سواء في المدن أو في القرى والنجوع.

ومن منطلق هذا الحب الذي يزداد بقلبي يومًا بعد يوما فقد استجبت وفورًا لهذا النداء العظيم الذي أخذ يطفو داخل صدري وفوق لسانـي لسنوات طويلة، وبالتالي عقدت العزم على أن تكون كل هذه الأوراق رحلة استـقصي من خلالها أمـاكن تواجد آل البيت خاصـة من الذين وفدوا إلى مصر.

وسوف يتجلى هذا الحب أكثر عندما نقلب سويًا صفحات هذا الكتاب الذي بين أيدينا والذي اخترت له اسمًا تقول كلماته: "نساء ورجال آل البيت ومساجدهم في مصر.." واعتمدت في خطة عملي فوق أوراقه على تقسيم هذا الكتاب إلى جزئين كبيرين أو بابين كبيرين، الأول تحدثت فيه عن آل البيت والنبوة من الذين عاشوا وما توا داخل أرض الحجاز خاصة في مكة والمدينة.

وسعيت من وراء ذلك لعمل ربط جيد للحديث القادم عن هؤلاء القوم الكرام من الذين جاءوا وعاشوا ثم ماتوا على أرض مصر، وهو ما سوف نتناوله في الجزء أو في الباب الثاني.

ولم أنس في هذا السياق أيضًا الحديث وفي القسم ذاته عن أولياء الله الصالحين من الذين ينتسبون إلى آل البيت والذين وفدوا وعاشوا في مصر ودفنوا فيه أيضًا.

وختامًا كان لا بد من الحديث أيضًا عن مظاهر حب أهل مصر لآل البيت، وأهم مظاهر هذا الحب والذي تجلى بشكل كبير في إقامة الأضرحة والمساجد وإحياء ذكراهم كل عام، وهو ما أصبح يعرف في تاريخنا باسم الموالد.

والله الموفق

المؤلف

حنفي المحلاوي

حدائق القبة في شهر

رجب/ مايو من عام ٢٠١٢ م

فصل تمهيدي

من هم ... آل البيت؟!

ما المقصود بلفظ آل البيت؟! ومن الذي تنطبق عليه صفاتهم؟!.. سؤال قد يبدو للكثيرين منا سهلاً... وأن الإجابة عليه سوف تكون أكثر سهولة، وكنت في البداية من هؤلاء الظانين، ولكن الواقف على مجريات التاريخ وتفاصيله، وطرق التناول وأراء المؤرخين وأصحاب كتب السيرة سوف يصاب بحيرة كبيرة لما سوف يواجهه من خلافات واختلافات كبيرة وكان سبب أغلبها في حقيقة الأمر هو رغبة البعض من المؤرخين في تضييق دائرة الانتساب لآل البيت وقصرها على أشخاص بعينهم، في حين يوجد فريق أخر من هؤلاء المؤرخين كانوا على عكس ما ذهب إليه الفريق الأول.... وكل فريق منهما يقدم الأدلة القاطعة على ما ذهب إليه من رأي أو بيان.

ولأنه ليس من مقاصدنا فوق هذه الأوراق مناقشة آراء كل من هذين الفريقين فكان علينا تجاوزها أو أغلبها. انطلاقًا مما أشار إليه ربنا تعالى بأن في اختلافنا رحمة؛ ولأن هدفنا الرئيسي من وراء كتابة هذا الفصل التمهيدي هو البحث عن إجابة لذلك السؤال الذي بدأنا به هذا الحديث عمن يكون من آل البيت؟!

ولقد رأينا من الواجب ومن اللياقة كذلك وقبل الوقوف على هذه الإجابة التي نبحث عنها ضرورة أن نشير ولو في عجالة إلى صاحب هذا البيت الكريم وهو نبينا محمد ﷺ، على الرغم من أن هناك العشرات بل المئات أو الآلاف من الكتب سواء العربية أو الأجنبية التي تناولت حياة هذا النبي الكريم، ومع ذلك فسوف نحاول نحن أيضًا أن نقتبس من سيرته الشريفة ما يجعلنا نحس بسعادة فى جواره ﷺ ولو للحظات.

وعندما اقتربنا من مصادر الاطلاع على تفاصيل ما جاء فيها لاحظنا وجود خلافات لا بأس بها خاصة ما يتعلق منها بتحديد تاريخ ميلاد نبينا ﷺ.. وحسناً ما فعله الكاتب الراحل الكبير الدكتور محمد حسين هيكل عندما أشار بكل وضوح إلى هذه الخلافات مؤكدًا في السياق ذاته

على أنه اكتشف وجـود مثل هذه الخلافات حتى فـيما يتعلق بالعـام الذي ولد فيه ﷺ، بل و شمل كذلك الشهر واليوم وتوقـيت ميلاده، ومكان مولده ﷺ.. وربما يرجع ذلك إلى الظروف التي كان يعيشها قومه والتي لم تكن تتطلب تدوينًا دقيقًا لكل أحداث حياتهم.

أضف إلى ذلك قلة عدد المدونيين، وعـدد الذين لم يكونوا يعرفون القراءة والكتـابة، وبالتالي فإن معظم مـا ذُكر وقيل بشأن تاريخ مـيلاد النبي الكريم وما ارتبط به من أحداث جـاء على سبيل التخمين...

وفي هذا السياق أكدت معظم، بل وكل الروايات التاريخية أن النبي ﷺ قد ولد في عام الفيل، وهو يوافق في السنة الميلادية عام ٥٧٠م.

وهناك من الروايات التي اقتربت أكثر من تاريـخ ميلاد محمد ﷺ حيث حدد أصحـابها اليوم والشهـر، ونرى هنا أن المؤرخ والكاتب الإسـلامي محمـد رضا قـد أشار إلى ذلك في كـتابه عن محمد ﷺ عندما قال: ولد النبي ﷺ في فجر يوم الإثنين لاثنتي عـشرة ليلة مضت من ربيع الأول الموافق ٢٠ أغـسطس عام ٥٧٠ مـيلادية، في عـام الفيل، ولـلأربعين سنة خلت من حكم كسـرى أنوشروان بن قيـاذين فيروز بمكة... في المكان المعروف بسـوق الليل وفي الدار التي صارت تدعى بدار محـمد بن يوسف الثقفي أخي الحـجاج بن يوسف [(١)] وأكد المؤلف فيمـا ذكره أيضًا على أن أهل مكة ما يزالون يزورون هذا المقام إلى اليوم.

هذا وقد كـشفت لنا روايات المؤرخـين وأصحاب كـتب السيـرة أن مولد الرسـول الكريم قد ارتبط كذلك بالعـديد من الأحداث التاريخـية المهمة، بل وظل في حـياته ﷺ مرتبطًا بالعديد من الأحداث المهـمة، ولسوف نـلقى بعض الأضواء على مثل هذه الأحـداث بما يخدم مـوضوع هذه الأوراق المتعلقة بمسيرة حياة آل البيت وتواجدهم سواء داخل أرض الحجاز أو خارجها.

ولعل الحـديث عن زواجه الشـريف يأتي أيضًا في مـقدمـة ذلك.. لأن زواج هذا النبي الكريم كانت بداية نشأة آل بيته الطيبين، عندما أنجب أولادًا وبناتًا تركوا لنا وللتاريخ أحفادًا كرامًا.

ولقـد لاحظنا أن الحديث المرتبط بـزواج النبي وأولاده وأحفـاده ربما كان من أكـثر الأحـاديث مصداقية فيما كتبه وتناوله المؤرخون.

---

(١) محمد رسول ـ محمد رضا.

كمـا لاحظنا في السيـاق نفسـه أن التركـيز فيـما كُـتب عن ذلك إنما كان مـرتبطاً بالحفـيدات والأحفاد أكثر من ارتباطه بأولاده وبناته ﷺ.

من هنا نسـتطيع أن نقول ورداً على إجـابة السؤال الذي بدأنا به رحلتنـا فوق هذه الأوراق أن المقصود بآل الـبيت هنا هم زوجاته الشريفـات ثم أولاده وبناته وحفيداته وأحـفاده، ومن جاء من نسل هؤلاء من أولياء الله الصالحين.

وبخصـوص زوجاته ﷺ فقـد حدثتنا كتب التاريخ عـن زواج النبي الكريم وكذلك الظروف التي ارتبطت بكل زيجـة وهو مـا سوف نشـير إليـه تفصـيلاً فـيمـا بعـد.. لأننا سوف نكتـفي هنا بالإشارة إليهن على سبيل الإجمال. تاركين التفاصيل لحديث فصول هذا الكتاب.

ولعل الدكتورة بنـت الشاطئ ـ عائشة عبـد الرحمن ـ قد تناولت بالتفـصيل الحديث عن هذه الزيجات مشيرة فيـما كتبته نقلاً عن مصادر تاريخية مـوثوق بها أن رسولنا الكريم قد تزوج للمرة الأولى من السيـدة خديجـة بنت خويلد سـيدة قبـيلة قريش وأولى أمـهات المؤمنين، وقـد أنجبت لرسولنا الكريم كل بناته وأولاده الذكور ما عدا ولده إبراهيم عليه السلام الذي أنجبته السيدة ماريا القبطية، كما أشـارت الدكتورة عائشة عبد الرحمن فيـما كتبت إلى أن الرسول ﷺ قد تزوج بعد رحيل السيدة خديجة رضي الله عنها من عشرة نساء غير ماريا القبطية[1].

وكما ذكرنا من قبل فإننا نؤكـد على أن زوجات النبي الكريم هن من أوائل الذين التحقوا بآل بيته، بل وكن مشاركات في تكوين هذا البيت النبوي الكريم. ثم يلحق بهن في المرتبة ذاتها أولاده وبناته وهم بالترتيب وفق أصدق الروايات ثلاثة ذكـور: القاسم وعبد الله الملقب بالطيب والطاهر، ثم إبراهيم، ولقد توفـوا جميعًا وهم أطفـالاً صغارًا، ثم بناته وهن أربعة: زينب ورقـية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء. وكن جميعًا من نسل السيدة خديجة رضي الله عنها.

من هنا نلاحظ أنه ومع مرور الأيام والسنوات فإن دائرة آل البيت النبوي قد بدأت تتسع رويدًا رويدًا، خاصة عندما تزوجن بناته وأنجبن أطفالاً سواء من الذكور أو من الإناث.

ومثلما أشرنـا في هذا التمهيد إلى أسمـاء زوجات هذا النبي الكريم وكذلك أولاده من البنين والبنات.. سوف نشير كذلك الى أسماء أزواج بناته فهم كذلك من عترة آل البيت الشريف.

(١) نساء النبي ـ د . عائشة عبد الرحمن.

لقد تزوج العـاص بن الربيع بن عبـد العزي بن عـبد شمس بن عـبد مناف، وهو الجـد الثالث للنبي ﷺ من السـيدة زينب كـبرى بنات النبي، وقـد رزقه الله منهـا بطفلين هما علي وإمـام، ومن المعـروف أن زينب كـبرى بنات النـبي قد تزوجت من الـعاص بن ربيع قـبل الإسـلام، ولما رفض الدخول في الـدين الجديد طُلقت منه، ثم عـادت إليه بعدمـا أعلن إسلامـه، كما تـزوجت كلاً من رقيـة وأم كلثوم رضى الله عنهما من عُـتبة وعتـيبة ابني عـبد العزي بن عبـد المطلب والمعروف في التاريخ باسم أبى لهب.. ولما رفضا الإسلام تم تطليقهمـا، وتزوج بهما عثمان بن عفان الأولى ثم الثانية بعد وفاة أختها؛ ولذلك لقب في التاريخ الإسلامي باسم ذى النورين.

أمـا فاطمـة الزهراء فـقد تزوجت من ابن عم أبـيهـا علي بن أبي طالب، وأنجب منهـا كل من الحسن والحسين رض الله عنهما وعن جدهما وأبيهما وأمهما.

وحين نلجـأ للأرقـام لأجل حصـر عـدد أفراد آل البـيت النبـوي سوف نكتـشف أنهم كـانوا بالترتيب أحد عـشر زوجة وسبـعة من الأولاد والبنات وخمسة رجـال من الذين تزوجوا من بناته الكريمات؛ ثم أحفـاده وحفيداته من الذين سـوف نتناول سيرتهم بعـد ذلك. وربما أيضًا بعض من أولياء الله الصالحين الذين يرجع نسبهم إلى هذا البيت الشريف.

ومن بين أشهـر هؤلاء الأحفـاد وكذلك الحفـيدات.. كل من إمـامة وعلى ابني السـيدة زينب الكبري ثم عـبد الله الذي توفى طفلاً الذي أنجبته السيدة رقـية، كما لـم تشر المصـادر ذاتها إلى أن الخليفة عثمان بن عفان قد أنجب من زوجته الثانية وابنة رسول الله، وهى السيدة أم كلثوم.

وما نود الإشارة إليه في السياق ذاته أن حفيدي النبي الكريم الإمام الحسن والإمام الحسين كانا من أكثـر الأحفاد الذين ساهمـوا في توسيع دائرة آل البيت في كـل بلاد الدنيا، وخاصة في مـصر وهو أيضًا ما سوف نتناوله بالتفصيل فيما هو آت.

كذلك ما نود أن نشير إليه هو أن الأماكن التي تواجد بها هؤلاء الأحفاد قد انحصرت ربما في بلدين اثنين فقط أو ربما ثلاثة على أكثـر تقدير وهم الحجاز ومصـر والعراق، ولعلنا نؤكد هنا على أن مصر قـد فازت بنصيب الأسـد فيما يخص الأمـاكن التي تشرفت بهؤلاء سواء وهـم أحياء أو أموات.

ولسوف يكون لنا مع كل واحد أو واحدة وقفات قد تطول وقد تقـصر وفق مقتضيات الحال، وتوافر المصـادر والمعلومات. إذ سوف نتـحدث عن مولدهم وترحالـهم وما صادفوه من مـشاكل

الباب الأول:

آل البيت.. في الحجاز

.. هذا الباب قد خصصناه لحديث شيق وعظيم عن آل البيت من الذين أقاموا بالحجاز، خاصة في مكة والمدينة وكان في طليعة هؤلاء أزواج النبي الكريم وبناته وأزاجهن

وفيه نتناول الحديث من خلال فصلين كبيرين:

الفصل الأول: زوجات النبي وآل البيت.

الفصل الثاني: الأولاد والبنات وأزواجهن.

الفصل الأول

زوجات النبي وآل البيت

على كثرة ما قام به غيرنا من المؤرخين من الذين تناولوا سيرة حياة النبي ﷺ وآل بيته سواء عن أزواجه أو أولاده ثم بناته، رأينا نحن كذلك أن ننهل من هذا الفيض الكريم تقربًا إلى الله وإلى رسوله وتأكيدًا على حبنا له ولكل من ينتسبون إليه ﷺ.

ولسوف نبدأ رحلتنا خلال هذا الفصل بالحديث المفصل عن زوجات النبي الكريم الذي وصفهن القرآن الكريم بأنهن أمهات المؤمنين، وفق ما جاء في سورة الأحزاب عندما أخبرنا الله تعالى في قوله الكريم:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾

(سورة الأحزاب : الآية : ٣٢)

ونحن وكما سبق وذكرنا نعتبرهن من أصل المشاركات في تكوين آل البيت، إذ هن شاركن فعلاً في هذا البيت وفي تكوينه.. سواء بأنفسهن أو بما أنجبن من بنين وبنات.. وما أحوجنا الآن قبل الغد إلى العودة دائمًا للوقوف على تفاصيل سيرة ذلك النبي وآل بيته الكرام كي نستمد منه ومنهم العون على تلك الحياة وصخبها.

كما أننا نعتبر أن سيرة حياتهم جميعًا هى المرجع الرئيسي للوقوف على سنن هذا النبي وتفاصيل حياته عليه السلام، ونحن نعلم في سياق هذا الحديث ما قدمته السيدة عائشة رضى الله عنها وباعتبارها من زوجات النبي من خدمات جليلة بدت بوضوح فيما روته من أحاديث نبوية كثيرة ، وما نقلته لنا من تفاصيل عن حياة رسول الله ﷺ.

ولسوف نبدأ رحلتنا بعد لحظات بالوقوف على سيرة حياة هؤلاء الزوجات من واقع ما سجله أشهر رواة كتب السيرة و ما سطره المؤرخون.

والبداية مع هذه الزوجة الفاضلة وفق الترتيب الزمني لاقتران الرسول بهن ونقصد بذلك حديثنا عن السيدة خديجة رضى الله عنها.

•• السيدة خديجة بنت خويلد:

يقول الكاتب والمفكر الإسلامي الكبير الدكتور محمد حسين هيكل أن محمداً ﷺ قد تزوج من السيدة خديجة رضي الله عنها بعد أن أصدقها عشرين بكرة، وانتقل إلى بيتها ليبدأ معها وإياها صفحة جديدة من صفحات الحياة، صفحة الزوجية والأبوة، وليبادلها من جانبه حب شاب في الخامسة والعشرين من عمره (١)، هذا النبي الكريم الذي لم يعرف نزوات الشباب ولاطيشه، ولا هو قد عرف هذا النوع من الحب الأهوج.

ونظراً لأهمية هذا الزواج ودوره في حياة محمد عليه السلام وحياة الدعوة الإسلامية فقد تناولته العديد من كتب السيرة و المؤرخين والتراجم وبصرف النظر عما قدمته كزوجة لهذا النبي الذي حمل آخر رسالات السماء إلى الأرض من حنان وطمأنينة وعيش طيب رغيد، فقد كان علينا أن نقف كثيراً أمام ما قدمته أيضًا للإسلام من خدمات جليلة، وقد كانت في هذا السياق أول امرأة تدخل هذا الدين الجديد وبالتالي فقد فتحت باب آل البيت على مصراعيه لدخول غيرها. سواء من الأولاد أو الأحفاد. ولقد تحدث الأديب طاهر الطناحي بحب شديد عن السيدة خديجة رضى الله عنها عندما أشار فيما كتبه في مقدمة إحدى الكتب والذي صدر تحت عنوان "خديجة أم المؤمنين" حيث قال بالحرف الواحد: وإذا كانت إلى جانب كل عظيم سيدة يعتمد عليها في جهاده وفي الوصول إلى أهدافه، فقد كانت خديجة تلك السيدة العظيمة التي ناصرت نبوة محمد وعاونته على رفع راية الإسلام، وجاهدت في سبيل الدعوة الإسلامية عشر سنوات، هذه الدعوة التي جعلت من العرب أمة عظيمة ودولة جليلة الشأن أمام دولتين عظيمتين في هذا الزمان وهما دولتا الفرس والروم (٢).

وأمام هذه المواقف العظيمة التي رصدها التاريخ لهذه السيدة الكريمة خاصة من أجل نصرة الإسلام ورفع رايته كان علينا أن نتذكر بعضها على سبيل إنعاش الذاكرة، ولعل ما يتصدر كل هذه المواقف النبيلة تجاه زوجها النبي الكريم، موقفها الحنون حين جاءها رسولنا الكريم بقلب ملهوف ومرتجف بعد نزول الوحي عليه، وقد وصفها الدكتور محمد حسين هيكل في هذا الموقف

---

(١) حياة محمد ـ د . محمد حسين هيكل.

(٢) خديجة أم المؤمنين ـ السيد عبد الحميد الزهراوي.

بالذات بالوزير الصدق مؤكدًا فيما كتبه على أنه عندما انصرفت صورة الملك رجع محمد ممتلئاً بما أوحى إليه وفؤاده يرجف وقلبه يضرب خوفًا وهلعًا، ودخل على خديجة وهو يقول: زملوني، زملوني، فزملته وهو يرتعد كأنه به الحمى.

فلما ذهب عنه الروع، نظر إلى زوجته نظرة المستنجد وقال: يا خديجة ماذا بي؟!. وحدثها بالذي رأى وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته أو أن يكون كاهنًا. وكانت أيام محنته في الغار ومخاوفه أن تكون به جنة. ولم تبد له أي خوف أو ريبة ، بل رنت إليه بنظرة الإكبار وقالت: أبشر يا بن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني أرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقوى الضعيف وتعين على نوائب الحق[١].

وفي السياق نفسه أكدت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن هذا الموقف من جانب خديجة رضى الله عنها قد أزال عن رسولنا الكريم روعه، فما هو بالكاهن ولا هو به جنة. وهذا صوت خديجة العذب الواثق ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده فيبث فيه الثقة والأمن والهدوء[٢].

وكان ما مر علينا منذ لحظات من أعظم المواقف الإنسانية التي أبدتها هذه السيدة الفاضلة لزوجها النبي الكريم، ثم توالت بعد ذلك مواقفها الكثيرة والتي سجلها التاريخ بأحرف من نور. مما أكد لدينا ولدى الجميع تبوأ هذه السيدة مركز الصدارة في تاريخ المرأة المسلمة.

ومن بين هذه المواقف أيضًا والتي دلت على صلابة هذه السيدة وحبها لزوجها ولرسالته التي جاءته من السماء وما كان منها في محنته مع قومه عندما قرروا مقاطعته ومحاصرته وأهله في شعب أبي طالب، إذا لم تتردد خديجة لحظة واحدة في الخروج مع هذا الزوج وقد تركت دارها الحبيبة وقامت تتبع رجلها على حد قول الدكتورة بنت الشاطئ وقد علت بها السن وناءت بأثقال الشيخوخة والنكل والاضطهاد وأقامت هناك في هذا الشعب ثلاث سنوات، صابرة مع زوجها النبي الكريم ومن كانوا معه من صحبة وقوم[٣].

---

(١) حياة محمد ـ المصدر السابق.

(٢) نساء النبي ـ د . عائشة عبد الرحمن.

(٣) المصدر السابق.

هذه المواقف، وهذا الحب، جعل من رحيلها إحدى علامات عام الحزن الذي استجوب تدخل السماء ورحمة الله به؛ وبالتالي كانت سببًا عظيمًا من أسباب رحلة الإسراء والمعراج، بل وظل هو كذلك وفيًّا لها لذكراها معه بدليل ما كان يردده دائمًا حتى أمام زوجته الثانية السيدة عائشة. فكان كثيـرًا ما يقول ﷺ. والله ما أبدلني الله خيـرًا منها.. آمنت بي حين كفر الناس وصـدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء.

إن ما سقناه منذ لحظات مـا هو إلا ومضات ضوئية قـصيرة الموجات عن هذه السيـدة العظيمة والتي تبوأت أماكن كثيرة متميزة سواء في الدنيا أو في الأخرة. وكان من بين كل ذلك أنها وقفت على رأس آل بيت النبـوة، بل وكـانت بالفـعل عـموده المضئ دائمًـا والذي سـيظل منيـرًا إلى يوم القيامة.

●● سودة بنت زمعة:

لقد ذكرت لنا كـتب التاريخ أن السيدة خديجة رضى الله عنهـا، كانت أولى نساء النبي اللائي أنجبن له البنين والبنات، و لذلك تعتبر ـ كمـا سبق وأوضحنا ـ هى وأولادها وبناتها وأزواجهن من العُمد الرئـيسية لآل البيت، وبالتـالي فإن ما سوف يأتي من بـعدها من نساء النبي قد ألحـقوا بهذا البيت ودخلوا في معية النبي وآل بيته بمفردهن لأنهن لم ينجبن، فيما عدا السيدة ماريا القبطية آخر زوجات النبي الكريم التي دخَلت في معـية هذا البيت ومعها ابنهـا إبراهيم عليه السلام والذي لم تمهله السنين كي يكبر وينجب. ذرية ربما كانت ستدخل هى الأخرى في آل البيت.

من هنا فنحن نعـتبـر أن السيـدة سودة بنـت زمعـة والتي كانت وفق التـرتيب والإجمـاع ثاني زوجات النبي، قد دخلت هى الأخرى في معية آل البيت، وأصبحت من آله الكرام.

وكشـأن الكثير مـن أحداث السيـرة النبوية لاحظنا وجود خـلافات واضـحة بين المؤرخين أو معظمهم فيما يخص هذا الزواج من حيث أسبابه وأهدافه. وربما ارتباط هذا الزواج الثاني بأحداث زواج رسولنا الكريم من زوجـته الثالثـة السيدة عـائشة ابنة أبي بكر الصـديق كان سببًا في تناول العديد من المؤرخين وكُتاب السير لتفاصيل حياتها وزواجها من النبي الكريم.

وربما الحـديث الشريـف الذي نسب إلى النبيﷺ والذي ذكـره ابن حـجـر صاحب كـتـاب الإصابة يوضح لنـا ذلك وأكثر. إذ قـالت لرسول الله ﷺ "والله ما بي على الأزواج من حـرص ما

ولكن أحب أن أن يبعثني الله يوم القيامة زوجًا لك".

وهذا يعني أن زواج النبي الكريم من هذه السيدة الفاضلة لم يكن تكريماً لها وتخفيفًا عما لاقته من صعوبة الحياة بعد وفاة زوجها وأثناء هجرتهما إلى الحبشة بعد ظهور الإسلام. إذ توفى هذا الزوج فور وصوله مع زوجته إلى مكة. وكان يدعى السكران بن عمرو، وربما كانت رحلته إلى الحبشة والعودة منها سببًا في فقدها إياه.

وهناك من المصادر المروية التي أكدت على أن السبب الرئيسي وراء زواج النبي من السيدة سودة بنت زمعة هو أن تكون أنيسة له بعد رحيل زوجته السيدة خديجة ، وأن تحمل هموم خدمة بناته الصغار.

من هنا ربما جاء توقيت زواج النبي منها في التوقيت نفسه لاختياره عليه الصلاة والسلام الزواج من ابنة الصديق السيدة عائشة.

والدكتورة عائشة عبد الرحمن قد أشارت إلى ذلك تفصيلاً حين تحدثت عن هذه الزوجة الثانية، ولعل ذلك يبدو بوضوح في قولها: كانت سودة تقوم على بيت النبي حتى جاءت عائشة بنت أبي بكر فأفسحت لها سودة المكان الأول في البيت، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة وأن تسهر على راحتها.

وتشير كذلك معظم المصادر التاريخية في هذا السياق أن السيدة سودة بنت زمعة كانت تكبر السيدة عائشة بسنوات كثيرة، وأن رسولنا قد أشفق عليها من هذه الفروق التي اتضحت بشدة بعدما تزوج نبينا الكريم من كل من حفصة بنت عمر بن الخطاب وزينب بنت جحش وأم سلمة بنت أبي أمية المخزومي؛ لذلك أراد الرسول الكريم أن يطلقها لكي يريحها من هذه المشاق فحزنت بشدة وتمسكت بالزواج من النبي الكريم.. ويقال في هذا السياق أنها من أجل ذلك تنازلت عن ليلتها الأسبوعية للسيدة عائشة لأنها لم تكن تريد ما تريده النساء؛ وبذلك فقد ظلت أم المؤمنين السيدة سودة تعيش في كنف رسولنا الكريم حتى توفيت في بيته رغم أن عمرها قد امتد بها حتى زمن عمر بن الخطاب على أرجح الأقوال.

إذن نحن الآن أمام نموذج من نساء النبي كان هدفهن الرئيسي في الحياة هو العيش داخل آل بيت النبوة، ولذلك اهتم الكثير من المؤرخين والرواة بتفاصيل حياتها وارتباطها بالنبي الكريم..

ومما ذكروه في هذا السياق أن النبي ﷺ قد تزوجها في شهر رمضان سنة عشرة من النبوة، وهو ما ذكره الإمام الطبري في تاريخه.

وفي طبقات ابن سعد إشارة إلى أن النبي الكريم قد تزوجها وعاش معها في مكة قبل الهجرة، وكانت عائشة أنذاك لم تبلغ بعد السنوات الست، وقد استسلمت لما قدره الله تعالى لها، حيث رفعها النبي الكريم إلى مكانة جعلت منها إحدى أمهات المؤمنين وإحدى أعمدة آل البيت أيضًا، في حين أكد ابن إسحاق في سيرته أن هناك صفات عديدة انفردت بها سودة بنت زمعة. وكان على رأس هذه الصفات طيبة قلبها وطهارته إلى حد كبير.. إذ ذكر لنا ابن إسحاق فيما كتبه في العديد من الأحداث والمواقف التي بدرت منها أثناء حياتها مع النبي وأكدت هذه الصفات.

•• عائشة بنت أبي بكر:

مما لاحظناه عند البحث عن تفاصيل سيرة حياة السيدة عائشة رضى الله عنها.. أنها قد شغلت المئات من المؤرخين والرواة.. على الرغم من أنها كانت أصغر زوجات النبي.

لاشك أنه كانت هناك أسباب عديدة ومتنوعة جعلتها تتبوأ تلك المكانة المتميزة في التاريخ الإسلامي وبالتالي أيضًا جعلها تحظى بهذا الاهتمام الكبير من جانب المؤرخين سواء العرب أو الأجانب.

وما نود أن نشير إليه في هذا السياق أن ما سوف نتناوله عن هذه السيدة الكريمة عائشة أم المؤمنين لن يبتعد كثيراً عن منهجنا الذي ارتضيناه والخاص بإلقاء الأضواء المبهرة على حياتها بجوار زوجها النبي الكريم أو من بعد رحيله.

ولعل ما يحسب لها في سياق حديث هذه المواقف أنها كانت من أوائل نساء المسلمين اللائى عاصرن انتقال الإسلام ورسالته من مكة إلى المدينة. كما أسعفها الحظ أن تحظى كذلك بصحبة هذا النبي الكريم في حياته بل وأن يختار أن يدفن في حجرتها، وقد توفى ﷺ وفق أصدق الروايات في حجر أو فوق فخذ هذه السيدة الكريمة.

وهناك العديد من الروايات الموثوق بها والتي تناولت حياة السيدة عائشة رضى الله عنها ولسوف نتطرق لبعض هذه الروايات، ولكننا نريد قبل ذلك التأكيد على أن السيدة عائشة رضى

الله عنها قد تبوأت المرتبة الثالثة من مراتب من دخلوا في عترة آل البيت.

وتقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن فيما ذكرته عن أم المؤمنين عائشة أنه كان حسب عائشة بأن كانت بنت أبي بكر ميزة لينزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته في أعز مكان. لكنها كانت إلى جانب هذه الميزة، ذات لطف آسر وذكاء لماح وحب غض [1].

ولقد سبق لنا أن نوهنا أن رسولنا الكريم كان قد خطب السيدة عائشة من أبيها أبا بكر وهى ما زالت طفلة؛ وفي الوقت الذي كانت السيدة سودة بنت زمعة هى الزوجة التي حلت محل السيدة خديجة بعد رحيلها.. كما حضرت كذلك مراسم زواجه عليه السلام من عائشة ابنة أبي بكر، وهناك من المصادر التي أكدت أن النبي الكريم لم يدخل عليها إلا بعد عام أو عامين من خطبتها إذ كانت في هذا التوقيت ما تزال طفلة صغيرة، وربما لم تكن قد بلغت السادسة من عمرها. وقد خطبها النبي الكريم قبل هجرته إلى المدينة، ثم صحبها معه في هجرته إلى المدينة، وهناك دخل بها، وكانت بذلك الزوجة البكر الوحيدة التي اقترن بها رسول الله ﷺ. كما كانت كذلك من أحب النساء إليه.

وكما سبق وذكرنا أيضًا.. منذ لحظات فإن هذه السيدة قد انفردت بالعديد من المواقف التي ميزتها عن غيرها من نساء النبي، وكلها مواقف مذكورة ومعروفة في كتب السيرة.. بل وذكر القرآن الكريم جانبًا منها عندما نزل في حقها قرآن كريم للدفاع عنها فيما سمى بحادث الإفك.

ليس ذلك فقط، بل لقد انفردت هذه الزوجة بخاصية لم تتمتع بها غيرها من نساء النبي إذ روت عن النبي الكريم وفق أصدق الروايات أكثر من ألف حديث شريف. كما كان لديها نسخة من القرآن الكريم بعدما اطمأن النبي على ترتيب آياته وسوره من قبل رحيله. بالإضافة إلى أنها كانت كذلك مصدرًا فيما يتعلق ببعض مسائل الشرع والدين ولذلك كانت مصدرًا مهمًا للرواة سواء من النساء أو من الرجال ممن كانوا حولها آنذاك. وقد روى عنها أنها قالت عن هذه الصفات أو تلك الخصال التي انفردت بها دون غيرها من نساء النبي عليه الصلاة والسلام : فضلت على أزواج النبي بعشر خصال: تزوجت رسول الله بكرًا دون غيري، وأبواي مهاجران، وجاء جبريل عليه السلام بصورتي في حريرة وأمره بأن يتزوج بي، وكنت أغتسل معه في إناء واحد، وكان ينزل عليه الوحي وأنا معه في لحاف واحد.. وتزوجني في شوال وبنى بي في الشهرنفسه، وقُبض

(١) المصدر السابق.

بين سحري ونحري، وأنزل الله عليه عندي من السماء، ودفن في بيتي، وكل ذلك لم يساورني غيري فيه.

ولقد ذكر هذا الحديث الفخر الرازي في تفسيره بالجزء الرابع.

وهكذا لخصت لنا أم المؤمنين عائشة ما كانت تتمتع به من صفات وخصال بما مكنها أيضًا من أن تفوز بمكانة متفردة داخل قلب وعقل محمد عليه الصلاة والسلام، ومكانة خاصة أخرى في التاريخ الإسلامي.

ورغم ما حدثتنا عنه هذه السيدة الجليلة من خصال إلا أننا سوف نحاول ومن خلال ما توفر لدينا من مصادر أن نقتطف أنواراً من سيرتها العطرة، مع التركيز على بعض أهم الأحداث التي عاصرتها منذ أن وضعت أقدامها في بيت النبوة، وربما من قبل ذلك أيضًا.

لقد حضرت لحظة وصول نبي الرحمة إلى منزل أبيها لكي يصطحبه معه في هجرته عليه السلام إلى المدينة؛ كما شاهدت أختها أسماء وهى تصر على مصاحبتهما لتوفير الأمن الغذائي لهما في الطريق.

وتحكي لنا الدكتورة بنت الشاطئ لمحات مما حدث حينئذ، فتقول: أنه بعد أن استقر عليه الصلاة والسلام في دار هجرته بعث زيد بن حارثة إلى مكة؛ ليصحب بنات النبي رضي الله عنهن، ومعه رسالة من أبي بكر إلى ابنه عبد الله يطلب إليه فيها أن يلحق به مصاحبًا زوجته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة، وكان مع زيد أبو رافع مولى النبي ﷺ، وتضيف: وفي المدينة كان المصطفى يهيئ الدار لعائشة.

إذن نحن على أعتاب حقبة تاريخية جديدة من نشر الدعوة الإسلامية بعد الهجرة وكانت السيدة عائشة شاهدة على تلك الأحداث المهمة عندما اختار لها النبي أن يكون أول إقامة لها في منزله كزوجة في مقر إقامته الجديد حيث المدينة التي هاجر إليها.

ووفق ما روته الدكتورة عائشة عبد الرحمن فإن السيدة عائشة قد بدأت حياتها مع زوجها النبي محمد في هذا البيت المتواضع والذي بناه وأسسه لها والذي ألحقه بمسجده الشريف، وقد عاشت حياة زوجية هانئة مع زوجها الحبيب رغم أن الله قد حرمها من الإنجاب؛ مما دفعها إلى رعاية أبناء إخوتها وقد أفاضت عليهم بعواطف الأمومة التي حرمت منها.. وكان من ذلك على

سبيل المثال أنها أنزلت ابن أختها أسـماء وهو عبد الله بن الزبير منزلة الابن، حتى أنها كانت تكني به.. فيقال لها يا أم عـبد الله، وحين توفى أخوها عبد الرحمن ضمت إليهـا أيضًا ابنه القاسم وابنته الصغيرة.

ومن المفارقات التي عاشتها السيـدة عائشة أيضًا في داخل بيت زوجها النبي الكريم أنها كانت تشاهد بين الحين والحين انضمـام زوجات أخريات إلى بيت النبوة، وكانت البداية مع حـفصة ابنة عمر بن الخطاب ثم زينب بنت جـحش وجويرة بنت الحارث صفيـة حيى وأم حبيبة وأخـيراً ماريا القبطية.

وتؤكد المصادر الـتاريخية أن السيـدة عائشة رضى الله عنها قـد رحلت عن دنيانا وهى في سن السادسة والستين، وكانت ليلة وفاتها الثلاثاء سبعة عشرة من شهر رمضان سنة سبع وخمسين من الهجرة، وقد صلى عـليها الصحابى الجليل أبو هريرة، ثم شيـعت جنازتها في غسق الليل ودفنت بالبقيع على ضوء مشاعل من جريد مغموس في الزيت، كما أوصت هى بذلك.

•• حفصة بنت عمر بن الخطاب:

ويتواصل الحديث كي يقـترب بنا ناحية إحدى أمهات المؤمنين والتي تبـوأت المرتبة الرابعة في سجل مـن دخلوا بيت النبوة وأصبحن من آل بيـته الشـريف. إنها حـفصة ابـنة الفاروق عـمر بن الخطاب والتي كان دخولها بيت رسولنا الكريم هو إكمال لمحبته لأصحابه الكرام من الذين وقفوا إلى جانبه حتى انتشر دين الله.

والمصادر هنا تؤكد أن رسولنا ﷺ قد تزوج من حفصة ابنة عمر إكرامًا لزوجها الذي توفى في معركة أُحد تأثراً بجراحه، بل وأيضًا إكرامًا لأبيها؛ ولعل ذلك يبدو بوضوح فيما نقل عن عمر بن الخطاب حين قال لابنته حـفصة: يا بنية لا يغرنـك هذه التي أعجبها حـسنها وحب الرسول إياها، والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك.

هذا ويؤكد المؤرخون على رواية عمر بن الخطاب لابنته والتي أفصح فيها لها عن أسباب قبول النبي الكريم الزواج منها؛ ونراهم يقولون في هذ السياق أن هذا الزواج حدث عندما لاحظ رسول الله من سمات حـزن قد كست وجه صاحـبه عمر، خاصـة عندما ترملت ابنته حفـصة ذات الثامنة عشرة ربيعًا. كما رآه يبحث لابنته عن زوج يعوضها عما لحقها من أذى وحزن.

ولقد بدأ عمر رحلة البحث هذه في اتجاه أبو بكر الصديق حيث عرض عليه الزواج من ابنته ولكنه أمسك ولم يجب، وكذلك عرضها على عثمان بن عفان بعد أن علم بأن زوجته رقية ابنة رسول الله قد مرضت بالحصبة بعد عودتها من الحبشة، وكانت بذلك على وشك الموت، ولكنه أعرض عن هذا الطلب.

وهناك من المصادر التي أكدت على أن عمر بن الخطاب قد تضايق من ردود أفعال صاحبيه تجاه ابنته التي توفى زوجها، وقد ذهب يشكوهما لرسول الله ﷺ، فما كان من النبي الكريم إلا أن قال له وفق ما جاء في هذا الحديث الشريف: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة. ففهم عمر بن الخطاب أن رسول الله هو الذي سوف يتزوجها. وبالفعل حدث ذلك وباركت المدينة يد النبي وهى تمتد لتكريم عمر بن الخطاب بالزواج من ابنته حفصة كما باركت بعد قليل زواج عثمان بن عفان من أم كلثوم ابنة محمد ﷺ.

وقد تم كل ذلك في شهر جمادي الآخر من السنة الثالثة للهجرة، وفي شهر شعبان من العام نفسه جاءت العروس الجديدة إلى بيت النبي الكريم، وفيه كل من سودة وعائشة، وبذلك أصبحت من عترة آل بيت النبوة، كما تبوأت المرتبة الثالثة في عداد زوجات النبي الكريم.

ولا شك أن حفصة بنت عمر قد شهدت هى الأخرى أحداثًا جسام وهى إلى جوار النبي وفي بيته، كما كان بينها وبين السيدة عائشة تحالفات ظنًا أنها كانت تتم سرًا ضد رسول الله وقد فضح تلك التحالفات رب العالمين من فوق السماء السابعة. كما أنزل بذلك قرآنا ما يزال يتلى، ولسوف يظل كذلك إلى يوم أن تقوم الساعة، إذ يرى بعض المفسرين أن ما نزل من القرآن الكريم كان يخص العلاقة بين كل من عائشة وحفصة؛ وما كان بينهما من سر أفشته حفصة إلى عائشة.

ولقد لاحظنا أن هناك العديد من الروايات التي اقتربت كثيراً من تفاصيل كل ذلك. حتى أن هذه الروايات أكدت أن رسولنا الكريم كان سيقدم على تطليق حفصة ثم تراجع عن قراره تكريمًا لأبيها عمر بن الخطاب.

ولقد عاشت السيدة حفصة بنت عمر حتى تولى أباها الخلافة بعد رحيل أبو بكر الصديق كما شهدت كذلك أحداث مقتل أبيها.

وكانت تقيم في مدينة رسول الله وظلت منقطعة للعبادة إلى أن توفيت في عهد معاوية بن أبي

سفيان، ودفنت بالبقيع مع بقية أمهات المؤمنين، وهناك خلاف واضح بين المؤرخين حول العام الذي رحلت فيه. ولكن المرجح أنها توفيت في العام السابع والأربعين من الهجرة.

•• زينب بنت خزيمة المعروفة بأم المساكين:

لقد شاء حظ هذه السيدة الكريمة أن تصبح من أمهات المؤمنين، وبالتالي تدخل في آل البيت. ولكن هذا الحظ لم يدم طويلاً وفق أصدق الروايات إذ رحلت بعد عدة أشهر من زواجها من النبي الكريم واستقر جسدها إلى جوار أجساد غيرها من نساء النبي اللائي تم دفنهن في البقيع.

وهناك روايات متعددة دارت كلها حول قصة دخولها إلى بيت النبوة؛ وأغلبها ارتبط بوفاة زوجها وما أصابها بعد رحيله من حزن كاد أن يقض عليها، عندئذ عرض عليها رسولنا الكريم أن يتزوجها، فقبلت ذلك.

ومما لاحظناه في هذه الروايات أيضًا وجود خلاف كبير بين المؤرخين والرواة حول نسبها من ناحية أبيها كما رأينا أن هناك إغفال ربما غير متعمد عن الحديث عن أمها.

والدكتورة عائشة عبد الرحمن قد أشارت إلى ذلك أيضًا، كما أشارت في الوقت نفسه إلى ما كانت تتصف به هذه السيدة الفاضلة من صفات أهلتها لكي تحمل لقب أم المساكين، بخلاف ما كانت تتصف أيضا من الطيبة والكرم والعطف على الفقراء. على الرغم من أن هذه المصادر ذاتها لم تذكر لنا بوضوح ما كان لها من بصمات وأعمال داخل بيت النبوة والتي مكثت فيه عدة أشهر قبيل رحيلها، وقد توفيت في حياة زوجها النبي الكريم، وكانت بذلك ثاني زوجاته اللائي يرحلن في حياته إذ سبقتها السيدة خديجة رضى الله عنها.

وربما كان انشغالها على حد قول الدكتورة بنت الشاطئ في أعمال الخير والعناية بالمساكين وإطعامهم ورعايتهم قد أبعدها عن المشاركة في غير ذلك من أعمال قد ارتبطت ببيت النبوة، وربما أيضًا كان دافعها نحو ذلك هو الابتعاد عن جو النساء وغيرتهن.

وعلى أية حال فعندما توفيت حظيت بشرف أن صلى على جثمانها النبي الكريم ومن ثم دفنت بالبقيع، وكانت بذلك من أولى أمهات المؤمنين اللائي دفن في هذا الموقع.

ويبدو ووفق ما أكدته الدكتور بنت الشاطئ أن قصر مدة إقامتها ببيت النبوة وانشغالها بأعمال الخير خلاف غيرها من أمهات المؤمنين قد ساهم في قلة الحديث عنها داخل المصادر المروية.

وعلى أية حال فإنه يكفيها فخرًا أن قال عنها رسول الله في أحد أحاديثه النبوية:

"أو لكن لحافاً بي اطولكن يدا..... " صدق رسول الله.

•• أم سلمة (هند بنت حذيفة بن المغيرة):

وفق الترتيب العام لما اتفق عليه المؤرخون تأتي السيدة أم سلمة واسمها هند بنت حذيفة بن المغيرة وأبوها كان يعرف باسم "زاد الراكب".. أقول وفق هذا الترتيب العام تأتي أم المؤمنين أم سلمة في المرتبة الخامسة من مراتب تواجد زوجات النبي داخل جدران بيته عليه الصلاة والسلام.

هذه السيدة الفاضلة كانت متزوجة من عبد الله بن عبد الأسد والذي كان معروفًا باسم أبو سلمة نسبة إلى ابنه سلمة.. هذا الصحابي الجليل الذي فرق المشركون بينه وبين زوجته عندما أراد الهجرة إلى المدينة لكي يلحق هو وزوجته وابنه الصغير سلمة بركب رسول الله الذي كان قد وصل إلى المدينة، إلا أن المشركين من بني عبد أسد وهم قبيلة أبو سلمة قبضوا على زوجته وابنه واحتجزوهما لديهم، بينما نجح أبو سلمة في الهرب فراراً في اتجاه المدينة، وظلت زوجته حبيسة لدى المشركين في مكة حتى توسط لها بعض أقاربها فخلو سبيلها، عندئذ أخذت ابنها الصغير في طريقها إلى المدينة للحاق بزوجها وبقية المسلمين المهاجرين إلى المدينة.

وقد مكنها الله من ذلك حيث التقت بزوجها أبو سلمة عند إحدى القرى القريبة من مدخل المدينة ناحية قباء وظلت تعيش معه لا يشغلها عن ذلك إلا زيادة جرعة الإيمان داخل صدرها وفي قلبها مع تربية أولادها في المقام الجديد.

حدث ذلك في الوقت الذي تفرغ فيه زوجها أبو سلمة للجهاد في سبيل الله حتى أصيب إصابة قاتلة جاءت مكان الجرح السابق والذي جرح به في معركة أُحد، وقد ظل يعاني من هذه الإصابة إلى أن توفاه الله.

وتحكى لنا كتب السيرة أن أبا سلمة كان قد عاهد زوجته بضرورة أن تتزوج من غيره بعد وفاته على عكس ما كانت تريد.

ومن أجل تحقيق هذه الأمنية أخذ يدعوا بذلك وهو على فراش الموت وكان كثيراً ما يقول في هذا الدعاء: "اللهم اخلفني في أهلي خير" فستجاب الله دعائه ومن ثم أخلفه رسول الله في زوجته

أم سلمة، عندئذ دخلت هذه السيدة الفاضلة ضمن زمـرة آل البيت بعدما تزوجها رسول الله، على الرغم مما أكدته بعض المصادر من أن كل من أبي بكر وعمر قد تقدما للزواج منها ولكنها مع ذلك كانت ترفض.

كما قيل في السياق نفسه أنهـا اعتذرت كذلك لرسول الله عندما طلب الزواج منها، وأرسلت إليه تقول: "أنا غَيري.. مـسنة ذات عيال". فأجابها رسول الله قائلاً: أما إنـك مسنة فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمـا العيال فإلى الله ورسوله. عندئذ وافقت أم سلمة، وتزوجت من النبي الكريم بالفعل في شهـر رمضان المبارك من السنة الرابعة من الهجـرة، وقد حلت بذلك مقام زوجة النبي التي رحلت من قبل وهى السيد زينب بنت خزيمة.

كما رضـيت كذلك أن تبعث بابنها سلمة إلى حـاضنة من أجل التفرغ لواجباتهـا الزوجية مع رسول الله ﷺ.

ويبدو أن رسولنا الكريم كان كثيرًا ما يجد الراحة لدى أم سلمة والدليل على ذلك ما جاء في الحديث الشريف الذي روته السيدة عائشة حين قالت: دخل علي يوماً رسول الله فقلت: أين كنت منذ اليوم؟!. قال: يا حمراء، كنت عند أم سلمة فقلت: أما تشبع من أم سلمة؟.. فتبسم.

هذا الحديث الشريف جاء في الـطبقات الكبرى لابن سعد. كمـا روت أم سلمة عدة أحاديث نبوية شريفة وأنزل الله تعالى على رسولنا هذه الآية الكريمة وهو في بيتها:

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(سورة التوبة: الآية: ١٠٢)

وبخلاف ذلك ذكـرت المصارد بعض مواقفـها المحمودة إلى جـوار رسولنا الكريم ولعل ذلك يبدو بوضوح فيما ذكرته الدكتورة بنت الشـاطئ منقولاً عن ابن حجر، يوم الحديبية. حيث قالت: وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال الـبارع والفعل البالغ والرأي الصائب، وإشارتها على النبي ﷺ يوم الحديبيـة يدل على وفور عقلها وصواب رأيها ، ليس ذلك فـقط، بل تؤكد المصادر على أن أم سلمة قد صاحبت زوجها رسول الله في غـزوة خيبر وفي فتح مكة.. وفي حصاره للطائف وغزوة هوازن، ثم في حجة الوداع.

هذا وقد توفـيت أم المؤمنين أم سلمة بعـد أن علمت بأحداث كـربلاء ومصرع الإمـام الحسين وبعض آل البيت.

••زينب بنت جحش:

عندما دخلت هذه السيدة الفاضلة ضمن عترة آل بيت رسول الله بعدما باتت إحدى زوجاته الكريمات كانت من بين نساء المسلمين التي حملت اسم زينب، مثل زينب الكبرى ابنة رسول الله. وزينب بنت خزيمة رضى الله عنها أم المؤمنين.

ولزواج رسولنا الكريم من زينب بنت جحش رواية مشهورة في كتب السيرة وفي التاريخ الإسلامي، خاصة وأنها ارتبطت بإحدى آيات القرآن الكريم التي نزلت بخصوص هذا الزواج، وفيها توجيه عظيم من رب العالمين إلى رسوله الكريم بأن يتزوج من هذه السيدة.

ففي (سورة الأحزاب) قال ربنا تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾

(سورة الأحزاب : الآية : ٣٧)

وقصة هذا الزواج وارتباطه بآيات الله وقرآنه الكريم نسوقها في عجالة.. إذ أن رسول الله ﷺ قد زوج زيد بن حارثة مولى السيدة خديجة والتي كانت قد وهبته لرسول الله قبل بعثته الشريفة. من ابنة عم رسول الله، زينب بنت جحش، ولكن عندما خطبها رسول الله لزيد امتنعت من إنكاحه نفسها، لأنها كرهت هذا الزواج وأيضًا أخوها عبد الله بن جحش، بسبب أن زيداً كان من الموالي، رغم أصله العربي الصريح أبًا وأمًا.

وعلى إثر على هذا الرفض من جانب السيدة زينب نزلت الآية رقم ٣٦ من سورة الأحزاب وفيما قول الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾

(سورة الأحزاب : الآية : ٣٦)

ولما نزلت هذه الآية استجابت السيدة زينب لأمر ربها وأمر رسول الله فتزوجت من زيد بن حارثة، ونظراً لما كان في قلبها من عدم رضى عن هذا الزواج لم تدم العشرة بينها وبين الصحابي

زيد بن حارثة، ولم يكن هناك بد أمام ذلك إلا التفريق. عندئذ تزوجها رسولنا الكريم وبوحي إلهي أيضًا ووفق ما جاء في الآية ٣٧ من سورة الأحزاب نفسها.

وهناك الروايات المغلوطة والمغرضة بشأن هذا الزواج خاصة بالنسبة لرسولنا الكريم وقد ناقشها جميعًا وقدمها الدكتور محمد حسين هيكل.

وقد عاشت السيدة زينب بنت جحش في بيت النبوة كزوجة لرسول الله ﷺ ومع غيرها من الضرائر وما كان بينهن من مناوشات خاصة مع ضرتها السيدة عائشة بنت أبي بكر، إلى أن توفاها الله سنة عشرة من الهجرة في عهد عمر بن الخطاب. ويقال أنها كانت من زوجات النبي اللائي روين الأحاديث الشريفة.

•• جويرية بنت الحارث:

ويدخل كذلك ضمن عترة آل بيت هذا النبي الكريم هذه الزوجة التي نالت شرف اقترانها برسول الله وفوزها بلقب أم المؤمنين. وهناك الكثير من الروايات التي أشارت إلى ظروف زواج النبي الكريم من السيدة جويرية بنت الحارث، والتي ارتبطت في الأساس بالمعركة التي وقعت بين المسلمين وبين بني المصطلق، إحدى القبائل العربية التي كانت تقف في صفوف أعداء الإسلام ونبيه، وكانت كذلك من المعارك القليلة التي قادها النبي بنفسه عندما علم بنية هذه القبيلة في مهاجمة المدينة والإغارة على أهلها، عندئذ قرر الرسول الكريم وأصحابه الكرام ضرورة مباغتة هذه القبيلة قبل وصولهم إلى المدينة، فنزلوا بساحتهم عند عين ماء كانت تسمى "المريسيع".. لذلك عرفت هذه الغزوة أو هذه المعركة تاريخيًا بهذا الاسم.

وفي هذه المعركة فاز المسلمون بغنائم كثيرة سواء من المال أو من النساء، وكان من بين هذه الغنائم سيدة تدعى "برة بنت الحارث بنت أبي ضرار بن حبيب".. سيد قومه وقائدهم.

ويقال في هذا السياق أن رسولنا ﷺ هو الذي اختار لها ذلك الاسم الجديد فنادها باسم "جويرية". وكان ثابت بن قيس أحد صحابة رسول الله هو الذي تمكن من أسرها ولذلك طلب الزواج منها، عندئذ استغاثت برسول الله رافضة هذا الزواج.

وتكمل لنا المصادر التاريخية بقية حكاية زواج السيدة الفاضلة من رسولنا الكريم ﷺ عندما

ذكرت تلك المصادر أنها وبعدما رفضت الزواج من هذا الصحابي واستغاثت برسول الله، عندئذ سألها النبي الكريم: وهل لك في خير من ذلك؟! سألته في لهفة: ومن يا رسول الله؟!. قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك. فتألق وجهها الجميل وفق ما جاء في رواية الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وظهرت عليها علامات الفرح، فهي لم تكن تصدق ذلك وقد نجت من الضياع والهوان. فأجابته: نعم يا رسول الله، قال النبي: قد فعلت.

وتؤكد الدكتورة بنت الشاطئ أن ما روته فيما كتبت هو منقول عن كتب السيرة وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري. كما أكدت فيما كتبت أيضًا.. أن هناك روايات أخرى عن هذا الزواج، ولكن المحصلة النهائية أن السيدة جويرية بنت الحارث قد صارت من أمهات المؤمنين كما أصبحت إحدى أعمدة آل بيته الكرام، بل وكان لها الفضل في أن يقرر رسول الله عتق مائة نفر من أهل قبيلتها بني المصطفلق، إذا اعتبرهم رسولنا الكريم من أصهاره عليه الصلاة والسلام.

ومما ترويه المصادر عن أم المؤمنين جويرية أنها كانت متزوجة قبل أن تقع في الأسر في أيد المسلمين من ابن عمها والذي قتل في هذه المعركة، وقد امتد بها العمر حتى أيام خلافة معاوية بن أبي سفيان، وتوفيت بالمدينة سنة ست وخمسين هجرية على أرجح الأقوال، وكان عمرها آنذاك سبعون عاماً.

ومما يروى بخصوص زواجها من رسول الله ﷺ أن أباها حين علم بزواج ابنته من رسول الله أسرع إليه معلنًا إسلامه مما ساهم كذلك في إسلام كل أفراد قبيلته من بني المصطفلق وقد أصبحوا قوة لا يستهان بها في الدفاع عن الإسلام وعن رسوله الكريم ﷺ.

•• صفية بنت حيي من بني النضير:

وأخذت انتصارات الرسول الكريم وأصحابه؛ تتوال هنا وهناك، من أجل توسيع رقعة الأرض التي يعمها هذا الدين الجديد حتى أخذ يشمل كل بقاع أرض الحجاز.

ونحن قد قصدنا من هذه المقدمة أن نقول إن زواج نبينا الكريم من السيدة صفية بنت حيي من بني النضير قد ارتبط كذلك. بما كان يحققه النبي الكريم من انتصارات للإسلام، إذ تؤكد المصادر التاريخية أن هذه السيدة الفاضلة كانت من أهل خيبر ومن الذين حاربهم رسول الله في السنة السابعة من هجرته الشريفة، وفي هذه المعركة التي ساهمت في فتح خيبر والانتصار على أهلها

من اليهود نجح المسلمون في قتل وتخريب ديار هؤلاء وسبى نسائهم خاصة من بني النضير، وكان من بين ما تم آسره السيدة صفية والتي قيل أن نسبها ينتهي إلى سيدنا هارون أخي موسى عليهما السلام، وكانت في ذلك الوقت تبلغ سبعة عشرة عاماً.

وقد تمكن من أسرها ومن كان معها من أهلها الصحابي الجليل.. حية بن خليفة الكلبي.

ونظراً لما كانت تتمتع به من جمال وشرف النسب فقد تنافس على الزواج منها العديد من أصحاب رسول الله خاصة من الذين شاركوا في هذه المعركة.

ويقال أن النبي الكريم ﷺ قد تدخل شخصيًا لحسم هذه الخلافات بين أصحابه من الذين كانوا يتنافسون عليها ومن ثم قرار اختيارها كزوجة لنفسه بشرط أن تعلن إسلامها، وقبلت ذلك عن رضى.

وقد بينت كتب السيرة وكذلك صحيح مسلم تفاصيل هذا الاختيار الذي جاء موفقاً وبوحي من رب العالمين.

ومما رووه في هذا السياق أن رسول الله ﷺ أمر صفية فحيزت خلفه وألق عليها رداءه فعرف الناس أن رسولنا قد اصطفاها لنفسه وكان المسلمون من حوله لم يدرون أتزوجها رسول الله أم اتخذها أم ولد ولكنهم حين عرفوا بأن الرسول الكريم قد حجبها أيقنوا بأنه عليه الصلاة والسلام قد تزوجها[١].

ويبدو أن زواج رسولنا الكريم من هذه السيدة قد أثار حفيظة وخوف عدد كبير ممن كانوا حوله. إذ يؤكد الدكتور محمد حسين هيكل أن المسلمين أنذاك لم يكونوا قد اطمأنوا لليهود حتى بعدما دخلت إحدى نسائهم ديارا المسلمين وباتت تحمل لقب أم المؤمنين، حتى أن الصحابي أبو أيوب الأنصاري قد خاف من إيذائها رسولنا الكريم بعدما قُتل أبيها وزوجها، ولذلك نراه وفق ما جاء في معظم الروايات قد أثر أن يبيت أمام الخيمة التي أعرس فيها النبي بصفية في طريق عودته من خيبر وكان متوشحًا بسفه، فلما أصبح رسول الله ورآه فسأله: مالك؟! قال: خفت عليك من هذه المرأة وقد قتلت أباها وزوجها وبعض قومها، وقد كانت حديثة عهد بكفر[٢] ولكنها بقيت

(١) نساء النبي ـ مصدر سابق.

(٢) حياة محمد ـ مصدر سابق.

على عهـدها لرسول الله، وحافظت على مكانتـها داخل بيت النبوة ثـم داخل قلب رسولنا الكريم حتى توفى ﷺ وتركها. حيث عاشت حتى خلافة معاوية بن أبي سفيان ودفنت بالبقيع. ويقال أنها كانت تروى بعض الأحاديث النبوية.

•• أم حبيبة بنت أبي سفيان:

لقد دخلت أم حـبيبة التاريـخ الإسلامي من أوسع أبوابه لارتباطها بحـادثين تاريخيين هامين، الأول أنها كانت إحدى المسلمات المهاجرات إلى الحبشة في موجة الهجرة الثانية مصاحبة لزوجها هربًا بدينهـا خاصة من سطوة أبيـها أبي سفـيان ابن حرب، وأمـا الثاني فـهو ذلك الحدث الأكـبر والجليل في حياتها عندما اختارها رسولنا الكريم زوجة له وبالتالي فقد دخلت في معية أهل البيت ومن ثم أصبحت إحدى أمهات المؤمنين.

ومما يحكيـه الرواة عن تفاصـيل هذين الحـادثين في حيـاة. أم حبـيبـة تعرف أنهـما قـد ارتبطا ببعضهما البعض ارتباطًا كبيرًا. ولقد تجلى ذلك حتى في التوقيت والهدف والنتيجة أيضًا.

ويؤكد هؤلاء الرواة في هذا السياق أن هذه السيدة تـدعى "رملة بنت أبي سفيان" وأنها عرفت في التاريخ الإسـلامي باسم أم حبيـبة نظرًا لأنهـا أنجبت طفلة صغـيرة أسمـتها بهـذا الاسم عندما كانت مهـاجرة مع زوجها في الحـبشة وكان يدعى أيضًا عـبيد الله بن جحش ويقـال أنه قد أصيب هناك بلوثة من جراء إقباله على شرب الخمر، والذي أدى به إلى الخروج عن دين الإسلام والعودة إلى دين أبائه من الكافرين.

بل وهناك من يقول أنه دخل دين النصرانية، ولما عرفت زوجتـه بذلك اعتزلته وعاشت وحدها مع ابنتها بعيدة عن أعين الناس انتظاراً بفرج الله القريب، وهي ما زالت هناك في أرض الحبشة.

وقـد علم رسول الله بما وقع لـها خـاصة مع زوجـهـا الذي ارتد عن دين الإسـلام فبـعث إلى النجاشي ملك الحبشـة لكي يخطب له أم حبيبة كزوجة للنبي الكريم؛ وبالفعـل وكما تؤكد معظم المصادر أن هذا الملك قد جمع كل من كان عنده من المسلمين المهاجرين، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي وخالد بن سعيد وكيل رملة أم حبيـبة، وقد أخبرهم بأن محمداً بن عبد الله كتب له أن يزوجه أم حبـيبة بنت أبي سفيان، وبصـداق قدره أربعمائة دينار، فوافقت أم حـبيبة

وبالتالي فقد صارت إحدى أمهات المؤمنين، وهي ما تزال في أرض الحبشة.

وعندما وصلت إلى المدينة مع بقية وفد المسلمين المهاجرين، احتفلت بهذه المناسبة السعيدة، وهناك بعض المصادر التاريخية التي أكدت أن أم حبيبة الزوجة الجديدة لرسولنا الكريم حين وصلت إلى المدينة لكي تنضم إلى آل بيت النبوة، لم يكن قد مضى على زواج الرسول الكريم من صفية بنى النضير سوى أيام معدودة.

عندئذ نقترب من الحادث الثاني في حياة أم المؤمنين أم حبيبة والذي ارتبط بشدة بعودتها إلى المدينة كزوجة للرسول الكريم. إذ أخذت هذه السيدة الفاضلة في تلمس أخبار أبيها أبي سفيان والذي كان مايزال على كفره وعناده ضد الإسلام وضد رسوله، واستمراره في حربه ضد المسلمين.

ويبدو أن القدر قد لعب لعبته العظيمة بمشيئة الله وفضله. إذ كان تواجدها في بيت النبوة سببًا مباشرًا في العفو عن أبيها الذي هداه الله واستجاب لدعوة رسول الله ودخل الإسلام.

هذا وقد روت أم حبيبة وابنتها أحاديث شريفة كثيرة وصلت ربما إلى أكثر من خمسة وستين حديثًا شريفًا؛ هذا وقد توفيت في سنة ستة وأربعين هجرية على الأرجح ودفنت بالبقيع.

•• ميمونة بنت الحارث:

عندما يتمنى المرء منا شيئاً طيباً، ويظل يعيش في كنف ما يتمناه واثقًا في الله الكريم وقدرته على تحقيق ما يتمناه، فمن المؤكد أن الله تعالى سوف يحققه له، ويجعل مما تمناه واقعًا يراه أمامه، وهذا ربما ما حدث لهذه السيدة التي انتهى بها مطاف هذه الأماني إلى أن تكون زوجة لرسول الله وتدخل في معيته داخل آل بيته.

لقد تمنت السيدة الجليلة ميمونة بنت الحارث آخر أمهات المؤمنين وقبل زواجه عليه الصلاة والسلام بماريا القبطية أن تكون زوجة لرسولنا الكريم، وقد استجاب الله لهذه الأمنية وباتت تتمتع بلقب جديد في حياتها. إذ كانت من بين الأخوات الأربعة المؤمنات وفق ما جاء في الحديث الشريف، وهم أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، وسلمى زوجة حمزة عليه السلام، وميمونة أم المؤمنين وأسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب.

ولكن كيف تحققت أمنيتها المتعلقة بزواجها من رسولنا الكريم؟.. إن هناك العشرات من المصادر التي تناولت هذه الحكاية من دون وجود اختلافات كثيرة فيما روى عن ذلك، إذ أكدت هذه المصادر أن السيدة ميمونة كانت قد أسلمت وهى في سن صغيرة، إذ جاء مولدها قبل البعثة النبوية بست سنوات.

وعندما بلغت مبلغ النساء خطبها مسعود بن عمرو، ثم تزوجها وعاشت في كنفه وتحت سلطانه، لكنها كانت كثيرة التردد على بيت أختها أم الفضل زوجة العباس عم النبي ﷺ بعدما توفت أمها.

وفي داخل هذا المنزل المبارك كانت ميمونة تستمع بشوق واهتمام إلى تعاليم الإسلام وأخبار الرسول الكريم[١].

وتؤكد المصادر ذاتها أن السيدة ميمونة لم تكن على وفاق مع زوجها مسعود ولذلك تركته فطلقها ومن ثم عادت كي تعيش مع أختها أم الفضل زوجة العباس عم النبي الكريم، وظلت تعيش بجوار أختها في هذا البيت حتى أنعم الله عليها بالزواج من نبي الرحمة.

ولقد سبق لنا القول بأن هناك روايات عديدة قد تحدثت عن هذا الزواج، مؤكدة على أنها هى التي سعت إليه، ففي رواية أوردتها الدكتورة عائشة عبد الرحمن قالت فيها: إن سيدة من أكرم سيدات مكة كانت ترنوا إلى الركب النبوي وغاية أمانيها أن تعدو أمًا للمؤمنين، وأن ظروف هذا الزواج قد ارتبط بتلك الزيارة التي قام بها رسولنا الكريم إلى مكة في العام السادس من الهجرة لأجل العمرة، بعد أن تم حرمان المسلمين من تحقيق هذه الزيارة لسنوات طويلة خاصة من جانب صناضيد قريش.

كما ارتبطت ظروف هذا الزواج أيضًا بصلح الحديبية بدليل أن رسولنا الكريم وبعدما وافق على الزواج من السيدة ميمونة بنت الحارث تحقيقًا لما تمنته وهو في مكة المكرمة أراد أن يدخل بها هناك ولكن الكفار رفضوا ذلك بعدما انقضى الأجل المنصوص عليه في عهد الحديبية، فنزل رسولنا الكريم على كلامهم وأذن في المسلمين بالرحيل مخلفًا وراءه مولاه أبا رافع في مكة ليلحق به في صحبة السيدة ميمونة.

---

(١) رجال ونساء حول رسول الله ـ محمد علي قطب.

وبالفعل جاءت إلى بيت النبـي فانضمت إلى آل البيت بالمدينة والذي ظلت.. تعيش فـيه حتى بعد رحيله عليه الصلاة والسلام.

ويقال في هذا السـياق أن رسولنا الكريم قـد أصدقها أربعـمائة درهم وأن اسمـها هوبرة بنت الحارث، ويؤكد محمـد رضا في كتابه محمد رسول الله أن هذه السـيدة هي آخر من تزوج رسولنا من أمهات المؤمنين.

••ماريا القبطية:

في كل ما قـرأته سواء من مصـادر حديثة أو قـديمة لاحظت أن السيـدة ماريا القبطيـة المصرية والتي أهداها المقوقس زعـيم قبط مصـر وحاكمهـا في الوقت نفسه، لم تنل شـرف اللحاق بقطار أمـهات المؤمنـين. هذا القطار الذي توقف في آخـر محطـاته على أبواب مكة المكرمـة بزواج النبي الكريم من ميمونة بنت الحارث.

وفي تصوري أنه ورغم ذلك فإنني أعـتبر أن هذه السيدة الفاضلة والتي أتت من صعـيد مصر، قد التحـقت بالفعل بآل النبوة وبالتالي فـقد أصبحت من أحد أعـمدته القوية خاصـة وأنها كانت الزوجة الوحيدة بعد السيدة خديجـة التي أنجب منها رسولنا عليه السلام طفله الوليد إبراهيم عليه السلام.

وعندما نعـود للحديث عن زواج نبـينا الكريم من هذه السيـدة الفاضلة، نقول إنـنا قد لاحظنا مـثل حديث بقـيـة الزيجات السـابقـات أن هناك العـشرات من المصـادر التي تناولتـه بالتـفصـيل المطلوب.

ولقد رأيت من قـبل الاقتراب من هذه المصـادر ضرورة التوقف ولو للحظات أمـام ما سطرته الدكتورة بنت الشاطئ في كـتابها عن هذه الزوجة.. فربما نجد فيـه إجابة على ما سبق وطرحناه من سؤال حول عدم اعتبار ماريا المصرية من أمهات المؤمنين.

قال الدكـتورة بنت الشاطئ: غـير بعيـد من بيت النبي وفي منزل خاص بعـوالي المدينة،كانت تقيم سرية للنبي ﷺ، ولم تحظ بلقب أم المؤمنين، ولكنهـا حظيت دونهم جمـيعًا بشـرف أمومتـها لابنه إبراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها مثلهن بشرف الصحبة.

أما فيما يتعلق بما جاء بالمصادر والخاص بزواج النبي من هذه السيدة فقد لاحظنا أن معظمهم قد تناول مكان مولدها في صعيد مصر حيث أشارت تلك المصادر إلى أنها ولدت في قرية كانت تسمى "حفن" وتقع على الضفة الشرقية للنيل في اتجاه الأشمونية. كما أشارت كذلك إلى أنها كانت تدعى ماريا بنت شمعون، ووالدها كان قبطيًا وأمها مسيحية رومية، أهداها المقوقس بمصاحبة أختها سيرين وعبد خصى إلى النبي الكريم، وجاء بهم إلى المدينة ذلك الرسول الذي بعثه نبينا إلى مقوقس مصر وكان يدعى "حاطب بن أبي بلتعة"، حاملاً إلى المقوقس رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام مثلما كان يبعث لكل الملوك أنذاك برسائل يدعوهم إلى دخول الإسلام، وكان ذلك في شهر محرم من سنة سبع بعد فتح خيبر وفق ما ذكره ابن سعد في طبقاته.

وعندما وصلت إلى المدينة اختارها رسولنا الكريم زوجة له في حين وهب أختها سيرين إلى شاعره حسان بن ثابت وقد ظلت تعيش في كنف بيت النبوة حتى توفاها الله ودفنت كذلك في البقيع.

الفصل الثاني

أولاد النبي وبناته وأزواجهن



في هذا الفصل نواصل رحلتنا مع نبي الرحمة الرسول الكريم محمد ﷺ حيث نتحدث عن أولاده الذكور وبناته وكذلك أزواجهن.

ومن المعروف وفق ما دونه التاريخ الإسلامي وكتبت السيرة أن محمد ﷺ قد أنجب طفلين من الذكور من زوجته الأولى السيدة خديجة رضى الله عنها، وهما القاسم وعبد الله الملقب بالطيب أو الطاهر، ثم إبراهيم عليه السلام من زوجته ماريا القبطية.

أما بناته عليه السلام فقد بلغ عددهن أربعة من نسل السيدة خديجة أيضًا وهن بالترتيب: زينب ورقية وأم كلثوم ثم فاطمة الزهراء، هؤلاء البنات الأربعة قد تزوجن في حياة أبيهم، سواء من قبل بعثته عليه السلام أو من بعدها.

ولقد خصصنا كل أوراق هذا الفصل وكما سبق ونوهنا في مقدمة الكتاب لحديث مفصل عن عترة آل البيت من أولاده وبناته عليه السلام. ثم أزواجهن أيضًا.

وسوف يكون دليلنا إلى هذا الحديث المشوق والمفصل كتب السيرة والتاريخ الموثوق بها لدى غيرنا من المؤرخين.

وما نود الإشارة إليه في هذا السياق أننا ما زلنا في هذا الباب من كتابنا والذي بين أيديكم نعيش فوق أرض الحجاز، إذ لن نبتعد كثيرًا عن مكة أو المدينة، وهما المكانيين اللذين نشأ وعاش فيهما آل بيت رسول الله من أولاده وبناته وأزواجهن، كما عاش بهذين المكانيين أيضًا كل زوجاته رضى الله عنهن أجمعين.

أولاد النبي من الذكور:

•• القاسم وعبد الله:

كنت أود أن أكتب بتوسيع كبير عن هذين الطفلين الجليلين اللذين رُزق بهما رسولنا الكريم وأنجبتهم زوجته السيدة خديجة. وذلك باللجوء للمصادر التاريخية سواء العربية أو الأجنبية، ولكن عندما بدأت أقلب صفحات هذه المصادر فوجئت. بقلة المعلومات المتاحة عن هذين

الطفلين الجليلين في مقابل ما جاء في هذه المصادر نفسها عن أخوهما إبراهيم عليه السلام والذي أنجبه رسولنا الكريم من زوجته ماريا المصرية، وربما السبب في ذلك يرجع إلى أنهما قد ولدا قبل البعثة المحمدية الشريفة بعكس أخوهما إبراهيم.

ونبدأ رحلتنا معهما مما كتبه وأشار إليه الدكتور محمد حسين هيكل الذي قال: تعاقبت السنون ومحمد ﷺ يشارك أهل مكة في حياتهم العامة ويجد في خديجة خير النساء حقاً، الودود. الولود التي وهبت نفسها له والتي أنجبت له من الأبناء الذكور القاسم وعبد الله الملقب بالطاهر والطيب[(١)].

وكما نعرف فقد أجمعت كتب السيرة على أن رسولنا الكريم قد عاش مع زوجته الأولى السيدة خديجة نحو خمسة عشرة سنة، وقد أنجبت له كل أولاده من البنين والبنات، ولكن يبدو أن إنجابها رضى الله عنها لأولاده من الذكور قد تزامن مع أيام الجاهلية وقبل بعثته الشريفة، كما أنهما قد ماتا وهما صغيرين، ولم تبين لنا هذه المصادر ترتيب ولادة أولاد النبي سواء من البنين أو من البنات، فيما عدا كل من زينب الكبرى التي كانت أكبر بناته عليه السلام وكذلك فاطمة أصغرهن، إضافة إلى كون ابنه إبراهيم عليه السلام هو أصغر أولاده من الذكور.

وفيما عدا ذلك نجد عدم توافر المعلومات المطلوبة فيما يخص ولديه الأخرين عبد الله أو القاسم أو الطاهر.

وكما سبق ونوهنا فقد وجدنا خلافات كبيرة بين المؤرخين فيما يخص أسماء أولاد النبي من الذكور ولعل هذا الخلاف يتجلى بوضوح فيما أشار إليه محمد رضا في كتابه "محمد رسول الله" إذ نراه يقول "...وولدت خديجة لرسول الله جميع ولده، إلا إبراهيم، فإنه من ماريا القبطية، وأن أكبر أولاده من الذكور هو القاسم وبه كنى رسول الله، ثم الطيب والطاهر".

في حين أكدت مصادر أخرى أن رسولنا الكريم لم ينجب من السيدة خديجة سوى طفلين ذكرين هما القاسم وعبد الله والذي لقب بالطاهر والطيب.

ونظراً لعدم وجود معلومات كثيرة فيما يخص هذين الطفلين، فقد كثرت الاجتهادات واختلفت، إذ ذكر الشيخ محمد عثمان في كتابه "في البيت النبوي الكريم" أن أولاد النبي من

---

(١) حياة محمد ـ مصدر سابق.

الذكور هما القاسم وعبد الله، ودليله إلى ذلك ما رواه من أن النبي حين جاءه جبريل عليه السلام أول مرة في غار حراء حيث كان يتعبد في ليلة القدر كي يبلغه برسالة الإسلام وقوله تعالى ﴿اقرأ﴾ عاد النبي إلى بيته يرتجف فؤاده خائفًا، وقال زملوني فطمأنته زوجته السيدة خديجة بقولها: الله يرعانا يا أبا القاسم أبشر يا بن العم وأثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إنني أرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ليس ذلك فقط، بل ويقول الشيخ عثمان أيضا أننا من ذلك نعلم بأن القاسم ولد بمكة قبل البعثة، ثم مات قبل أن يتم رضاعته، أما ثاني أولاد النبي فهو عبد الله والذي ولد بعد البعثة النبوية، ولهذا لقب بالطاهر والطيب، ومات أيضًا وهو صغير، وعندما رحل بعد أخيه القاسم أعلن أحد أشرار قريش من المشركين، وهو العاصي بن وائل السهمي أن محمداً قد أصبح أبترًا (أي لا ولد له)، فنصفه رب العالمين وأنزل فيه قرآنا كريماً يتلى.

ويبدو ذلك بوضوح في قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

(سورة الكوثر)

أي أن مبغضك كائنًا من كان هو الأبتر، أي المقطوع ذكره في الدنيا وفي الآخرة.

إذن ماساقة الشيخ عثمان منذ لحظات يوسع هوة الخلاف بين المؤرخين لأنه يختلف عما ذكره الدكتور محمد حسين هيكل وسقناه من قبل عندما أكد على أن طفلي رسولنا الكريم قد ماتا أيام الجاهلية.

ولكن حين نعيد قراءة ما سطره الشيخ عثمان نجده أقرب للحقيقة وللأحداث التاريخية التي ارتبطت بسيرة نبينا الكريم ﷺ كما أن السورة الكريمة التي أنزلها ربنا تعالى دفاعًا عن نبيه فيما يخص أولاده هى أيضًا خير دليل على صحة ماساقه الشيخ عثمان وبالتالي فإنني من الذين يعتقدون فيما كتبه وفي صحته أيضًا.

•• إبراهيم رضي الله عنه:

وعلى عكس سيرة أخويه السابقين عليه خاصة من الذكور، رأينا أن كل أو معظم كتب

التاريخ والسيرة قد امتلأت بأحاديث كثيرة وتفاصيل أكثر عن حياة ابن النبي الكريم إبراهيم رضى الله عنه، وربما يرجع ذلك إلى عدة أسباب، من بينها أن رسول الله ﷺ قد أنجب طفله إبراهيم بعدما كبر سنه، كما أنه عاش بين أحضانه ربما لمدة عامين، وهى فترة تعتبر أكبر من الفترات الأخرى والتي قضاها رسولنا الكريم وسط أولاده من الذكور من الذين رحلوا وهم أطفال صغار.

من هنا نجد أن محبة النبي لولده الذي رحل عنه وكذلك عاطفته كانت ملأ السمع والبصر، ويعلم بها كل من كانوا حوله من الصحابة ومن كافة المسلمين.

أما ثالث هذه الأسباب وأهمها أن إبراهيم عليه السلام قد جاء إلى الدنيا ليثبت به الله تعالى أن رسوله الكريم لم يكن أبترًا كما ادعى عليه بذلك بعض المشركين من قريش.

ولا ننسى أن نشير في هذا السياق أيضًا إلى أن هناك سببًا إنسانيًا عظيم وقد تمثل في أمنية هذا الرسول الكريم في أن يرى ابنه وآخر من أنجب يمشي أمامه ليس كطفل بل كشاب ثم كرجل، ولكنها مشيئة الله التي تجلت في حرمان رسوله من تحقيق هذه الأمنية الإنسانية الغالية.

ولا شك أن هناك حكمة ربانية من وراء كل ذلك ولا يعلمها إلا علام الغيوب، إذ أبدله الله تعالى بأحفاد من النبين خاصة أولاد ابنته فاطمة الحسن والحسين اللذين ظلا يعيشان في كنف جدهما وكأنما هم من أولاده معزة وتكريمًا حتى توفاه الله، وهو ما سوف نلقي عليه الأضواء المبهرة عندما ننتقل بكم إلى حديث الباب الثاني.

والحديث عن إبراهيم آخر من أنجب رسولنا الكريم لا ينقطع أبدًا.. كرامة لهذا النبي الذي حمل إلينا وإلى البشرية كلها آخر رسالات السماء إلى الأرض، ولسوف يكون حديثنا معه موصولاً من خلال ما ذكرته المصادر وكتب السيرة.

ولعلنا نبدأ هذا المشوار بنقل تفاصيل هذه الصورة الجميلة والتي رسمتها لنا الدكتورة عائشة عبد الرحمن، وهى صورة معبرة أعظم تعبير، عن ذلك الجو الأسري الذي عاشه نبينا الكريم مع زوجته وأم ولده السيدة ماريا القبطية.

ونراها تقول وصفًا لهذه الصورة: "استقبلت ماريا عامها الثاني في حياة النبي ﷺ ما تكف عن ذكر هاجر وإسماعيل وإبراهيم وفجأة أحست بوادر حمل مستكن، فكذبت إحساسها واتهمت

يقظتها، وخيل إليهـا أن الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا جسمه شوقهـا إلى الأمومة وتفكيرها الدائم في هاجر وإسماعيل".

وتواصل بنت الشاطئ سرد هذه الرواية التي من المؤكد أنها تخيلتها من واقع إحساسها كسيدة تقدر هذه الأحاسيس وتعرف ثمار نتائجها فتقول: "وكتمت ما بها شهرًا أو شهرين وهى في ريب من الأمر، لا تدري حقًا هو أم ذاك حلم يقظة ورؤية منام. حتى تجسـمت البوادر الأولى وصارت أوضح من ذي قبـل. هنالك أفاضت إلى أختها سيرين، فـأكدت لها أنه ليس في الأمر وهم ولا شبهة وهم، وإنما هو جنين حي وأخـذت ماريا من الانفعال والفرح ما قرب وما بعـد، فما حسبت أن السماء سـوف تستجيب لدعـائها وتحقق أملها الذي بدا عـظيمًا واهيًا كالسـراب، واستغرقـتها نشـوة الحلم حتى جـاء رسولنا الكريم، فـأفاضت إليـه بالسر مـا كان يلحظه من توعكـها وقلقـها وزهدها في الطعـام، وهى أعراض عرفـها من قبل فـي خديجة في مـستهل كـل حمل، ورفع إلى السماء وجهاً مـشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجمـيل الذي مّن به على عبده ورسوله إثر فقده ابنته زينب بعد أن ماتت قبلها رقية وأم كلثوم، ومات عبد الله والقاسم.

ولا شك أن خبراً مثل هـذا بالتأكيد كان سيهـز مدينة رسول الله وينشر البهجـة بين جدرانها إذ سرعان ما سرت البشري في أنحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودًا من ماريا القبطية.

وفي السياق نفـسه روى ابن سعد في طبـقاته منقولاً عن الواقدى وما ذكـرته بنت الشاطئ أن رسول الله ﷺ حجب ماريا وكانت قد ثقلت على نسائه وغرن منها مثل عائشة، وبالتالي فقد نقلها رسول الله إلى ضـاحية بالمدينة تسمى العـالية توفيـرًا لراحتها وسـلامتها حـتى تضع مولودها الذي حانت ساعته ذات ليلة من شهر ذي الحجة عام ثمانية للهجرة.

ويذكر ابن سـعد فيما رواه أن رسـولنا الكريم قد هنأ زوجته مـاريا بطفلها الذي كان سـبباً في عتـقها من الرق. وقـد حمل وليده بين يديـه وأسماه إبراهيم تيـمناً باسم أبو الأنبيـاء إبراهيم عليه السلام.

وتواصل الروايات حديثـها عن هذا الوليد الجـديد في حياة محـمد عليه الصلاة والسـلام وما سببـه من سـعادة لوالده الذي فـرح، به إذ رزقه الله به بعـد حالة حـزن شديدة على إثر فـراق بناته ورحيلهن عن الدنيا، حـيث مرت الأيام ومن ثم أخذ إبراهيم ينمو ويكبـر ويتحرك بين يدى والده

رسولنا الكريم وزوجته ماريا، ولكن القدر لم يمهله طويلا إذ مرض وهو لم يبلغ من عمره إلا عامه الثـاني فقط، ومن ثم وافته المنية وهو بين يدي رسـول الله يسمع حشرجة احـتضاره ولا يملك إلا أن يقول في أسى وتسليم وحزن: إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيء.

وانتهى به المطاف تحت ثرى البـقيع بعد أن غـسلة ابن عم الرسول الفضل بن العـباس، وهناك من الروايات التي ذكـرت أنه عندما رجع المشـيعون بعـد دفن ابن رسول الله. لاحظوا غـيام الأفق وانكساف الشمس عندئذ قـال أحدهم "إنما انكسفت لموت إبراهيم" وكأن الأيام قـد سارعت بعد رحيـل ابنه من أجل الاقتـراب من رسولنا نفـسه، إذ لم تـطل به الحيـاة طويلاً حيث لحق بالرفـيق الأعلى ربما بعد ذلك بشهرين أو أكثر.

وهناك روايات كثيـرة تناولت تفصيلاً مرض إبراهيم عليه السـلام.. ومما قيل في هذا الشأن أن إبراهيم وهو لـم يبلغ سن ستـة عشر شهـراً من عمره أو ربما ثمانيـة عشرة قد أصـيب بمرض خيف منه على حياته، فنقل إلى نخل بجـوار مشربة أم إبراهيم وقامت أمه وخالتـه بتمريضه ولكن الموت كان أسرع من سيادة المرض نفسه ولذلك نفذت مشيئة الله.

ولما تم إبلاغ رسولنا الكريـم بساعة الاحتضار أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه لشدة آلمه عليه الصلاة والسـلام حتى آتى إلى النحل بجوار العاليـة التي كانت تقوم عليها مـشربة ماريا، فوجد إبراهيم في حـجر أمه يجود بنفسـه ، فأخذه فوضعـه وقلبه يرجف ويده تضطرب، ثم وجم وذرفت عيناه. ولما استوى إبراهيم جـثماناً على حد قول الدكتور محـمد حسين هيكل زادت عينا محـمد عليـه الصلاة والسلام دمـوعًا وهو يقـول: "يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعـد صدق، وأن أخرنا سيلحق بأولنا لحزنت عليك أشد من ذلك".

وبعد أن وجم جنيهة عاد وقال عليه الصلاة والسلام، "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب.. وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون".

•• أولاد النبي من البنات وأزواجهن:

واستكمالاً لحديث هذا الفصل والذي خصصناه لبيان الفرع الثاني من فروع عترة النبي الكريم وآل بيته وهم أولاده من البنات فـإننا وفيما هو آت سوف نتناول وبشكل مفصـل معظم ما تناولته

كتب التاريخ وكتب السيرة، عن بنات النبي عليه الصلاة والسلام وما ارتبط بزواجهن من حكايات كان بعضها مشهوراً للغاية نظراً لارتباط بعض هؤلاء الأزواج بالدعوة الإسلامية.

ومن قبل تحقيق خطوة التفاصيل نذكر على سبيل الإجمال أن نبي الله محمداً عليه الصلاة والسلام قد أنجب أربع بنات من أم واحدة وهي خديجة رضى الله عنها. وهن بالترتيب وكما سبق وذكرنا: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء.

•• زينب كبرى بنات النبي:

صدق من قال سواء كان من المؤرخين أو من أصحاب كتب السيرة في الماضي أو في الحاضر، أن قصة ميلاد وزواج زينب كبرى بنات النبي الكريم كانت تجسيداً حقيقيًّا لصراع الحق والباطل، فيما يتعلق بنشر الدين الجديد آنذاك وهو الدين الإسلامي.

فقد رسم لها قدرها أن تولد قبل بعثته الشريفة، ثم تعيش لحظات إشراقة وانتشار نوره المبين.

ثم كان لها نصيب كذلك في المشاركة في جزء من ذلك الصراع الذي بدى جليًّا بين أبيها رسولنا الكريم وبين صناديد الكفر من قريش.

إذ شاء الله تعالى ومن خلال ما يقدره على عباده، أن تتزوج السيدة زينب كبرى بنات النبي من رجل اختار السير مع قومه في طريق الشرك وعدم الإيمان برسالة الإسلام التي جاء بها رسولنا ﷺ، على الاستمرار معها في حياة زوجية طيبة.

ولقد أصبحت بعد هذا الموقف الصعب سيدة فاضلة اختارت دين الله وما جاء به رسولنا الكريم على أن تعيش مع زوج لا يؤمن بكل ذلك، رغم أنها كانت رضى الله عنها قد أنجبت منه ولدين الأول اسمه علي وطفلة اسمها إمامة.

وبالطبع.. فهي حكاية لا بد لنا وأن نرويها بكل تفاصيلها وبشكل دائم ومستمر كي تخرج منها بالعبر والعظات القيمة، ليس ذلك فقط بل إن الحكاية ذاتها تفصح عن دور زينب رضى الله عنها في إسلام زوجها وعودته إلى أسرته عندما بعثت بقلادة أهدتها لها أمها السيدة خديجة كي تفتديه بها عندما تم أسره في غزة بدر.

ونبدأ رحلتنا المعلوماتية مع زينب أولى بنات النبي ﷺ بما ذكرته عنها كتب التاريخ والتي

أكدت على أن اسمها هو زينب وكانت كبرى بنات النبي الكريم من زوجته الأولى السيدة خديجة. كما أنها ولدت بمكة قبل بعثته الشريفة بعشر سنوات.، وقبل الهجرة بثلاثة وعشرين سنة.

أما فيما يخص حكاية زوجها.. فقد أشارت المصادر إلى أنه عندما بلغت مبلغ النساء زوجها أبوها للعاصي بن ربيع ابن خالتها هالة، ولما بُعث النبي الكريم برسالة الإسلام وأسلمت زينب ابنة رسول الله، طلبت كذلك من زوجها أن يسلم هو أيضًا ويؤمن بما جاء به أبوها من رسالة التوحيد، ولكنه للأسف رفض ذلك وتمسك بدين آبائه من قريش، عندئذ طلب منه رسول الله أن يطلق ابنته، رغم أنها كانت قد أنجبت منه طفلين كريمين، وكانا بذلك أول صغيرين لرسول الله من ابنته الكبرى زينب، ليس ذلك فقط، بل وظلت زينب رضي الله عنها على وفائها لزوجها رغم ذلك.

ومن العجيب بل ومن المصادفات الطيبة أيضًا في حياة زينب وزوجها العاصى بن ربيع أنها لم تترك مكة ولم تهاجر إلى المدينة مثل غيرها من نساء النبي وآل بيته أو من المسلمين والمسلمات، وبالتالي فقد ظلت تعيش في مكة مع ولديها، وقد نمى إلي سمعها أخبار هزيمة قريش في غزوة بدر والتي شارك فيها زوجها العاصى بن ربيع مقاتلاً في صفوف المشركين، وقد تم أسره ضمن ما تم أسرهم من مقاتلي قريش في هذا الغزو وأصبح في حاجة إلى أموال يفدي بها نفسه لإطلاق سراحه.

إذ كان رسولنا الكريم قد اشترط أن يدفع كل مشرك يريد حريته أن يدفع ٤ آلاف دينار.

ولما كان العاصى لا يملك هذا المبلغ وقد عرفت زوجته زينب بهذا الأمر.. عندئذ أخرجت من صندوقها الخاص قلادة كانت قد أهدتها إليها أمها خديجة يوم عرسها ، بعثت بها إلى أبيها رسول الله ﷺ مع شقيق زوجها عمرو بن ربيع.

ولم يكد رسولنا الكريم يرى هذه القلادة حتى رق لها وبالتالي لم يشأ أن يتخذ هو نفسه قرارًا منفردًا بالإفراج عن زوج ابنته الموجود بالأسر، وقد عرض الأمر على بقية أصحابه من المسلمين الذين هزموا مشركي قريش في غزوة بدر فوافقوا جميعًا، وتم إطلاق سراح العاصى بن ربيع، وعاد إلى مكة بعدما تعهد لرسولنا الكريم بأنه سوف يعيد إليه ابنته وأولادها لكي يلحقوا به وببقية ركب المسلمين من الذين جاءوا إلى المدينة.

وتؤكد العديد من المصادر ووفق ما أشارت إليه الدكتورة عائشة عبدالرحمن أن العاصي بن الربيع وقد استجاب لما طالبه به رسول الله ﷺ بدليل أنه أخبرها عندما التقى بها في مكة بعد إطلاق سراحه، أن رسول الله طلب منه إطلاق سراحها من أجل أن تلحق بآل البيت في المدينة.

ومن أجل ذلك ووفق ما ذكرته هذه المصادر فإن العاصي قد كلف أخاه كنانة بن ربيع بمرافقة زوجته زينب وأولادها حتى تلتقي بسفراء أبيها خارج مكة لتوصيلها إلى المدينة.

وقبل أن يصل كنانة بن الربيع إلى مبتغاه خارج مكة إذ تعرض له اثنان من المشركين تسبب أحدهما في ترويع زينب رضى الله عنها عندما اعترضها برمحه، وكانت في هذه الفترة حاملاً بطفل جديد من العاصي بن ربيع، فنزفت وسقط وليدها، فعادت من جديد إلي مكة فأقامت بها إلى أن شفاها الله ومن ثم واصلت رحلتها إلى المدينة من جديد بعد أن أقامت في كنف زوجها وتحت رعايته، حتى اطمأن على صحتها.

ويبدو أن القدر كان متربصًا بالخير لزوج زينب رضى الله عنها ، وأن الله تعالى قد كافأه على حسن أخلاقه وكرمه ووفاءه بالعهد مع رسول الله. إذ أنهُ بعد مرور ست سنوات عاشتها زينب في كنف أبيها وكل آل بيته في المدينة بعيدة عن زوجها. قد لعب القدر لعبته المحمودة من جديد، عندما سبب الله له الأسباب حتى يدخل الإسلام إلى قلب زوجها.

وتقول المصادر عن التفاصيل بأن العاص كان في تجارة لقومه قادمة من الشام، ولما بلغ أمرها رسول الله ﷺ، كلف بعض أصحابه بمهاجمة هذه القافلة والاستيلاء عليها وعلى أفرادها.

وبالفعل نجح هؤلاء الصحابة بقيادة زيد بن حارثة من تحقيق ذلك، إلا أن العاص بن الربيع زوج زينب قد استطاع الإفلات من الأسر هذه المرة، وفر هاربًا ناحية المدينة، ولم يجد أمامه من مكان أمن سوى بيت زوجته زينب، وكان الوقت ليلاً، وقبلت زينب أن تأويه، وعند صلاة الفجر، نادت في المسجد: إني قد أجرت أبا العاصي بن الربيع.

ليس ذلك فقط، بل وكما أكدت كل المصادر فإن زينب قد طلبت من أبيها أن يرد له أمواله التي سلبت منه في هذه القافلة، فوافق النبي ﷺ إكراماً لابنته الكبرى زينب، كما وافق على إقامته في بيتها على ألا يقربها فهى ما زالت لا تحل له مادام كان مشركًا.

ومن العجيب أن كل هذه الأحداث الساخنة تقع أمام أعين العاصى ابن ربيع. فتأثر كثيراً من حنان زوجته وحسن معاملة أبيها له رغم تمسكه بشركه وكفره، ووقوفه كثيراً مع أعداء الإسلام والمسلمين وتأثرًا بكل ذلك فقرر أن يعلن إسلامه، وأثر أن يتم ذلك وسط أهله وعشيرته في مكة والتي رجع إليها سالماً بكل ما كانت تحمله قافلته من بضائع وأموال استردها مرة أخرى.

وتحكى لنا الدكتور بنت الشاطئ لمحات من هذا الموقف النبيل فتقول فيما كتبته: " مضى العاصى بن ربيع إلى مكة. وفرحت قريش إذ رأته يعود بتجارتها رابحة وبأموالها لم تمس عندئذ أقبلت عليه تتعجله الحديث عما كان من أمره مع أعدائها هناك في يثرب، ولكنه استمهل القوم حتى أدى كل ذي مال منهم ماله، ثم وقف بحيث يُسمع وصاح بأعلى صوته:

ـ يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندي مال لم يأخذه فأجابوا: لا.. جزاك الله خيراً.

ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما كان يقولها:

ـ فأنا أشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وخلفه قومه واجمين.. ثم انطلق مستقبلاً يثرب [(١)].

ومن بعد ذلك اجتمع شمل هذه الأسرة وعاش العاص بن الربيع مع زوجته زينب كبرى بنات رسولنا الكريم في يثرب مع ولديهما علي وإمامة ، وبعد مضي عام فقط وفق إجماع المصادر على لم شمل هذه الأسرة غادرت زينب هذه الدنيا. وكان ذلك في مستهل السنة الثامنة للهجرة.

وقالت هذه المصادر بأن زينب رضى الله عنها قد توفيت متأثرة بعلتها التي لازمتها منذ سقوط جنينها قبيل رحلتها إلى يثرب وكما سبق وأوضحنا، وقد ظل العاص بن الربيع يرعى طفليه حتى توفى ابنه علي وبقيت إمامة تكبر أمام عينيه وقد ملأت الدنيا عليه إذ انتقلت كفالتها لخالتها فاطمة الزهراء، كما ملأت الدنيا على جدها النبي ﷺ باعتبارها أولى أحفاده الكرام، ثم لحق والدها أبو العاص بربه، وقد أصبحت إمامة طفلة صغيرة تعيش في كنف خالتها فاطمة وابن خال أبيها الزبير بن العوام.

وهناك العديد من المصادر التاريخية التي حدثتنا عن هذه المكانة المتميزة التي كانت للطفلة إمامة لدى رسول الله ﷺ وقد استندت في ذلك إلى بعض الأحاديث النبوية المروية في حقها وحق رعايتها من جانب جدها رسولنا الكريم.

(١) بنات النبي ـ عائشة عبد الرحمن.

وقالت هذه المصادر فيما ذكرته أن أول حفيدة لرسولنا الكريم قد ظلت تعيش في كنف ابن خال أبيها الزبير بن العوام وزوجته أسماء بنت أبي بكر حتى بعد أن توفيت خالتها فاطمة الزهراء.

وتؤكد هذه المصادر أيضًا.. بأن عليًا ابن أبي طالب قد تزوج من إمامة ابنة العاص بن ربيع وزوجته زينب كبرى بنات النبي ﷺ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطاب، وأن هذه المصادر قالت أيضًا: أن هذا الزواج قد تم بوصية من خالتها فاطمة قبل رحيلها، وقد ظلت إمامة رضى الله عنها زوجة لعلي بن أبي طالب أيام.خلافته ولأكثر من ربع قرن حتى قتل سنة أربعين من الهجرة[(١)].

ليس ذلك فقط، بل أن إمامة رضى الله عنها قد تزوجت من بعد وفاة علي ابن أبي طالب من المغيرة بن نوفل بعدما رفضت الزواج من معاوية بن أبي سفيان، وقد ظلت تعيش بالمدينة في كنف المغيرة بن نوفل إلى أن توفاها الله في عهد معاوية.

•• رقية وأم كلثوم:

رأينا أن هناك العديد من الدوافع التي جعلتنا نتحدث عن هاتين الابنتين في موضع ومكان واحد، وبدون تفرقة، وبعد أن اكتشفت أنها لم تكن دوافع فقط، بل كانت أيضًا أسبابًا. على الرغم من وجود عشرات المصادر التاريخية التي تحدثت عن هاتين الابنتين لرسولنا الكريم في مواضع وأماكن منفصلة سواء تاريخيًا أو اجتماعيًا.

أما عن الدوافع فمصدرها الرئيسي هو إحساسى الشخصى الذي نبع من إيمان كامل وغير منقوص بأن الله تعالى قد أكرم هذا النبي الكريم في بناته وعوضه بهن عن رحيل زوجته وأم أولاده السيدة خديجة رضى الله عنها.

وأما عن الأسباب فهى كثيرة ومتنوعة ونذكر منها على سبيل المثال أن هاتين الفتاتين قد جاءتا إلى الدنيا ربما في عام واحد على أغلب أقوال المصادر. إذ ولدت السيدة رقية في العام الثالث والثلاثين من عمر أبيها نبينا الكريم ﷺ، ومن قبل بعثته الشريفة. ثم لحقت بها أختها أم كلثوم وربما بعد ذلك بعدة أشهر.

وهذا ما أكده أيضًا محمد علي قطب في موسوعته. إذ قال: "ولدت رقية وأم كلثوم في

(١) موسوعة أهل البيت ـ إبراهيم صبحي.

حملين متتابعين فكانتا كأنهما توأمين في الطباع وفي السلوك والمشاعر حتى السمات الخلقية، بهاء وجمالاً وحسناً"[1].

أما ثاني هذه الأسباب إنما يتجلى فيما هيأه رب العالمين عندما اختار لهما زوجين إخوة هما عتبة وعتيبة بن عبد العزي عم رسول الله. كما دبر لهما أيضًا أن يطلقا من هذين الرجلين بسبب إصرارهما على الشرك بالله مثل والديهما.

ثم يأتي ثالث هذه الأسباب وأهمها، وهو المتمثل في زواج كل منهما بالخليفة الثالث عثمان بن عفان. ونراه قد سُمي لذلك باسم "ذو النورين"، وتقول المصادر التاريخية أن هذا الخليفة قد تزوج أولاً من رقية بنت رسول الله بعدما تركت زوجها المشرك.. وقد هاجرا معاً إلى الحبشة ثم إلى المدينة. وعندما توفيت السيدة رقية رضى الله عنها، تزوج من أختها أم كلثوم، وهكذا لعب القدر لعبته الحميدة في حياة هاتين الأختين عندما رزقهما بهذا الخليفة المسلم بعد أن طُلقا من زوجيهما المشركين.

ولا شك أن الاقتراب من قصة حياة كل من رقية وأم كلثوم وبالتفصيل المطلوب سوف يبين لنا المزيد من ملامح حياتهما وحياة أزواجهما ثم أولادهما، أحفاد رسول الله ﷺ.

ونبدأ هذا الحديث وفق الترتيب الزمني والذي كان عليه الإجماع خاصة ما يرتبط بولادة كل منهما. إذ أكدت كل هذه المصادر أن رقية ولدت قبل أختها أم كلثوم وجاء مولدها بعدما بلغ رسولنا الكريم عامه الثالث والثلاثين أي قبل بعثته الشريفة بسبع سنوات.

ومما لاحظناه أن المصادر التاريخية لم تتحدث بالتفصيل المطلوب عن طفولة رقية، وربما مرجع ذلك أن أحداث طفولتها لم تختلف كثيراً عن أحداث أقرانها من أطفال آل محمد، وربما أيضًا لانشغال المؤرخين بذلك الحدث الجلل الذي هز ربوع مكة، بل وربوع العالم كله عندما بُعث النبي رسولاً للبشرية، والدليل على ذلك أن الحديث عن رقية وأختها أم كلثوم سرعان ما تجدد وبقوة خاصة عندما تم تطليقهما من زوجيهما بسبب إشراكهما بالله.

بل وأكثر من ذلك لاحظنا أن هاتين الأختين قد احتلتا مساحة كبيرة داخل أوراق التاريخ وكتب السيرة لارتباطهما بزوج جليل وصحابي من أصحاب رسول الله المقربين وهو عثمان بن عفان.

(١) رجال ونساء حول الرسول ـ مصدر سابق.

وكما وعدناكم من قبل سوف يكون الحـديث أولاً عن رقية وعن زواجها وظروف هذا الزواج وكذلك ارتباطه بظهور الإسلام.

وفي هذا السيـاق فقد أكـدت المصادر أن عم النبي أبو طالب قـد عرض عليه أن يـخطب ابنته لأولاد أخيه عبد العزي والمعروف تاريخيًا باسم أبو لهب. وهما عتبة وعتيبة.

ويقول مـحمد قطب فيـما رواه نقلاً عن هذه المصادر: "عـرض رسول الله ﷺ الأمر على أهل بيته وهمـا زوجته خديجة وابنتيـه صاحبتا الشأن، فـسكتت خديجة قليلاً لأنها تعـرف حق المعرفة أم جميل زوجة أبي لهب.. تعرف قسـوتها وقسوة قلبها وشراسة طباعها وحـدة لسانها، فأشفقت على ابنتيها أن تسلمها إلى هذا الجو المشحون بالحقد والكراهية.

وقد صـدقت خديجـة فيمـا شعـرت به آنذاك، إذ عندما أذن الله تعـالى للبشريـة أن تخرج من الظلمات إلى النور ببزوغ الإسلام، زلزلت الأرض تحت أقدام صناديد قـريش ومشركيها، وبدأت الحرب الشـرسة بقيادة رءوس الشـرك وزعيمهم أبا لهب والـد هذين الشابين وأزواج بنات النبي، وأمهما أم جمـيل حمالة الحطب، وبالتالي كان على النبي أن يعيد بناته إلى بيتـه مرة أخرى فهو لم يقبل لهما أن يعيشا في بيت من بيوت المشركين.

والغريب وفق ما روته الدكتورة بنت الشاطئ أن قرار تطليق رقية وأختها أم كلثوم قد جاء بناء على طلب من مشركي قريش، كبداية لحرب شعـواء سوف يخوضونها ضد هذا النبي الكريم وقد بدأوها بأهل بيته ثم أصحابه.

وتؤكـد المصادر أن هذين الشـابين لم يكونا في حـاجة إلى تدخل مـشركى قـريش لإتمام هذه الخطوة؛ إذ كانت أمهما أم جمـيل سباقة لتحقيق هذه الرغبة وقد أقسـمت ألا يظلها وابنتي محمد سقف واحد[(١)].

وقد خـاب ظن هؤلاء المشركين وزعـمائهم من قـريش إذ لم ينشغل رسـولنا الكريم بمثل هذه القضـية، ولـم يشق عليه رجـوع بناته إلى بيته الشـريف مرة أخرى، فـقد نجاهمـا الله من العيش مع أبناء أبي لهب وزوجته حـمالة الحطب. كما أبدلهمـا الله تعالى بخير منهمـا، وكان رسولنا الكريم واثق من ذلك كل الشـقة. لأنه كان يرى في رحـمة الله وسـعة مغـفرته أملاً كـبيراً وبـابا آمنا سوف تدخله بناته بسلام.

(١) بنات النبي ـ مصدر سابق.

ولقد تجلى ذلك فوراً عندما عرض عثمان بن عفان أحد وجهاء العرب وأثريائهم على الرسول الكريم أن يتزوج من ابنته رقية، ووافق النبي العظيم، وكان لهذه السيدة شرف مصاحبة زوجها الجديد عثمان بن عفان في هجرته إلى الحبشة، وبذلك باتت من أوائل نساء المسلمين اللائي هجرن إلى هناك على قرب عهدها من الزواج، وقد مكثت مع زوجها عدة أشهر، ثم عادت معه أيضًا وبرفقة بقية من هاجروا إلى الحبشة وكان عددهم ثلاثة وثلاثين رجلاً يتقدمهم عثمان بن عفان وآخرون.

وهناك بعض المصادر التي أشارت إلى أن السيدة رقية قد علمت وهى في هجرتها الأولى مع زوجها عثمان بنبأ وفاة أمها السيدة خديجة فأخذت تبكيها طويلاً هناك، وقد استراح قلبها قليلاً عندما عادت إلى أحضان أبيها النبي الحبيب ﷺ والذي كان هو نفسه كان قد تأثر بشدة برحيل هذه الزوجة العظيمة.

وبعد أيام عادت السيدة رقية من جديد لمصاحبة زوجها عثمان بن عفان في هجرته إلى يثرب مع من هاجروا إلى هناك بعدما أذن لهم رسول الله، وفي يثرب كما تقول هذه المصادر نفسها وضعت رقية طفلها الأول عبد الله. وكان عثمان بن عفان يكني باسم ابنه آنذاك، وللأسف فإن القدر لم يمهل هذا الطفل وهو أحد أحفاد النبي الكريم فمات وهو صغير بعدما نقره ديك ضخم في إحدى عينيه[١].

وعلى إثر وفاة ابنها أصابت الحمى السيدة رقية فظل زوجها عثمان بجانبها.. يمرضها ويرعاها، حتى تنامى إلى سمعه نداء الرسول الكريم بالجهاد ضد المشركين والأعداء فى معركة بدر، وقد تمنى عثمان المشاركة في هذه الاستعدادات بل والمشاركة في هذه الغزوة ولكن قلبه لم يطاوعه في أن يترك زوجته رقية فيما كانت عليه من مرض وحزن، وكانت هى ذاتها تعيش لحظات عمرها الآخيرة، وبالتالي تخلف عثمان عن غزوة بدر وراح يشهد معركة الموت في أعز من له[٢].

وشيعت يثرب جثمان بنت رسول الله ذات الهجرتين حتى وارها التراب في أرض البقيع في غياب أبيها ومن كان معه من المسلمين الذين عندما عادوا من المعركة أعادوا مراسم تشييع جنازة

(١) الأحباب ـ لابن حجر العسقلاني.
(٢) تاريخ الطبري والطبقات الكبرى لابن سعد.

رقية. وكما تقول المصادر ذاتها فإن جموع المسلمين الذين شاركوا في جنازة السيدة رقية قد نما إلى سمعهم أنباء انتصار المسلمين في غزوة بدر فاختلطت أحاسيسهم بالفرحة والحزن في أن واحد، خاصة عندما علموا بأن عدد كبيراً من المشركين قد قتلوا في بدر وكان على رأسهم رأس الشرك أبو جهل.

وها نحن قد أصبحنا على مقربة ربما حرفًا واحد من الحديث تفصيلاً عن حياة أم كلثوم الابنة الثالثة للنبي الكريم والزوجة الثانية لعثمان بن عفان، ولسوف نبدأ حديثنا القادم عنها بما كانت فيه خاصة عندما بلغت مبلغ النساء.

ولقد أشرنا من قبل أن السيدة أم كلثوم كانت قد تزوجت من أحد أبناء عم أبيها المعروف باسم أبي لهب. كما أشرنا في السياق نفسه إلى أنها قد طلقت من هذا الزوج وعادت إلى منزل والدها رسول الله ﷺ، شأنها في ذلك شأن أختها السيدة رقية.

وقد أكدت لنا ذلك أيضًا الدكتورة عائشة عبد الرحمن فيما كتبته عن أم كلثوم عندما قالت: وبقيت أم كلثوم مع أختها الصغرى فاطمة في بيت أبيها الرسول بمكة تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل، وتستقبلان البطل النبي إذ يعود كل يوم إلى بنيه وعلى جسمه الشريف ندوب المعركة، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها، فيحطن به في بر وحنان، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار ويروضن عنه في الفترات القليلة التي لم يسكن فيها إلى بيته وأهله.

من هنا يتضح لنا أن أم كلثوم قد شاركت أسرتها معركة الأضطهاد الأولى والتي شنتها عليها قبيلة قريش، وكانت ما تراه يزيدها إصراراً وقوة وتعاطفاً مع أبيها وبقية أسرتها.

ليس ذلك فقط، بل وعاصرت أم كلثوم في السياق نفسه آلام ذلك الحصار الملعون الذي ضُرب على أسرتها وعلى أسر المسلمين الذين بادروا بالإيمان بالله، في شعب أبي طالب أحد شعاب مكة، وقد عانت أم كلثوم من أثار هذا الحصار وما نتج عنه من جوع وتشريد ولكن من فضل الله عليها وعلى أبيها نبي الرحمة لم يدم ذلك طويلاً.

وهناك أحداثاً جسام غير التي حكينا عنها عاصرتها أم كلثوم وهي إلى جوار أبيها وأمها وأخواتها، فقد رافقت أختها رقية إلى يثرب، كما شهدت عودة أبيها النبي منتصراً في معركة بدر

ورحيل أختها رقية في هذا اليوم نفسه، كما وقفت إلى جوار زوج أختها عثمان بن عفان في محنته أثناء مرض زوجته السيدة رقية.

وهناك من المصادر التي ذكرت أن رسولنا الكريم كان قد تنبأ بزواج ابنته أم كلثوم من زوج أختها عثمان بن عفان. ولكن كيف حدث ذلك؟ إن هذه المصادر ذاتها قد حكت لنا عن هذه النبؤة وعن ظروف زواج عثمان بن عفان من السيدة أم كلثوم.

ومما قيل في هذا السياق أن الصحابى عمر بن الخطاب جاء إلى النبي الكريم يشكو إليه صاحبيه أبو بكر وعثمان، وقد عرض على أحد هما أن يتزوج ابنته حفصة بعد موت زوجها وهى ما زالت صبية، فقال له رسول الله ﷺ ملاحقاً إياه: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان وتتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

ويكمل لنا صاحب موسوعة آل البيت بقية هذه الحكاية والتي نقلها بدوره من كتب السيرة إذ يقول: أحست أم كلثوم رضى الله عنها ما يقصده رسول الله، وراحت تسأل نفسها: وهل معنى ذلك أنها سوف تشغل مكان أختها الراحلة في بيت عثمان؟!. وإلا فمن هى التي خير من حفصة ابنة عمر بن الخطاب.

إذن وقد فهمت أن رسول الله يقصدها بذاتها، وبالفعل حدث ما توقعته أم كلثوم عندما طلبها عثمان بن عفان زوجة له بعد رحيل أختها رقية، وقد تم ذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

ويضيف صاحب هذه الموسوعة نقلاً عن كتاب أسُد الغابة فيما يخص هذا الزواج المبارك أن عثمان عندما توفيت زوجته رقية ابنة رسول الله ﷺ بكى بشدة. فقال له رسول الله: ما يبكيك؟! قال: أبكي على انقطاع صهري منك يا رسول الله. قال: فهذا جبريل عليه السلام يأمرني بأمر الله عز وجل أن أزوجك أختها.

وفي مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر جاء فيه عن أم عباس، وكانت أمَة لرقية بنت رسول الله. قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: مازوجت عثمان لأم كلثوم إلا بوحي من السماء(١).

ولقد تمت بالفعل هذه الزيجة المباركة، و عقد الزواج على صداق مثل صداق أختها رقية.

(١) مختصر تاريخ دمشق ـ تراجم النساء لابن عساكر.

عندئذ خرجت أم كلثوم من بيت أبيها إلى بيت زوجها وعليها ثوب عرس يشبه الذي دخلت به رقية.

وحتى من بعد إتمام هذا الزواج المبارك وانتقال أم كلثوم إلى منزل زوجها الجديد عثمان بن عفان .. فقد شهدت العديد من الأحداث التاريخية المهمة في مسيرة الإسلام، ومن أشهر تلك الأحداث ما وقع في العام السادس للهجرة عندما أراد رسولنا الكريم الذهاب إلى مكة لقضاء العمرة، وفي صحبته ألف وخمسمائة من أصحابه، ولما خشى رسول الله أن تصده قريشاً وتمنعه من دخول مكة اختارعثمان بن عفان لكي يخبر قريشاً بهذا الأمر، وهو ما عُرف وقتها باسم بيعة الرضوان، كما شهدت السيدة أم كلثوم كذلك أحداث صلح الحديبية والذي شارك فيه أيضًا زوجها عثمان بن عفان.

ليس ذلك فقط، بل إن هناك من المصادر التي أكدت أن أم كلثوم قد عاصرت وشهدت جزءاً كبيرًا ومهماً في تاريخ الدعوة الإسلامية ألا وهو فتح مكة.

وعلى أية حال فقد عاشت السيدة أم كلثوم في كنف هذا الصحابي الجليل قرابة ست سنوات، بدأت في شهر ربيع في أول السنة الثالثة من الهجرة حتى شهر شعبان من السنة التاسعة، ولما توفيت رضى الله عنها تم دفنها في أرض البقيع.

•• السيدة فاطمة الزهراء:

ونحن على مشارف نهاية هذا الفصل والذي نختتم به رحلتنا مع آل البيت في الباب الأول، كان لا بد لنا وأن نفسح المجال أكثر لحديث شيق وهام وعظيم عن أخر بنات النبي ﷺ، باعتبارها المصدر الرئيسي والذي كان لها الفضل بعد رب العالمين في انتشار أحفاد النبي الكريم وأحفاد أحفاده ثم أولياء الله الصالحين من صلب هؤلاء الأحفاد، سواء في مصر أو في غيرها من بلاد الدنيا الواسعة.

إنها السيدة فاطمة الزهراء أخر بنات النبي الكريم وزوجة رجل من أشراف قريش وشبابها الذين بادروا بالإيمان بما جاء به رسول الكريم، وهو علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله والذي ارتبط وشاهد وعاصر العشرات من الأحداث الجسام التي ذكرتها كتب التاريخ وكتب السيرة بدءاً من كونه أول من أمن برسالة الإسلام من الشباب والصبيان وانتهاء باختياره خليفة رابع

للمسلمين، وما وقع بشأن هذا المنصب أيضًا من أحداث عظيمة انتهت بمقتلة، بل وكانت مقدمة ساخنة لمقتل ابنيه الحسن والحسين.

ولقد رأينا في هذا السياق ضرورة أن نبدأ رحلتنا مع سيرة فاطمة الزهراء من طفولتها، وسيراً مع الأيام وتفاصيلها في حياة هذه الابنة الفاضلة، خاصة وأنها كانت مثل زوجها وقد شاء قدرها أن تشهد هي الأخرى أحداثاً جسام سواء في حياة أبيها النبي الكريم أو حياة كل من كانوا حولها آنذاك.. وقد سجل لنا التاريخ فوق صفحاته المتعددة تفاصيل كل ذلك.

وعلى سبيل الإجمال نقول إن فاطمة الزهراء قد أمد الله في عمرها حتى عايشت الأيام الأخيرة في حياة الرسول الكريم كما عايشت ظروف رحيله عليه الصلاة والسلام، وآثار ذلك ونتائجه سواء داخل بيت النبوة أو داخل وخارج حدود الدولة الإسلامية التي أخذت في الاتساع يوماً بعد يوم.

يقول عباس محمود العقاد فيما يتعلق بنشأة فاطمة الزهراء أنه إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغني عن كل الكلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة.

وقال العقاد مفسراً ذلك: درجت في دار أبويها، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار وغار حراء أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها؛ بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصوراً وراء عصور لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تختلج في صدر واحد هو صدر أبي الزهراء عليه السلام[(١)].

إذن لقد وضع العقاد فيما كتب أيدينا على بعض مفاتيح شخصية آخر بنات النبي الكريم بدليل قوله: "ما هذه الصلوات والتسبيحات؟ ما هذه الهيمنة بين الأبوين؟!. ما هذا الرجل وما هذا القنوت" وأكبر الظن ـ ومايزال الكلام للعقاد ـ أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا، لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه وهي لم تفتح عينها على غير هذه البوادر والمقدمات[(٢)].

---

(١) فاطمة الزهراء والفاطميون ـ عباس محمود العقاد.
(٢) المصدر السابق.

ولقد تلقفت كتباً أخرى كثيرة هذه الكلمات التي سطرها العقاد في كتابه المهم عن فاطمة الزهراء وأخذ مؤلفوها في تفسيرها أكثر خاصة فيما يتعلق بطفولتها وأسباب تسميتها بهذا الاسم المتميز ثم أسباب ما جعلها فتاة متميزة أيضًا وابنة من بنات النبي والتي حظيت بهذا الاهتمام الكبير سواء من أبويها أو من كتب التاريخ.

لقد ولدت فاطمة الزهراء بمكة قبل بعثة والدها الشريفة بخمس سنوات، في حجر والدها النبي وحضانة أمها السيدة خديجة، وفي كنف أختها الكبيرة السيدة زينب، كما كانت ترى بعينها ابن عمها علي بن أبي طالب والذي كان يكبرها بأربع سنوات[(١)].

ولما هاجر النبي من مكة إلى المدينة لحقت به ابنته فاطمة مع أختها أم كلثوم، ورافقهما في هذه الرحلة أخيهما بالتبني زيد بن حارثة.

وهناك بعض المصادر التي ربطت بين ميلاد فاطمة وبين ذلك الحدث التاريخي المهم والذي كان يتنبأ بمستقبل مشرق لأبيها. إذ صادف يوم ميلادها عام تجديد الكعبة، وهو ذلك العام الذي ارتضت فيه قريشاً حكم فتى من أبنائها قبل بعثته الشريفة على يكون حكماً بين بطونها حول من يكون له شرف وضع الحجر الأسود في مكانه.

كما تحدثت المصادر نفسها عن صفات فاطمة الزهراء وما كانت تتمتع به مما جعلها قريبة إلى قلب أبيها.. وما كانت تتصف به أيضًا من حنان وخوف على النبي مما كان يحاك ضده من صناديد كفار قريش.

لقد كانت تتمتع بذكاء فطري وقدرة على تحمل أعباء الحياة حتى وهى ما زالت في سن طفولتها، ولذلك أكدت الكثير من هذه المصادر أن فاطمة قد هجرت سنوات طفولتها الأولى لأنها أدركت أنذاك أنها ابنة نبي هذه الأمة، وبالتالي كان عليها أن تحترم ذلك وتفوز بحب أبيها الذي كان يحيطها فعلاً بحب عظيم ربما لم تناله غيرها من بناته عليه الصلاة والسلام.

ولقد اختار لها النبي اسم فاطمة تيمنًا باسم جدته عندما تلقف خبر ولادتها أثناء عودته من المشاركة في إعادة بناء الكعبة ونجاحه في نزع فتيل الفتنة التي كادت أن تقصف بقريش لخلافها على مكان وضع الحجر الأسود.

---

(١) في البيت النبوي الكريم ـ مصدر سابق.

ليس ذلك فقط، بل تقول المصادر أن رسولنا الكريم قد اختص ابنته فاطمة بلقب الزهراء.

ويحدثنا الكاتب محمد قطب عن بعض لمحات طفولة فاطمة في كتابه محمد رسول الله ﷺ فيقول: ما كادت رضى الله عنها تبلغ الخامسة من عمرها حتى شاهدت أباها العظيم محمداً ﷺ قد أحب الخلوة والتحنث في غار حراء، ثم نزول الوحي عليه، كما شاهدته بعد عودته من غار حراء يرجف بالآيات البينات فؤاده كي يخبر زوجته خديجة فتقول له: ابن العم والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقوى الضعيف وتعين على النوائب[1].

ولا شك أن كلمات كهذه كانت كفيلة بأن تجعل من الطفلة فاطمة التي كانت تتمتع بالذكاء والفطنة المبكرة تشعر بأنها سوف تعيش بين والديها أحداثاً عظيمة سوف تغير وجه الزمن ومسار البشرية.

ولم تنس المصادر التي تحدثت عن هذه الفتاة وفي هذا الموضع بالذات أن تربط بينها وبين ابن عمها علي بن أبي طالب والذي كان يعيش في كنف ابن عمه النبي الكريم في هذه الفترة ، عندما تولى رسول الله ﷺ الإنفاق عليه حتى يرفع عن كاهل عمه أبو طالب نفقات لكثرة عياله.

هذا الربط جاء من خلال ما كانت تشاهده وتسمعه عن هذا الفتى الجرئ والذي تقبل المهمة التي كلفه بها رسول الله عندما أمره بأن ينام في فراشه بدلاً منه كي يخدع المشركين من قريش من الذين كانوا يقفون أمام بابه لتنفيذ مؤامرتهم الدنيئة بقتل رسول الله لمنعه من أن يترك مكة مهاجراً كي يلحق بأصحابه من الذين سبقوه إلى هناك.

وتؤكد الدكتورة عائشة عبد الرحمن بأن هناك مواقف كثيرة أخرى قد عايشتها فاطمة مع ابن عم أبيها علي بن أبي طالب في الفترة ذاتها. عندما علمت بأن هذا الفتى كان أحد الذين سارعوا للإيمان بما جاء به رسول الله من الفتية أو الصبيان ، وقد سرها هذا الموقف لأنه لم يتردد في الإيمان بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ.

ولقد سبق لنا أن أشرنا بأن فاطمة الزهراء ونظراً لما حباها به الله من صفات فريدة وهى ما زالت طفلة قد هجرت سنوات الطفولة وتوليت مسئوليتها مبكراً داخل آل البيت، فتركت ملاعب الصبا.

هذه المسئولية المبكرة جعلتها تتبع أباها رسول الله حينما كان يخرج من بيته كل يوم ساعياً نحو

(١) محمد رسول الله ـ المصدر السابق.

أندية قريش لإبلاغهم برسالة الإسلام، وكانت تشاهد ما كان يلاقيه هذا النبي من أذى قريش في مقابل ذلك.

وتحكي لنا المصادر المروية أن من أعظم وأقسى ماشهدته فاطمة تجاه أبيها يوم أن كان بالكعبة يمشي في اتجاه الركن.. ولما شاهده المشركون، وثبوا عليه وثبة رجل واحد من أجل أن يوجهوا إليه الإهانات ظنًا منهم أنه جاء عليه الصلاة والسلام لتسفيه آلاهتهم وأحلامهم. ولم يكن هذا الموقف هو أول ما شاهدته فاطمة من زعماء مشركي قريش ضد أبيها النبي الكريم، بل وقد سالت دموعها عندما شاهدت ما كان يقوم به شباب كفار قريش عندما أخذوا برداء أبيها والذي كاد أن يطبق عليه وعلى عنقه، عندئذ سمعت صوت أبي بكر يصرخ فيهم: أتقتلون رجلاً يقول ربي الله.

وكذلك من المواقف المحزنة التي عاصرتها ابنة النبي الكريم عندما شاهدت ما يلقيه كفار قريش من قاذورات فوق كتفه الشريف وهو قائم يصلي، وتحكي لنا المصادر التاريخية تفاصيل هذا الموقف الملعون والمحزن من جانب كفار قريش آنذاك.. فتقول تفصيلاً أن رسول الله ﷺ كان ساجدًا في الحرم الشريف وحوله إناس من المشركين، وقيام عقبة ابن أبي معيط بعدما أحضر بقايا ما يخرجون من بطون وأحشاء الإبل، من أجل أن يلقيها على ظهر النبي وهو ساجد، ولم يرفع الرسول الكريم رأسه الشريفة ولا ظهره إلا عندما تقدمت طفلته الصغيرة فاطمة كي تزيل عنه كل ذلك، وقد انخرطت في البكاء على ما يلاقيه رسولنا الكريم من معاملة سيئة من أهله وعشيرته لأنه يرشدهم ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد.

من هنا رأينا أنه ليس غريبًا على النبي الكريم أن يحيط ابنته الصغيرة فاطمة بهذا الحب غير المسبوق.

ولقد روت لنا مصادر كثيرة العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي أكدت على هذه المكانة التي فازت بها فاطمة في حياة النبي الكريم، ومن بين ما جاء في هذه الأحاديث الشريفة قول رسولنا الكريم: "خير نساء العالمين أربع: مريم وآسية وخديجة وفاطمة.." وقوله الشريف أيضًا عندما أُمر بأن ينذر عشيرته الأقربين وأخذ ينادي قائلاً عليه الصلاة والسلام: يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً.. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً، ويا صفية بنت عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد: سليني ما شئت من مال، لا أغنى عنك من الله شيئاً.

وكما سبق وذكرنا فإن هناك العشرات من المواقف ومن الأحاديث الشريفة التي جاء بها ذكر فاطمة بنت محمد، مما كان يدل دلالة كبيرة على علو منزلة فاطمة داخل عقل وقلب أبيها ﷺ وبالتالى فقد تبوأت هذه المكانة نفسها داخل صدور وعقول وقلوب كل المسلمين.

ومما هو جدير بالذكر فإن هذه السيدة الطاهرة قد حفلت بها العديد من المصادر التاريخية ، ولم يكن ذلك وقفًا عليها بذاتها فقط، بل امتد ليشمل زوجها على بن أبى طالب وولديها الحسن والحسين، إذ تناولت كل هذه المصادر وبالتفاصيل التاريخية المطلوبة أعظم الأحداث السياسية أوالعائلية التى شاء الله أن تشهدها فاطمة الزهراء وزوجها وولديها أيضًا ، ومعظم هذه الأحداث قد وقعت بعد رحيلها ،ورحيل والدها النبى ﷺ .

وسوف نلقى بعض الأضواء المبهرة على هذه الأحداث أو على بعضها عندما نتناول بالتفصيل حياة أحفاد وحفيدات النبى الكريم خاصة من الذين خرجوا من أرض الحجاز وأقاموا فى مصر، وكلها من موضوعات الباب الثانى.

ولاشك فقد أن أوان الحديث المفصل عن زواج فاطمة مثلما كان لنا ذلك من قبل مع أخواتها، وهناك بلا أدنى شك آلاف المصادر التى تناولت هذا الزواج سواء إجمالاً أو تفصيلاً، ومن ثم الظروف التى أحاطت به وكذلك أسبابه ونتائجه .

والحديث المفصل عن هذا الزواج وظروف زواجه من فاطمة ووفق رؤيتنا الخاصة لا يمكن أن يكتمل من دون الحديث عن الزوج نفسه وما تمتع به من صفات كثيرة ومتنوعة أشرنا إلى بعضها آنفاً.

فهذا الشاب المسلم والذى اختاره رسولنا زوجاً لابنته فاطمة هو ابن أبي طالب عم النبى وشيخ بنى هاشم الذى تولى حماية ابن أخيه ورعايته سواء من قبل بعثته الشريفة أو من قبلها.

من هنا لاحظنا وجود تلازم كبير فيما كان يقال عن رسولنا الكريم وعن عمه أبى طالب، وعن ابنه على بن أبى طالب أيضًا.

وتبدأ معظم المصادر المروية حديثها التفصيلى عن حياة على ابن أبى طالب منذ اللحظة التى انضم فيها إلى بيت النبوة وهو لا يزال طفل صغير . فعندما تزوج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة رضى الله عنها وما كانت تتصف به من سعة الرزق والحال الميسور ، وقد أصابت قريشًا سنة مجدبة عاش خلالها معظم أهل مكة فى ضيق وعنت ، عندئذ رق قلب هذا الرسول الكريم

لحال عمه أبو طالب فسعى إليه مع عمه العباس من أجل أن يشارك فى التخفيف مما كان يعانى منه فى ذلك الوقت من ضيق ذات اليد، وقد رأى رسول الله ﷺ أن خير وسيلة لتحقيق ذلك هو استضافة ابن أبى طالب الصغير على بن أبى طالب للعيش معه ومع زوجته وأولاده ،وبالفعل انتقل على للعيش مع رسول الله فى حين استضاف العباس ابن أبى طالب الثانى .

إذن وفى هذا السياق نجد أن الله تعالى قد قدر لهذا الشاب أن يلتحق بآل بيت النبوة ويعيش بين جدرانه فى فترة مبكرة من حياته وحتى من قبل أن يكتب الله له نصيبًا وافرًا فى الزواج من فاطمة والذى أصبح من بعدها أحد أعمدة آل البيت.

وكما تؤكد العديد من المصادر فإن اقتراب أو دخول على إلى بيت النبى فى هذه الفترة المبكرة من حياته جعلته يشهد ويساهم فى كثير من أحداث التاريخ الإسلامى .

ولسنا فى حاجة مرة أخرى إلى القول بأن على بن أبى طالب كان أول من أسلم من الصبيان برسالة الرسلام وما جاء به رسولنا ، ثم ما كان منه عندما تحمل تعبات النوم مكان رسولنا الكريم وفى شجاعة غير مسبوقة ليلة هجرة النبى من مكة إلى المدينة.

ولقد امتدت المواقف التاريخية الساخنة فى حياة هذا الصحابى الجليل حتى من بعد زواجه من فاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام ، ونستطيع فى السياق نفسه ، أن نقول إن هذه المواقف التأريخية المشهود لها والمتعددة داخل التاريخ وأوراقه قد ظلت متألقة حتى من بعد رحيل على بن أبى طالب نفسه ، وكانت متمثلة فى ولديه وفى أحفاده وحفيداته أيضًا ، وكُتب التاريخ التى بين أيدينا بها المئآت من المواقف الساخنة التى عاصرها على بن أبى طالب والتى كان آخرها وأعظمها من حيث الأسباب والنتائج ذلك النزاع المشهور حول توليه الخلافة بعد رحيل عثمان بن عفان ، وتفاصيل موقعة الجمل ..وأخيراًحادث مقتله فوق أرض العراق.

ولقد رأينا من الضرورى ونحن نقترب من نهاية هذا الحديث العظيم عن بنات النبى وأزواجهن أن نعود أدراجنا للحديث من جديد عن فاطمة الزهراء لنعرف بعض التفاصيل التى ارتبطت بظروف زواجها من هذا الشاب الذى عُرف عنه الإيمان وكذلك بعض الذى ذكرته المصادر عن أيامها الأخيرة.

ومما سقناه من قبل نعرف أننا توقفنا عند مشارف الأيام التى أصبح مهيأ فيها لدخول التاريخ من أوسع أبوابه عندما شاءت إرادة رب العالمين أن يتزوج من هذه السيدة الفاضلة .

وهنا وفى هذا السياق نسوق ما قيل بشأن هذا الزواج وما أوردته المصادر من كلمات قالها رسولنا الكريم وكان من بينها : أن الله أمرنى أن أزوجك ابنتى فاطمة وإنى زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة فقال على : رضيت يارسول الله: ثم قال له بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما أى حظكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب.

ومما قرآناه بخصوص هذا الحادث السعيد أن علامات هذا الزواج والإشارة إليه كان بعضها خفيًا كما كان أيضًا واضحًا وضوح ضوء الشمس ، وجميع هذه الإشارات كانت تدل على أن فاطمة الزهراء سوف تكون من نصيب هذا الإمام الجليل ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن تدلنا على ما كان أنذاك من هذه الإشارات ولعل ذلك يتجلى بوضوح فى قولها:

كانت فاطمة قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، ومتأثرة بنفورها القديم منه يوم انتزعوا أختها الحبيبة زينب من بيت أبيها وزفوها إلى دار أبى العاص ابن الربيع ، وفاطمة طفلة فى الرابعة من عمرها، ولقد مضت الأعوام ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى أصاب كل أنثى قبلها ، من حواء إلى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم.

وتقترب بنا أكثر الدكتورة بنت الشاطئ من حديث زواج فاطمة من ابن عم أبيها الإمام على فتقول لنا عن هذا الموضوع :

وكانت إلى ذلك كله تحس أن ابن العم على بن أبى طالب قريبًا منها فى المنزل الجديد وتلمحه يحوم حول والدها وفى نفسه أمرًا يكتمه ولا يريد الإفصاح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه ، على أن فاطمة لم تكن بالتى يخف عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهى تحس بإلهام فطرتها ووحى قلبها أن عليًا متعلق بها وغير منصرف عنها ،ولا يرغب فى سواها من بنات المسلمين.(١)

وهكذا تزوج من فاطمة الزهراء ، وكان جهاز عرسها لايزيد عن سرير بسيط ووسادة من الجلد وحشوها ليف ، وإناء للغسل وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحى وجرتين صغيرتين.(٢)

---

(١)بنات النبى - مصدر سابق.

(٢) فى البيت النبوى الكريم - مصدر سابق.

ولم يكن على بن أبى طالب فى ذلك الوقت على حظ وفير من المال ، إذا لم يكن له مكتسب ولا موروث.

وكما سبق وذكرنا فقد ظلت فاطمة الزهراء بجوار زوجها الإمام تعيش معه أحداث التاريخ الإسلامى والذى كان كل من أباها النبى الكريم وزوجها على بن أبى طالب ، وما كان يخفف عنها من ضغوط حياتها سوى أبوها الرسول الكريم والذى كان دائم زيارتها فى بيتها لإرضائها وإزالة ماكان يعكر صفوها وصفو حياتها الزوجية.

ثم شاء الله ووفق ماذكره ابن سعد فى طبقاته أن يقر عين الزهراء وعيون من حولها من الذين يحبونها ، فوضعت بكرها الحسن بن على فى السنة الثالثة للهجرة ، ومن ثم احتفلت المدينة كلها بهذا المولود والذى كان يعتبر أنذاك أول أحفاد النبى الكريم من الذكور ، وقد جاء من إحدى بناته الأربعة ، عندئذ تصدق جده النبى على الفقراء .

ورويداً رويداً راح ذلك الحفيد تتفتح حياته حتى بلغ عامًا واحداً وبعض عام ، عندئذ رزق الله ابنته فاطمة الزهراء بحفيده الثانى الحسين ، وكان ذلك فى شهر شعبان من عام أربعة من الهجرة.(١)

وكان رسول الله ﷺ قد بلغ آنذاك نحو السابعة والخمسين من عمره الشريف ، فى حين كان قد مضى على وفاة زوجته السيدة خديجة مايقرب من سبع عشرة سنة ، تزوج خلالها رسولنا الكريم من خمسة نسوة لم يرزقه الله منهن بأولاد، ولذلك كانت فرحة النبى كبيرة بهذين الحفيدين.

ولقد زاده سروراً مواصلة ابنته إنجاب بقية أولادها من البنات وهما زينب وأم كلثوم ، الأولى ولدت فى السنة الخامسة من الهجرة ، اما الثانية فقد ولدت فى العام السابع.

هؤلاء الأحفاد قد ظلوا يعيشون فى كنف هذا البيت الكريم ، وقد شاء الله أن يخرج من أصلابهم بقية عترة آل بيت النبوة.

ولقد امتدت الحياة بالزهراء حتى وفاة أبيها الذى رحل عن عالمنا وكما هو معروف يوم الإثنين الموافق الثالث عشر من ربيع الأول من عام أحد عشر من الهجرة ، ودفن فى حجرته الشريفة.

وتقول بعض المصادر أن السيدة فاطمة الزهراء قد مكثت بعد رحيل والدها النبى الكريم عدة

(١) تاريخ الطبرى.

أشهر إذ توفيت فى يوم الإثنين وفى شهر رمضان من عام إحدى عشر هجرية ، وكانت قد تمنت فى قرارة نفسها أن تلحق بأبيها لكي يكون لها عزاء فى صدمتها وفق ما بشرها به رسول الله ﷺ ، عندما أخبرها بأنها ستكون أول من تلحق به من أهل بيته ، وبالفعل رحلت عن عالمنا ودفنت بالبقيع مع بقية أخواتها من آل البيت.

الباب الثاني

آل البيت.. ومساجدهم

فى القاهرة

في هذا الباب الجديد من الكتاب الذي بين أيدينا سوف نقترب كثيرًا من الحديث عن آل البيت من الذين تركوا أرض الحجاز على إثر ما تعرضوا له من مضايقات انتهت بمقتل أحد أعمدة آل البيت وهو الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم طالت هذه الأحداث كذلك كل من ابنيه الحسين ثم الحسن ، الأمر الذي جعل إحدى بنات هذا الإمام تلجأ إلى مصر الأمن والأمان .. وكان مقدمها هو بداية قدوم غيرها من آل البيت إلى مصر ؛ ولسوف يتضح ذلك من خلال استعراضنا لما جاء من أحداث في هذا الباب و الذي يحتوي على :

•• الفصل الأول وعنوانه : حفيدات آل البيت .

•• والفصل الثاني وعنوانه : أحفاد آل البيت .

•• أما الفصل الثالث فعنوانه : الأولياء من آل البيت .

•• وأخيرًا فصل عن احتفال المصريون بآل البيت .

الفصـــل الأول

حفيدات آل البيت

عندما نتحدث بالتفصيل وفق ما جاء في كل كتب التاريخ الإسلامي وكتب السيرة عن حفيدات النبي الكريم من المنتسبات لآل البيت ، خاصة اللاتي قدمن إلى مصر، سوف نكتشف أن هناك حفيدتين فقط هما ممن أقمن في مصر بعد اختيارها لدار إقامة لهما بعد حادث كربلاء ومقتل أخيهما الإمام الحسين ، في حين لبثت ثلاث حفيدات أخريات في المدينة المنورة وهن بالترتيب السيدة إمامة بنت أبي العاص رضي الله عنها وقد شملناها بحديث مفصل من قبل عند حديثنا عن أمها زينب ابنة رسولنا الكريم، وهو الذي ذكرنا فيه أن الإمام علي رضي الله عنه قد تزوجها بعد وفاة فاطمة الزهراء وقد شهدت يوم مقتله يوم الفتنة الكبرى .

أما الثانية فهي زينب رضي الله عنها والتي سوف نفسح لها جزءاً كبيراً من الحديث القادم لأنها وكما سبق وذكرت كانت من أوائل حفيدات النبي الكريم اللاتي أقمن في مصر ، وبُني لها مسجداً ما يزال موجوداً إلى اليوم وفي توسع وازدهار مستمر .

ثم تأتي السيدة أم كلثوم ابنة الإمام علي وأخت السيدة زينب وأمهما السيدة فاطمة الزهراء ، والتي تحدثت عنها مصادر التاريخ الإسلامي بتفاصيل كثيرة ، وسوف نسوق بعضها حتى تتساوى في الحديث بالسيدة إمامة رضي الله عنها .

ومما قيل عنها في هذا الشأن إنها كانت صغرى حفيدات رسول الله ﷺ كما كانت صاحبة سيرة عطرة ومحفوفة بالثناء لمقامها الرفيع بين سيدات آل البيت .

ويقول صاحب موسوعة آل البيت أن هذه الحفيدة ولدت في حياة جدها النبي الكريم في العام السابع الهجري أي في أواخر عهد النبوة ، وقد نشأت وسط والديها الإمام علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء وإخوتها الذكور الحسن والحسين بعد رحيل أخيها الثالث محسن والذي توفي صغيراً .

وتذكر المصادر نفسها والتي أشار إليها صاحب هذه الموسوعة إلى أنها تزوجت من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أميرًا للمؤمنين والخليفة الثاني بعد أبي بكر الصديق .

ويؤكد صاحب هذه الموسوعة أيضًا .. أن أم كلثوم رضي الله عنها قد فازت في حياتها بأمير المؤمنين عمر كزوج ، وأن جدها وأباها وزوجها كانوا جميعًا ممن شهدوا بدرًا ، فأى شرف مثل هذا الشرف الذى نالته هذه الحفيدة الكريمة .

ومما يقال في هذا السياق أيضًا أنها قد حظيت بالعيش في كنف جدها النبي الكريم قرابة خمس سنوات من قبل رحيله ، وقد أحاطها برعايته وعطفه الزائد ، ثم ما لبثت أمها فاطمة الزهراء أن لحقت بأبيها النبي الكريم بعد ستة أشهر فقط .

أما فيما يخص زواجها من ثاني الخلفاء الراشدين فيقول عن ذلك صاحب هذه الموسوعة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً ذو عقل راجح فطن بعيد النظر ، لذلك فقد أراد أن يصل نسبه برسول الله ﷺ ، وقد وجد ما يتمناه في بيت الإمام علي ، وفي ابنته أم كلثوم رضي الله عنها .

ويقول ابن سعد في طبقاته : أن السبب الذي دفع عمر إلى هذه الخطوة هو ما سمعه من قول النبي ﷺ : "كل سبب ونسب مقطوع يوم القيامة إلا سببي ونسبي" فأراد عمر بن الخطاب لذلك أن يصل نسبه بالرسول الكريم .

ونحن نعرف أن هذا الخليفة العادل قد زوج ابنته حفصة للنبي الكريم وباتت بذلك من أمهات المؤمنين ، ولقد أراد هو الآخر أن ينال ذلك الشرف وأن يتقرب إلى آل البيت ، بل وربما يصبح واحدًا منهم ، وقد تقدم بطلبه هذا إلى علي بن أبي طالب والد أم كلثوم ، الذي أجابه حينئذ بأن ابنته ما تزال صغيرة في السن ، ولم ييأس الخليفة الثاني للمسلمين .. فأخذ يلح في طلبه مرارًا إلى أن استجاب له قائلاً وفق ما جاء في طبقات ابن سعد الكبرى : "فعلت يا أمير المؤمنين وسأبعثها إليك فإن رضيتها فقد زوجتكما"[(١)] .

ويواصل صاحب الموسوعة كلامه عن هذا الزواج المبارك فيقول: وقد شاءت إرادة رب العالمين أن يقترن أمير المؤمنين من هذه الحفيدة الطاهرة أم كلثوم ، حيث أوفى الإمام علي بما عاهده عليه ، إذ بعث بابنته بثوب جديد إلى عمر بن الخطاب كي ينظر إليها ، لأنه لم يكن قد رآها من

---

(١) الطبقات الكبرى – مصدر سابق .

قبل ، وقد أعجبته فطلب زواجها ، وتم له ذلك في شهر ذي القعدة من السنة السابعة عشرة من الهجرة .

وعاشت السيدة أم كلثوم في بيت الخليفة عمر بن الخطاب وقد أنجبت منه أول طفلاً أسماه زيد بن عمر والثانية هى رقية بنت عمر .

ووفقاً لما تناقلته المصادر عن حياة هذا الخليفة العادل والذي رفض زخرف الحياة ومباهجها وآثر العيش فيما كان يعيش فيه بقية المسلمين . بل وأكثر من ذلك كان يلبس الثياب الخشنة ويطعم الطعام الجاف ، وقد تقبلت زوجته الجديدة أم كلثوم هذه المعيشة وبنفس راضية ، ويكفيها شرفًا أنها قد عاصرت هذه الفترة الزمنية المهمة في تاريخ الإسلام والمسلمين . هذه الفترة التي اتسمت بعدل هذا الخليفة أمير المؤمنين.. مما ساهم كثيراً في زيادة رقعة الدولة الإسلامية وانتشار الإسلام شرقًا وغربًا ، وكانت أم كلثوم دائمًا إلى جوار هذا الحاكم العادل تتعلم منه وتشاهد نتائج هذا العدل الذي ساد ربوع دولة الإسلام .

وفي صلاة صبح يوم الأربعاء في أواخر ذي الحجة من عام ثلاثة وعشرين هجرية وهو العام الذي شهد أيضًا الحجة الأخيرة لأمير المؤمنين ، عرفت أم كلثوم أن زوجها قد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي بخنجر مسموم عدة طعنات وهو يصلي إمامًا بالمسلمين . وقد حملوه إلى منزله ودمه يسيل من هذا الجرح ، وبعد عدة ساعات وأمام الفشل في علاجه توفي رضي الله عنه ودفن بالحجرة الشريفة إلى جانب صاحبه الأمين أبي بكر الصديق . وإلى جوار أعظم خلق الله محمد رسول الله .

عندئذ وكما تقول المصادر وتؤكده أيضًا ، انتقلت أم كلثوم إلى بيت أبيها الإمام علي مع ولديها. حتى أتمت عدتها فخطبها سعيد بن العاص والي عثمان بن عفان على الكوفة ولكن أخاها الحسين رفض هذا الزواج، فانسحب سعيد بن العاص ، ثم خطبها بعد ذلك جعفر بن أبي طالب ، ولما توفي زوجها أبوها من أخيه محمد بن جعفر بن أبي طالب بعد أن انقضت عدتها ، ولما توفي أيضًا زوجها أبوها من عبد الله بن جعفر ابن عمها ..

ولما توفيت السيدة أم كلثوم دفنت في البقيع ولم تنجب من هؤلاء الأزواج الثلاثة ، وبالتالي فقد ظلت أمًا لابني عمر بن الخطاب زيد ورقية ، إلا أن صاحب كتاب أُسد الغابة قد ذكر أن أم

كلثوم بنت الإمام علي قد توفيت هى وابنها زيد في يوم واحد على إثر حادث أودى بحياته ، عندئذ حزنت السيدة أم كلثوم على ابنها حزنًا شديدًا فوقعت مريضة ، وماتت في هذه الليلة نفسها، فدفنا في وقت واحد تقريبًا ، واستقبل تراب البقيع جسديهما الشريف .

• • السيدة زينب ابنة الإمام علي رضي الله عنه :

إننا لسنا في حاجة إلى التأكيد مرة أخرى على أن حديثنا منذ هذه اللحظة سوف يقتصر وفق مجريات التاريخ وما جاء في السير عن آل البيت ، على حفيدات رسول الله ﷺ اللائي حضرن إلى مصر .. وأقمن بها ، إقامة أمان وطمأنينة . وقد كتب الله تعالى لنا في مصر نيل هذا الشرف العظيم ، إذ أخذت الدوحة الشريفة من آل البيت تتوافد على أرض مصر للإقامة فوق ترابها والموت أيضًا أسفل هذا التراب ، وكانت إقامتهن إقامة تشريف لكل أهل مصر من الذين احتفلوا بهم ، وأعلوا من شأنهم ، وقد عبروا عن كل ذلك بإقامة القباب والمساجد والشواهد التي تدل على وجودهن فوق هذه الأرض الطاهرة .

إن الحديث خلال هذا الفصل سوف يتناول كل هؤلاء الحفيدات ، ومشوارنا معهم نبدأه بحديث طويل ومفصل عن السيدة زينب ابنة الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء .

وما نود أن نشير إليه في هذا السياق أن حديثنا عن هذه السيدة الطاهرة سوف يتناول كل ما قيل عنها وعن مولدها ونشأتها وعلمها وجهادها وكفاحها ورعايتها لأولاد أخيها الحسين بعد مقتله .

ولسوف يتجلى ذلك كله عندما نفصح عن كل ذلك بالأدلة والبراهين والتي نسوقها من أوثق المصادر التاريخية . فتعالوا إلى التفاصيل .

• • •

ونحن نقلب في المصادر التاريخية بحثًا عما يتصل بتاريخ ولادة ونشأة هذه السيدة الطاهرة والتي تحتل المرتبة الثانية ضمن حفيدات رسول الله ﷺ إذ سبقتها على هذا الدرب وكما أسلفنا السيدة إمامة بنت أبي العاص .

أقول أننا عندما بدأنا مشوار ذلك البحث عما يتصل بها من أخبار في هذه الكتب استوقفني ما جاء في كتاب "أخبار الزينبات" للعلامة الجليل أبي الحسين يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله

الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام السجاد وهو كما جاء على لسان محققه سيد هادي خسرو أشاهي أنه من نفائس آثار القدماء .. هذا العلامة ينتهي نسبه إلى الإمام السجاد زين العابدين [١] .

ولقد أثرت أن يشمل حديثنا عن السيدة زينب ابنة الإمام علي وحفيدة رسولنا الكريم الاقتراب مما جاء في هذا الكتاب التراثي المهم .

ومما ذكره صاحب الزينبات في هذه الأوراق قوله :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد وصحبه وسلم .. حدثنا محمد بن سليمان ، قال حدثني أبو طالب جعفر النقيب ، قال أخبرنا الشيخ أبو الفتح السلماني ، قال حدثني الشريف أبو محمد الحسن والشريف مهنى بن سبيع القرشي قال حدثنا محمد بن يحيى بن الحسن قال : أملى عليّ أبي وأنا أكتب : بحمد الله وثنائه نستفتح أبواب رحمته وبالصلاة والتسليم على نبيه الكريم نستفتح الفضل ونستوهب القرب من حضرته .

وبعد فهذه رسالة جمعت في طيها "أخبار الزينبات" من آل البيت والصحابيات اللاتي وقفنا على أخبارهن .

ويبدأ المؤلف رحلته مع الزينبات بالحديث عمن سُمين بهذا الاسم من بنات النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك من زوجاته أمهات المؤمنين .

وأوضح صاحب هذه الأوراق أن زينب ابنة النبي ﷺ هى الأولى في هذا التسلسل الشريف [٢] ، ثم زينب بنت جحش إحدى أمهات المؤمنين [٣] .

وبعد ذلك يحدثنا صاحب هذه الأوراق عن الزينبات الأخريات مثل زينب بنت عقيل بن أبي طالب ، وزينب الكبرى بنت علي بن أبي طالب وهى موضوع حديثنا المفصل بعد قليل ، وزينب الوسطى بنت علي بن أبي طالب والتي اختار لها رسولنا الكريم اسم أم كلثوم وهى التي تزوجها عمر بن الخطاب [٤] ، وزينب الصغرى بنت علي بن أبي طالب .

---

(١) الكتاب من تقديم سيد هادي خسرو أشاهي .
(٢) سبق لنا تناول حياتها بالتفصيل في الباب الأول .
(٣) وقد سبق لنا أيضًا إلقاء الضوء على حياتها في الباب الأول .
(٤) انظر ما كتبناه عنها من قبل .

وحقيقة الأمر فإنه بالنسبة لهذه الفتاة التي ذكرها مؤلف الكتاب فقد وجدنا أن هناك تضاربًا وتداخلاً بين الأسماء التي أُطلقت على حفيدات النبي الكريم حتى بات معروفًا على سبيل اليقين أنها هى السيدة زينب ابنة الإمام علي رضي الله عنه وأخت الحسن والحسين ، والتي هى أيضًا موضوع كلامنا القادم فوق هذه الأوراق ، ثم زينب بنت الحسن بن علي بن أبي طالب ، وزينب بنت علي زين العابدين ، وزينب بنت عبد الله الكامل بن الحسن المثني ، وزينب بنت خزيمة بن الحارث ، وكانت إحدى أمهات المؤمنين والمعروفة بأم المساكين[(١)] .

ويواصل الشيخ العلامة أبي الحسن يحيى حديثه عن هذه الزينبات مؤكدًا على أن عددهن يصل إلى ثلاثة وثلاثين وآخرهن هى زينب بنت الزبير بن العوام[(٢)] .

ولسوف يكون لنا عودة مرة أخرى مع ما ذكره هذا المؤلف حين نتحدث أيضًا بالتفصيل عن زينب الحفيدة الثانية للنبي الكريم وأولى بنات الإمام علي بن أبي طالب.

ولقد أشارت معظم المصادر التاريخية في هذا السياق أن هذه السيدة الطاهرة قد ولدت رضي الله عنها بالمدينة المنورة وبعدالهجرة ببضع سنين ، ولذلك نجدها قد نشأت وترعرعت في كنف جدها النبي الكريم ﷺ .

وهناك بعض المصادر الأخرى والتي أشارت صراحة إلى السنة التي ولدت بها ، ومن هذه المصادر ما ذكره علي أحمد شلبي رئيس مجلس إدارة المسجد الزينبي في كتابه "ابنة الزهراء بطلة الفداء زينب رضي الله عنها" ، عندما قال : كان مولد السيدة زينب في السنة الخامسة من هجرة الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة المنورة والموافق ٦٢٦ هجرية[(٣)] .

في حين ذكر صاحب موسوعة آل البيت أن زينب رضي الله عنها قد ولدت في العام السادس من الهجرة ، ونحن نعتقد أن هذا الخلاف صحي للغاية .. نظرًا لعدم وجود أدلة تاريخية مكتوبة تساهم في التحديد الدقيق لهذا التاريخ .

ولقد رأينا أن هناك إجماعًا كبيرًا وفي كل المصادر تقريبًا على مكان ولادتها في المدينة المنورة

---

(١) انظر زوجات آل البيت – الفصل الأول من الباب الأول .
(٢) المصدر السابق وكتاب أهل البيت في مصر لمجموعة مؤلفين .
(٣) ابنة الزهراء بطلة الفداء – علي أحمد شلبي .

وفي بيت أبيها علي بن أبي طالب على الرغم من أن ولادتها قد جاءت بعد كل من الحسن والحسين، وبالتالي فهي أصغر منهما وكانت السيدة فاطمة الزهراء حتى وهى على فراش الموت قد أنست في ابنتها زينب الكفاية لرعاية أخويها ، ولذلك نراها قد أوصتها خيرًا بهما ، وأن تكون بعد رحيلها في مقام أمهما وقامت السيدة زينب بالفعل بهذه المهمة على مدى أيام حياتها استجابة لتلك الوصية .

ولسوف يتجلى ذلك بوضوح بعد وقوفنا على تفاصيل مجريات حياتها وحياة أخويها(١) .

ومما ترويه هذه المصادر أيضًا عن يوم مولدها أن السيدة أسماء بنت عُميس زوجة جعفر بن أبي طالب قد حملتها بين يديها وقالت : "يا ابنة رسول الله ، إنها شبيهة بك في جمال الخلقة وحسن التكوين ، بل إن جمال النبوة المجسم في هذه المولودة الصغيرة ، وما أشبهها بأخيها الحسين" .

أما فيما يخص بتسميتها بهذا الاسم فقد سألت السيدة أسماء والدها عن اسم هذه المولودة ، فقال : ما كنت لأسبق رسول الله ﷺ ، وكان النبي الكريم في سفر فلما عاد عليه الصلاة والسلام، سأله الإمام علي عن اسمها فقال : ما كنت لأسبق ربي تعالى . فهبط جبريل عليه السلام يقرأ السلام من الله تعالى على النبي ﷺ ، وقال له : سم هذه المولودة زينب ، ثم أخبره بما سوف يجري عليها من المصائب ، فبكى النبي ﷺ وقال: "من بكى على مصاب هذه البنت كان كمن بكى على أخويها الحسن والحسين" . كما تنبأ لها في الوقت نفسه بأنها ستكون مولودة طاهرة مباركة ، وأنها ستكون من فضليات النساء المؤمنات من أمته(٢) .

ومما ذكرته المصادر التاريخية عن علاقتها بجدها الكريم ﷺ أنها لم تتمتع بأيام أو سنوات طويلة في كنفه مثل أخويها الحسن والحسين، ذلك لأن جدها النبي الكريم قد رحل وهى في سن الخامسة من عمرها ، ثم فقدت أمها الزهراء بعد ذلك بأشهر قليلة .

وكما سبق وذكرنا فإن زينب رغم هذه السن الصغيرة قد حافظت على وصية أمها الزهراء بأن تظل في رعاية أخويها من بعدها ، بل وقد امتدت تلك الرعاية لأخويها حتى من بعد رحيلها إذ شاء قدرها أن تتولى رعاية أولادهما أيضًا وهو ما سوف نشير إليه تفصيلاً فيما بعد.

(١) في البيت النبوي الكريم – مصدر سابق .
(٢) المصدر السابق .

ولما بلغت زينب مبلغ النساء تقدم لخطبتها الكثيرون من أهل يثرب وكان من بين هؤلاء عبد الله بن جعفر ، ابن شقيق الإمام علي رضي الله عنه والذي ذكرت عنه المصادر الإسلامية أحاديث كثيرة اقتربت من كرمه وزهده وعلمه وبلاغته .

إضافة لما كان عليه أبيه جعفر بن أبي طالب الذي توفي في موقعة مؤتة بأرض الشام ، وكان كذلك أول مولود للمسلمين في هجرة الحبشة ، كما كان يحبه رسول الله ويعطف عليه ، نظراً لما قدم أباه من تضحيات للإسلام .

وتذكر بعض المصادر أيضًا أن عبد الله بن جعفر والذي تزوج من السيدة زينب كان يكبرها بأكثر من خمس سنوات أو ست نظرًا لما كان يتمتع به من صفات طيبة فقد رأينا ضرورة أن نقدم عنه بعض الذي توافر لدينا من معلومات ومن أجل أن تكتمل الفائدة المرجوة فقد كان عبد الله بن جعفر كريمًا وجوادًا وسخيًا نظرًا لما كان يتمتع به من رغد في الحياة . إذ كان يمتلك في المدينة قرى وضياعًا ومتاجر ، عدا ما كان يصله من الخلفاء من أموال ؛ ولذلك كما ذكرت المصادر ذاتها فإنه كان مقصد كل المحتاجين بالمدينة ، إلى جانب كل ذلك كان عبد الله بن جعفر صاحب بلاغة وفصاحة، وقد روى عنه الإمام البيهقي في كتابه المحاسن والمساوئ .

وفي كتاب "الطاهرة السيدة زينب" لمؤلفه عبد الخبير الخولي حدثنا عن بعض لمحات من حفل زفاف عبد الله بن جعفر والسيدة زينب فقال : ولما بنى بها في المدينة المنورة كان يومًا عظيمًا من أيام انتصار المسلمين على الكفار في فتوح الإسلام العظيمة بالعراق والشام (١) ، وكان ذلك في أواخر عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين والذي حضر هذا الزواج ؛ وكما أن حفل الزفاف قد أقيم في بيت أبيها علي بن أبي طالب والذي أقام ليلتها مأدبة عظيمة لأصحاب رسول الله .

وفي هذه المناسبة قال الصحابي الجليل أبو هريرة لأنس بن مالك : والله يا أنس ، لو كان رسول الله موجودًا في هذا الزواج لكان يومًا من أيام النبوة التي تشتاق النفوس المؤمنة الصادقة إلى مشاهدتها فأجابه أنس بن مالك : أما علمت أن عهد رسول الله يكاد يكون موجودًا بوجود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على رأس هذا الحفل الكريم ، وما رأيت حفلاً أبهج من هذا الحفل (٢) .

---

(١) الطاهرة السيدة زينب – عبد الخبير الخولي .
(٢) المصدر السابق.

وعاشت السيدة زينب في بيت زوجها بالمدينة المنورة ، في حياة طيبة وقد ولدت له أربعة بنين هم : محمد المكنى بجعفر الأكبر وعليًا وأم كلثوم وأم عبد الله ، وجميعهم قد ماتوا بدون عقب إلا عليًا الأكبر وأم كلثوم فكان لكل منهما ذرية من أبنائهما وبناتهما .

وقد عاش زوجها عبد الله بن جعفر حتى عام ثمانين هجرية ، ولما قُبض رضي الله عنه ، شهد جنازته أهل المدينة كلها ، ورثاه الكثيرون كما حمل نعشه إبان بن عثمان ، وكان أميرًا للمدينة في أيام عبد الله بن مروان ، ودفن بالبقيع .

•••

وحين نعود للحديث عن صاحبة هذا المقام الشريف السيدة زينب رضي الله عنها - كان لا بد من مواصلته من جديد وإنما في جانب آخر من جوانب حياتها . إذ ارتبطت بحادث سياسي هام في تاريخ دولة الإسلام ، وطبعًا هذا بخلاف ما اشتهرت به من صفات تجلت بوضوح في كثرة صيامها وقيامها وحفظها لكتاب الله ، وتراها لم تترك كل ذلك حتى في أشد الليالي التي مرت عليها كربًا خاصة أثناء أحداث كربلاء والتي انتهت بمقتل أخيها الحسين ثم عودتها إلى المدينة واختيارها الإقامة في مصر .

وهناك العشرات من الكتب ومن المصادر التاريخية الإسلامية وغير الإسلامية التي ذكرت تفاصيل ذلك الحادث الهام والذي غير مجرى التاريخ الإسلامي وكان سببًا في وصول آل بيت النبوة إلى مصر .

ولقد رأينا أيضًا ومن قبل الخوض في هذه التفاصيل ضرورة أن نتوقف أمام ألقاب السيدة زينب وأسباب كثرة هذه الألقاب وأهميتها ، فقد لقبت بالعقيلة وعقيلة بن هاشم وعقيلة الطالبين والموثقة والعازمة والعالمة وغير ذلك من الألقاب التى أصبح أشهرها قاطبة لقب "السيدة" ، ذلك اللقب الذي إذا ما أطلق فإنه لا ينصرف وعلى الفور إلا عليها من دون غيرها ، ومما شك فيه أن كم النوائب والأحداث التي مرت بها السيدة زينب كان سبيلها للصبر في هذه المأساة الكبرى والتي أودت بحياة أخيها الإمام الحسين وكما سوف نفصل ذلك بعد لحظات .

لقد فقدت السيدة زينب جدها العظيم صلوات الله عليه وسلم ، وهى ما زالت في الخامسة من عمرها كما فقدت أمها الزهراء بعد ذلك بعدة أشهر ، وما أن تقدم بها الزمان حتى صُدمت في

مصرع أبيها الإمام علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة ، على إثر طعنة عبد الرحمن بن ملجم القاتلة ، ثم مقتل أو اغتيال أخيها الكبير الإمام الحسن ، ولسوف نأتي بعد لحظات لحديث معركة كربلاء ونتائجها ثم أسبابها - باعتبارها ذلك الحدث الأهم والذي كان سببًا في وجود أحفاد النبي ﷺ في أرض مصر ، وذلك بالاقتراب من هذه المأساة من دون الدخول في تفاصيلها الفرعية، لأن ما يهمنا في هذا السياق هو الوقوف على ما حدث في الأيام الأخيرة والتي شهدت مقتل واستشهاد الإمام الحسين.

وما نود الإشارة إليه في هذا السياق أن معركة أو حادث أو مأساة كربلاء كانت لها مقدمات سجلها التاريخ . إذ سبقها حادث مقتل الإمام علي بن أبي طالب باعتباره كان الخليفة الرابع للمسلمين ، والذي تصادف أن تكون السيدة زينب من شهود الحادث أيضًا ، إذ امتد بها العمر حتى عاصرت ما حدث في شأن خلافة أبيها في عام ٣٥ هجرية ، خاصة ما ارتبط بالتحكيم الذي قاده أبو موسى الأشعري وما أسفر عنه ذلك من خلع الإمام علي وتثبيت غريمه معاوية بن أبي سفيان .

وتذكر لنا المصادر أن عمر السيدة زينب فى خلال هذه الأحداث جميعها كان يقترب من الثلاثين وقد خرجت مع جيش أبيها وفى مصاحبة زوجها وابن عمها إلى صفين .

ليس ذلك فقط ، بل وظلت تتابع هذه الأحداث التي اختلفت مسمياتها ما بين معركة صفين والجمل والنهروان ، ومن ثم شاهدت كيف تبدلت الأمور حتى أدت في نهايتها إلى موت الإمام علي بن أبي طالب في إحدى ليالي رمضان من عام ٤٠ هجرية وقيل إنها كانت ليلة التاسع عشرة من هذا الشهر .

ثم توالت الأحداث بعد ذلك عندما حاول أخوها الإمام الحسن أن يقف ضد خصومه وخصوم أبيه خاصة ضد معاوية بن أبي سفيان .. إلا أن أهل الكوفة قد خذلوه ، ومن ثم قتل بعد ذلك مسمومًا على يد زوجته جعدة بنت الأشعث الكندية(١) .

عندئذ بدأ دور أخيها الإمام الحسين يظهر مؤثرًا في أحداث ذلك الزمان ، خاصة عندما دعى

(١) الإصابة في تمييز الصحابة - مصدر سابق .

معاوية المسلمين لاختيار ابنه يزيد خليفة للمسلمين من بعده ، ولم يكن قد مضى على وفاة الحسن سوى ست سنوات .

لقد أعلن الإمام الحسين رفضه لهذه البيعة وعدم اعترافه بابن معاوية كخليفة جديد لأن هذا الاختيار قام على مبدأ الوراثة ، ورغم هذا الموقف الرافض من جانب الحسين إلا أن يزيد بن معاوية تولى الخلافة فعلاً بعد رحيل معاوية وتم ذلك في شهر رجب من عام ٦٠هـ.. ليس ذلك فقط بل وأراد أن ينتقم من هؤلاء الخصوم الذين كان على رأسهم الإمام الحسين ، وأوصى بذلك إلى عامله أمير المدينة الوليد بن عتبة ، وعندما علم الإمام الحسين بما كان من أمر هذا الأمير عزم الخروج من المدينة إلى الكوفة بالعراق وذلك تلبية لرغبة أهلها من الذين بعثوا يستنجدون به ضد يزيد بن معاوية .

ولقد أسفرت كل هذه الجهود عن نشوب معركة كربلاء والتي أسفرت عن مصرع الإمام الحسين ، ولسوف نرجأ الحديث تفصيلاً عن هذه المعركة ونتائجها لحين الحديث عن الإمام الحسين نفسه باعتباره من أحفاد آل البيت الذين وفدوا إلى مصر برأسه .

المهم أن معظم المصادر التاريخية قد أكدت بأن هناك ما يقرب من ثلاثة وسبعين شهيدًا قتلوا في هذه المعركة من آل الحسين ، وأنه لم يبق سوى النساء وطفلين صغيرين من أبناء الحسن بن علي وأخ ثالث لهما جرح في هذه المعركة وطفل مريض آخر هو علي الأصغر المعروف بعلي زين العابدين ، وكانت السيدة زينب في طليعة النسوة اللاتي تم أسرهن في هذه المعركة ومن ثم فقد سيقوا جميعًا إلى الكوفة كما تم نقلهم بعد ذلك إلى دمشق لمقابلة يزيد بن معاوية في قصره . وهو الذي أمر بإعادتهم إلى المدينة .

وتؤكد كل المصادر أن السيدة زينب ابنة الإمام علي وكل من كان معها من الصبية قد وصلوا فعلاً إلى المدينة بعد أن قد مضى على موت أخيها الحسين أربعين يومًا ، وهناك أقيمت المأتم على روح شهداء كربلاء .

ومما ذكرته هذه المصادر أن ابن الأثير ذكر في كتابه الكامل أنه لما بلغ عبد الله بن جعفر خبر موت أولاده ومعهم خالهم الإمام الحسين وبقية شهداء آل جعفر وعبد المطلب دخل عليه أحد مواليه لتعزيته فقال له : "هذا ما لقيناه من الحسين" فقذفه ابن جعفر بنعله غاضبًا وساخطًا .

وفي المدينة عندما وصلتها السيدة زينب أرادت أن تقضي بقية عمرها إلى جوار جدها رسول الله ﷺ ، إلا أن الطغاة وعلى حد قول كثير من المؤرخين قد وجدوا في إقامتها ومن معها بالمدينة خطراً على بني أمية ، ولذلك سارع يزيد بن معاوية بإصدار أوامره إلى أميره على المدينة بضرورة أن يقوم بتفريقهم .

ولما عرضوا عليها أن تترك مدينة رسول الله ، وتختار بلداً آخر كي تقيم فيه .. اختارت من دون تردد مصر التي جاءت إليها في جمع من نسوة أهل البيت وكان مقدمها في الأول من شعبان من عام ٦١هـ ، وبالتالي فقد أصبحت هذه السيدة الطاهرة أول من وطأ أرض مصر من آل بيت رسولنا الكريم ومن الذين قدموا إلينا وأقاموا بيننا حتى ماتوا ودفنوا بها أيضًا .

ومع مرور الأيام تحولت هذه المراقد الشريفة إلى مزارات دينية وإلى مساجد تحظى بكل احترام وتقدير سواء من المصريين أو من الذين كانوا ولا يزالون يقومون بزيارة هذا البلد الأمين .

•• السيدة زينب في مصر:

مما لا شك فيه كانت هناك عوامل كثيرة ساهمت وبشكل مباشر أو غير مباشر في خروج آل البيت وعلى رأسهم السيدة زينب من المدينة، ونحن هنا في مصر نحمد الله الذي هيأ لنا كل هذه الأسباب حتى يأتي إلينا هؤلاء القوم الأطهار من آل بيت النبوة .

ولقد تحدثت معظم المصادر التاريخية تفصيلاً عن هذه الأسباب . وقد أشرنا نحن إلى إحداها منذ لحظات عندما ذكرنا أن ذلك كان مرجعه خوف يزيد بن معاوية على نفسه وعلى ملكه من وجود هذه السيدة الطاهرة في المدينة .. بدليل أنه عندما استقر المقام بزينب هناك أخذت المنابر في كل المساجد تشير إلى جرائم يزيد بن معاوية ضد آل البيت وما أصابهم من طغيان وظلم على يد رجاله ، بل وتستشهد بما وقع للسيدة زينب ومن كانوا معها ، مما تسبب في إثارة مشاعر الناس وغضبهم على يزيد وعماله .

ولم يكن أمام عمرو بن سعيد والي المدينة من قبل يزيد إلا أن يستنجد به في دمشق ، وقد أمره بضرورة أن تغادر السيدة زينب إلى حيث تشاء من أرض الله .

وأمام هذا الأمر الذي أحزن السيدة الطاهرة من آل البيت . فقد اختارت طواعية أن تأتي إلى مصر .

وتؤكد المصادر أن دافعها الرئيسي لاختيار أرض الكنانة كدار إقامة وبديل للمدينة ما كانت تعرفه عن مصر وعن أهلها وما كانت تسمعه من جدها الكريم ﷺ والذي قال في حديث شريف نقلته أم سلمة : "إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا" .

وبناء على هذه الرغبة تحرك ركب آل البيت والذي كانت في مقدمته السيدة زينب إلى مصر وقد وصلتها في أول شهر شعبان من عام ٦١هـ . وكان في رفقتها خلال هذه الرحلة وفق ما ذكرته معظم المصادر .. السيدة فاطمة ابنة الإمام الحسين ، وابنته سكينة ، وقد ذكر ذلك أيضًا محمد بن عبد الله عن جعفر بن محمد الصادق منقولاً عن أبيه عن الحسن بن علي رضى الله عنهم أجمعين .

•••

وهناك روايات كثيرة ذكرتها العديد من المصادر عن وصول السيدة زينب إلى مصر وكيف استُقبلت وأين أقامت .. ومن ثم الشخصيات التي كانت في صحبتها من آل البيت .

ومما ترويه هذه المصادر في هذا السياق منقولاً عن صاحب كتاب ابنة الزهراء وبطلة كربلاء زينب وبالإسناد المرفوع إلى علي بن محمد بن عبد الله الذي قال على لسانه : "لما دخلت مصر في سنة ١٤٥هـ . سمعت عسامة المعاتري يقول ، حدثني عبد الملك سعيد الأنصاري ، قال حدثني وهب بن سعيد الأوسي عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري قال : رأيت زينب بنت علي بعد قدومها بأيام ، فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر".

وبالسند المرفوع إلى رقية بنت عامر الفهري أيضًا قالت في السياق نفسه : كنت فيمن استقبل زينب بنت علي لما قدمت بعد المصيبة ، فتقدم لها مسلمة بن مخلد الأنصاري وعبد الله بن الحارث وأبو عميرةالمزني فعزاها مسلمة فبكى ، فبكت وبكى الحاضرون وقالت زينب : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون .

كما حفلت الروايات نفسها بالحديث عن مظاهر استقبالها في مصر سواء من جانب الوالي أو من أهلها .. ومما قيل في هذا الشأن أنها وصلت أولاً إلى الفسطاط ، بعد أن قطعت المسافات الطويلة منذ خروجها من مدينة رسول الله .

وعندما علم والي مصر آنذاك وهو مسلمة بن مخلد الأنصاري وكما ذكرنا من قبل بمقدم هذه السيدة الطاهرة رضي الله عنها توجه ومعه لفيف من أعيان مصر ووجهائها وعلمائها ، فاستقبلوها استقبالاً كان يليق بمكانتها وبحب أهل مصر لها ولجدها النبي الكريم وأبوها الإمام علي كرم الله وجهه .

ومما قيل بشأن تاريخ وصولها فقد أكدت بعض المصادر أنها وصلت بالفعل إلى مصر أواخر شهر شعبان من عام إحدى و ستين من الهجرة ، وتكريمًا لها ولمكانتها فقد أنزلها مسلمة الأنصاري في داره التي كانت معروفة بالحمراء القصوى عند مشارف قنطرة السباع وبالقرب من خليج أم المؤمنين .

هذه المنطقة المعروفة الآن بحي السيدة زينب ، إذ كانت دارها تطل على هذه القنطرة والتي يحتلها الآن شارع السد .

هذه الدار التي تحولت إلى المسجد المشهور حاليًا ، والذي كان من قبل عبارة عن زاوية صغيرة ألحق بها مقام السيدة زينب من قبل توسعتها إلى المساحة التي هي عليه الآن .

وتؤكد المصادر نفسها أن السيدة زينب لم يطل بها العمر إذ رحلت تقريبًا وبعد أقل من عام من وصولها إلى مصر ، أي في أربع عشرة من شهر رجب سنة اثنتين وستين من الهجرة[(١)] الموافق ٢٧ مارس من عام ٦٨٢ ميلادية ، وقد دفنت كما ذكرنا من قبل في دار الأنصاري والتي ظلت تقيم بها منذ أن جاءت إلى مصر . وقد تحول هذا المكان من بعد رحيلها إلى مزار ديني كبير يتردد عليه المصريون للتبرك بها ويسألون ربهم وهم في مقامها صالح الدعوات .

ويقول القرطبي فيما سطره عن هذه السيدة الطاهرة أن من أهل البيت الذين أخرجوا من ديارهم إلى مصر كانت السيدة زينب ابنة الإمام علي ودفنت بجوار قناطر السباع ، وقد رأيت سيدي عليًا الخواص يخلع نعليه من القنطرة ويمشي حافيًا حتى يجاور قبرها[(٢)] .

•• مسجدها ومقامها :

كان مسجدالسيدة زينب رضي الله عنها في بدايته مجرد زاوية صغيرة في ضاحية بحرية بالمدينة

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر – مصدر سابق .
(٢) أهل بيت النبوة – سيرة وقضايا ـ محمود عبد الفتاح شرف الدين .

الفسطاط ، هذه الضاحية التي كانت تتمتع بالحدائق والخضرة ، نظرًا لقربها من الخليج المصري والذي كان يشق طريق شارع السد الآن ، وهو الذي يطل عليه حاليًا مسجدها الكريم.

وهناك من المصادر التي أمدتنا بالمعلومات القيمة سواء التاريخية أو المعمارية لمسجد السيدة زينب وأهم التوسعات التي شملته حتى أصبح على ما هو عليه الآن .

لقد بدأ هذا المسجد بضريح السيدة زينب وهو مكان إقامتها عندما وفدت إلى مصر ، وكان يقع في الجهة البحرية من دار مسلمة الأنصاري الذي كان يشرف على الخليج ، ثم مرت الأيام على هذه الدار فاندثر جزء عظيم منها إلا ما كان من ضريح السيدة الطاهرة زينب لأنه كان معظمًا ومقصودًا بالزيارة وموضع احترام الخاصة والعامة ، وكان الناس يتعاهدونه ببناء ما كان يتصدع من جدرانه .

وفي زمن أحمد بن طولون أجرى عليه ما أجراه على المشاهد الأخرى من عمارة وترميم ، فلما جاءت الدولة الفاطمية كان أول من بنى عليه عمارة جليلة من الخلفاء الفاطميين هو أبو تميم معد زاد بن المعز ، وكان ذلك في سنة ٦٣٩هـ .

وفي أيام الحاكم بأمر الله أمر بإثبات المساجد والمشاهد التي لا غلة لها ولا ريع ، وأوقف عليها عدة ضياع وقصور ، فخص المشهد الزينبي بنصيب وافر من هذه الأوقاف .

ليس ذلك فقط ، بل وظل هذا المقام موضع عناية جميع الحكام من الذين تعاقبوا على حكم مصر [(١)] .

وفي القرن السادس الهجري وأيام الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، أجرى على هذا المشهد عمارة وإصلاحًا الشريف فخر الدين ثعلب الجعفري ، صاحب البساتين التي عرفت بمنشأة ابن ثعلب ، وظل هذا المشهد على هذه العمارة إلى أن جاء القرن العاشر الهجري ، فاهتم بعمارته وإعادة تشييده وألحق به مسجدًا هو الأمير علي باشا الوزير والي مصر من قبل السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم الفاتح وتم ذلك عام ٩٥٦هـ .

وفي تتبع الدكتورة سعاد ماهر لتاريخ بناء مسجد السيدة زينب رضي الله عنها ، أكدت أن الأمير عبد الرحمن كتخدا قد أعاد تجديده في عام ١٧٦٨م .

(١) السيدة زينب رضي الله عنها – محمود الشرقاوي .

ومنذ اكتشاف واجهة هذا الجامع في القرن الثامن عشر أصبح يطلق على الميدان بل والحي كله اسم عقيلة بني هاشم ، وتوالت عمليات صيانة وتوسيع المسجد الزينبي ، حيث أقامت وزارة الأوقاف في عام ١٩٤٠م المسجد الموجود حاليًا والذي يوجد في طرفه الشمالي الغربي ضريح سيدي العتريس [١] ..

وبعد قيام ثورة يوليو ازداد الاهتمام بالمسجد وبتوسعته وإضاءته ونظافته وتأسيسه حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، سواء من حيث اتساع مساحته أو فرشه وإضاءته ، وإمداده بالمياه النقية .

وهناك العديد من كتب التاريخ وكذلك كتب الآثار التي تحدثت وبتوسع كبير عن مسيرة ورحلة تشييد هذا المسجد وتطوره ، وكذلك المشايخ الذين ارتبطوا به طوال رحلته التاريخية.

•• السيدة رقية ابنة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

بصرف النظر عما وجدناه من خلافات كثيرة بين المؤرخين حول من تكون السيدة رقية الموجود ضريحها ومسجدها في مصر . فإننا وحلاً لهذه الخلافات سوف نتطرق في حديثنا القادم إلى سيرة كل من السيدة رقية ابنة الإمام علي بن أبي طالب ، والتي يرى بعض المؤرخين ارتباطها بما هو موجود فعلاً باسمها في مصر ، كما سوف نتطرق إلى حديث آخر عن السيدة رقية الأخرى، وهى ابنة الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم أجمعين.

والسبب الذي يدفعنا إلى ذلك أن كل من هاتين السيدتين إنما تنتميان إلى آل البيت الكريم ، وبالتالي فإنه لن يكون هناك فرق كبير بين هذه وتلك ، المهم أن إحداهن أو كلتيهما ينتميان إلى آل البيت، ووجودهما معًا أو وجود واحدة فقط فوق أرض مصر . يكفينا شرفًا وبركة .

وسوف نبدأ رحلتنا بالحديث عن السيدة رقية ابنة الإمام علي رضي الله عنه بحكم مركزها وموقعها داخل منظومة آل البيت. كما سوف نعرج في حديثنا عنها ناحية كل الأسانيد التي أكدت على أنها مدفونة بالفعل في مصر ومسجدها هو المعروف باسمها الآن وهومسجد السيدة رقية.

والسيدة رقية كما يقول بعض الرواة وكما ذكرنا آنفًا هى ابنة الإمام علي بن أبي طالب ويقع

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – د. سعاد ماهر .

مشهدها أو ضريحها بين ضريح كل من السيدتين نفيسة وسكينة ، وأمها هى أم حبيبة الصهباء التعلبية ، وكانت أم ولد وتزوجها الإمام علي رضي الله عنه فولدت له كل من رقية وعمر الأكبر ، فكانا توأمين .

ومن هؤلاء الرواة الليث بن سعد الذي أكد على أن السيدة رقية هذه هى ابنة الإمام علي من فاطمة الزهراء ! .

أما الكاتب الإسلامي أحمد أبو كف فيقول في كتابه "آل بيت النبي في مصر" أن الحافظ السلفي ذكر وفاة سيدنا علي بن أبي طالب وعدله من الأولاد ثلاثين ولدًا ، وكانت رقية منهم وقال أيضًا : إن رقية هذه من الصهباء .

ومما يؤكد ذلك أيضًا ما جاء في كتاب الرياض النضرة في مناقب العشرة وقد ذكر مؤلفه أن السيدة رقية هى من بنات سيدنا علي رضي الله عنه ، ليس ذلك فقط ، بل ويورد أبو كف ما ذكره أيضًا الشعراني في متنه عندما قال : وأخبرني سيدي علي الخواص أن رقية بنت الإمام علي كرم الله وجهه في المشهد القريب من جامع دار الخليفة ومعها جماعة من أهل البيت ، وهو معروف بجامع شجرة الدر ، وهذا الجامع على يسار الطالب للسيدة نفيسة ، والمكان الذي فيه السيدة رقية عن يمينه ، وقيل أيضًا أن للسيدة رقية ضريح في دمشق! .

ولقد رأينا من قبل الدخول في تفاصيل الحديث عن ضريحها ومسجدها . ضرورة أن نشير إلى بعض ما يتعلق بها من كلمات حول النشأة والتربية .

ومما قيل في شأنها .. أن بعض ا لمصادر ذكرت أن أمها هى السيدة فاطمة الزهراء وأخرى ترى أنها تنتسب إلى أم حبيبة الصهباء التغلبية من نساء السراري اللائي سبين في حرب الردة ، ورأي ثالث يقول إن هناك رقية الصغرى ، ورقية الكبرى ، وأن رقية التي يوجد ضريحها في مصر هى رقية ابنة أسماء بنت عميس الخثعمية ، وأنها ماتت من دون البلوغ ، وعن ذلك يقول الشيخ الأجهوري أنها حين كانت في طريقها إلى مصر من المدينة اعترضها شخص من خصوم أبيها وأراد قتلها فوقفت يده في الهواء وسقط ميتًا! .

أما فيما يخص رقية الأخرى والتي شملها الخلاف فيما يتعلق بمرقدها وضريحها الموجود حاليًا في مصر باعتبارها من آل البيت ، فهي رقية ابنة الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم

بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محـمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

ووالدها هو الإمام علـي الرضا الذي ولد في المدينة المنورة في عـام ١٤٨هـ ثم اختاره الخليـفة المأمون والـيًا في عام ٢٠١هـ ، وقـد توفي رضي الله عنه في آخـر صفر سنة ٢٠٣ هـ ودفـن بجوار قبـرها هارون الرشـيد بالعـراق ، وهذا ما أورده وذكـره أيضًا وتفـصيـلاً صاحب كـتاب النـجوم الزاهرة.

ويستنتج الشيخ محمـد عثمان فيما كتبه عن آل البيت أن الضـريح الموجود بدمشق هو للسيدة رقية ابنة الإمام علي بن أبي طالب ، وبذلك يصبح الضـريح الموجود في القاهرة هو لرقية ابنة علي الرضا .

وبصرف النظر عن الخوض في هذه الخـلافات وكما ذكرنا من قبل فـإن الحديث سوف يشمل ضريح السيدة رقية باعتبارها من آل البيت دون الالتفات لكونها ابنة الإمام علي أو ابنة الإمام علي الرضا حفيد الإمام علي بن أبي طالب .

ومن المعروف أن ضريح السيدة رقية في مصر يوجد بشارع الخليفة بين مسجدي السيدة سكينة والسيدة نفيـسة ، وقد أنشأه الحافظ لدين الله ثامن الخلفاء الفاطميين في مـصر عام٥٢٧هـ ، وكتب على باب مدخله :

بقعة شرفت بآل البيت وبنت الرضا على رقية

أما التابوت الذي يوجد فوق الضريح فقد أمرت به السيدة علم الآمرية أرملة الآمر بأحكام الله الخليفةالفاطمي السابع وكان ذلك في عام ٥٣٣هـ . وأحيط هذا التـابوت بمقصورة خشبية مطعمة بالصدف ، وبالجدار القبلي تحت القبة محراب كبـير من الجصى محلى بزخارف رائعة وبه كتابات بالخط الكوفي .

ونظرًا لمكانة صاحبة هذا الضريح فقد دفن إلى جـوارقبرها الكثير من علماء المغرب من الذين كانوا يقيمون بمصر آنذاك .

وكذلك تحـدثت الدكتورة سعـاد ماهر أستاذة علم الآثار الإسـلامية عن هذا الضريـح فأكدت

على أنه من المشاهد الفاطمية البارزة والباقية في مصر حتى اليوم ، وهو موجود إلى جوار مشهدين أخريين أحدهما مشــهد السبع بنات في مصر القديمة ناحية الفسطاط وقد شيد عام ٤٠٠هـ ، وهو يقع في الربع الكبير الذي يفصل بينه وبين شارع الخليفة أو بينه وبين جامع شجرة الدر المقابل له بابًا من الحجارة في أعلاه بيت من الشعر .

أما علي مبارك فيقول عن موقع هذا الضريح في خططه : يقع هذا المشهد بجوار الطريق الموصلة إلى السيدة نفيسة بالقرب من جامع شجرة الدر على يمين الذاهب من السيدة سكينة طالبًا المشهد النفيسي ، كما يوجد داخل أسوار تحيط به مجموعة من الغرف ، كان يطلق عليها في العصر العثماني اسم التكية ، ويمكن الدخول إلى المشهد عن طريق سقيفة تتقدمها ثلاث فتحات معقودة ويبلغ طول هذه السقيفة ١٢,٥ مترًا وعرض ٢,٥ متر .

أما عن الضريح وشكله فإنه يتكون من شكل مستطيل يتوسط ضلعه الغربي المدخل ، كما ينقسم الضريح إلى ثلاث أقسام . وفيما يخص عمارته فقد نسب المقريزي ذلك إلى ا لأميرة علم الآمرية كما سبق وذكرنا ، إذ ترجع أقدم النصوص المؤرخة به إلى عام ٥٢٧ هـ - ١١٣٢م في شريط يدور حول رقبة القبة ، إضافة إلى كتابة أثرية أخرى بالخط الكوفي على التابوت الخشبي وهو يحمل تاريخ عام ٥٣٣هـ [١] .

والسيدة علم الآمرية وكما يقول المقريزي هى زوجة الخليفة الآمر بأحكام الله ، وقد كلفت القاضي مكنون الحافظ ببناء هذا الضريح ، وتمكن الأستاذ كزويل باعتباره أحد علماء الآثار الأجانب من العثور على تاريخ إنشاء هذا الضريح على القبة مع كتابات قرآنية باللون الأزرق على أرضية بيضاء .

هذه الكتابات أشارت بعضها إلى أن القاضي مكنون الحافظ والذي كان يعرف بأبي تراب هو الذي بني هذا المسجد وبما فيه الضريح .

وتقول المصادر بأن أبا تراب هذا هو نفسه أبو تميم تراب الحافظ والذي تولى منصب الوزارة أيام الحافظ الفاطمي .

(١) الآثار الإسلامية في مصر . د. مصطفى شيحة .

•• السيدة سكينة ابنة الإمام الحسين :

بالحديث عن هذه السيدة الطاهرة من آل بيت النبوة .. نكون قد اقتربنا كثيراً من الحديث عن الأماكن التي أقام بها آل بيت النبوة في مصر ، خاصة من الحفيدات الكرام . إنها السيدة سكينة إحدى بنات الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب وجدتها فاطمة الزهراء .

ورغم اختلاف الكثير بين من المؤرخين حول قدومها إلى مصر وانضمامها إلى آل البيت من الذين اختاروا هذا البلد الطيب للإقامة فيه ، إلا أن هناك فريقاً آخر من هؤلاء ا لمؤرخين من الذين أكدوا وجودها على أرض مصر ، بدليل وجود مقامها ومرقدها الذي تحول أيضًا إلى مسجد مشهور في إحدى ضواحي القاهرة القديمة .

وبصرف النظر عن هذه الخلافات ، فإننا سوف نتعامل مع واقع ما قيل بشأنها وشأن مسجدها.

ولقد رأينا من قبل تحقيق هذه الخطوة ضرورة الوقوف على بعض ما يتيسر لدينا من معلومات موثقة عن مولدها ونشأتها وزواجها ، وأشياء أخرى كثيرة تقترب من هذه السيدة الطاهرة والتي شرفت مصر بوجودها ضمن العترة النبوية من حفيدات رسولنا الكريم ومن آل بيته الأكرمين ، والأستاذ الدكتور محمود عبد الفتاح أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة الأزهر، يستهل حديثه عن هذه السيدة الطاهرة بقوله : إن السيدة سكينة هى النموذج الواضح على خصب بيت النبوة في مجالات الحياة كلها ، والنبراس الوهاج على درب الأدب والفكر المستنير .

ويعلل لنا الدكتور عبد الفتاح نظرته هذه بقوله : فهي الناقدة الحصيفة والذي اتضح من خلال سيرتها الذاتية صدق موازناتها وبصيرتها وقد عقدت في بيتها العديد من الندوات العلمية والأدبية[١] .

ليس ذلك فقط ، بل وكانت هذه السيدة الطاهرة إحدى نساء عصرها من أهل الجمال والظرف والأخلاق الحسنة ، عفيفة بين النساء وأكثرهن فصاحة وأدبًا وثقافة ، مما جعلها في طليعة نساء المسلمين ومن شهيرات الإسلام في المجال العلمي.

ويشير الدكتور محمود إلى أن هذا الوصف الأخير هو الوصف ذاته الذي أشار إليه بن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" .

---

(١) أهل بيت النبوة - مصدر سابق .

ولقد لاحظنا أن هناك العشرات من المصادر التاريخية التي تحدثت عن السيدة سكينة وعن مولدها ونشأتها ولم نجد فيها اختلافات كثيرة ، فهي ابنة الإمام الحسين وأمها هى الرباب بنت امرئ القيس الكلبي .

هذه الزوجة قد أنجبت للإمام الحسين ابنته سكينة ثم ابنه عبد الله والذي ولد قبلها .

وتقول المصادر ذاتها إلى السيدة سكينةولدت في عام ٤٧هـ ، وتوفى عمها الحسن ولها من العمر ثلاث سنوات ، كما شهدت مع أبيها الإمام الحسين معركة كربلاء وكان لها من العمر أربعة عشرة سنة ، وهو ما أكدت عليه الدكتورةبنت الشاطئ أيضًا(١) .

ومما ذكرته المصادر في هذا السياق أن اسمها رضي الله عنها هو آمنة بنت الحسين ، تبركًا باسم والدة نبينا الكريم وجدتها رضي الله عنها آمنة بنت وهب ، وأن سبب تسميتها بسكينة، هو ما اتصفت به في طفولتها من الهدوء والسكون ، وقد تزوجت وفق ما جاء في كتاب ابن الجوزي من عبد الله بن عثمان بن حكيم ، بعد وفاة ابن عمها عبد الله بن الحسن بن علي والذي قتل بالطائف ، قبل أن يدخل بها ، ثم تزوجها مصعب بن الزبير وقد أمهرها ألف درهم ، على أغلب الروايات باعتباره أول أزواجها وكانت آنذاك في سن العشرين .

وظلت سكينة في بيت زوجها مصعب الذي كان يتولى إمارة العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير ، حتى إذا ما استقامت لها الحياة قليلاً بعد هول الأحزان التي تولدت بداخلها على إثر مقتل أبيها الإمام الحسين ، روعت من جديد بنبأ مصرع زوجها مصعب في صراعه مع عبد الملك بن مروان ، وقد أنجبت منه فتاة جميلة أسمتها الرباب على ا سم أمها .

هذه الفتاة كان من نصيبها أن تزوجت عثمان بن عروة ابن عمها ، وتؤكد المصادر أنه السيدة سكينة رضي الله عنها وأرضاها قد ظلت بلا زواج بعد مصرع زوجها مصعب بن الزبير حتى تزوجها الأصبع بن عبد العزيز بن مروان وكان آنذاك واليًا على مصر .

وهناك بعض المصادر التي شككت في هذا الزواج ، وذكرت أن السيدة سكينة قد تزوجت بعد وفاة مصعب بن الزبير مرتين ، كان أخرها من زيد بن عمرو العثماني والذي لم تطل العشرة معه

(١) سكينة بنت الحسين - د. بنت الشاطئ .

فطلقت منه ، وظلت بعد ذلك في حالة انقطاع لعبادة الله وبر الفقراء والمساكين حتى توفاها الله واختارها إلى جواره تعالى في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول عام (١١٧هـ) وعمرها سبعون عامًا[١] .

ويقول الكاتب حمزة النشرتي فيما سطره عن السيدة سكينة أنه حين نقرأ كتاب "الأغاني" وغيره من كتب الأدب نعثر على صفحات متعددة تتحدث عن شخصية هذه السيدة العظيمة ودورها في حياتنا الأدبية حيث كانت شاعرة وناقدة ، ومن ثم كانت تستقبل في بيتها الشعراء تحكم بينهم وتفاضل بين أشعارهم .

ويرجع ذلك وفق ما أكده اليافعي في كتابه "مرآة الجنان" إلى أنها كانت تجذل العطايا للعديد من أرباب الأدب ، حتى أصبح بيتها قبلة لطلاب الحاجة وقد ارتوت من ينابيع الثقافة الإسلامية وفي كل فروع المعرفة وعلى وجه الخصوص ما يتعلق منه بالشعر وتذوقه وأشكاله وكذلك أشهر الشعراء ، مثل جرير وغيره .

ولقد أفردت لها كتب تاريخ الأدب صفحات عديدة كي تتحدث عن ريادتها في نقد الشعر مما يدل على معرفتها ببواطن المعاني .

•••

ومما لاحظناه في المصادر خاصة ما كتب في كتب السيرة والتراجم أن هناك خلافًا كبيرًا حول المكان الذي دُفنت فيه ، وكان السبب في إثارة هذه الخلافات هو وجود مسجد باسمها في مصر والمعروف باسم مسجد السيدة سكينة .

فنجد مثلاً أن الشيخ محمد عثمان يقول في كتابه في" البيت النبوي الكريم" إن السيدة سكينة دفنت على أرجح الأقوال في البقيع ، وهو يشير كذلك في الكتاب نفسه إلى أنه جاء في طبقات الشعراني أنها مدفونة بالمراغة بالقرب من مدفن السيدة نفيسة ، وأن شهرة السيدة سكينة قد انتقلت منها إلى السيدة نفيسة .

---

(١) في البيت النبوي الكريم - مصدر سابق .

في حين يقول أبو الفرج في كتابه "الأغاني" أنها ماتت وعلى المدينة خالد بن عبد الملك ، فأرسلوا إليه فآذنوه بالجنازة ، وذلك في أول النهار ، وكان يومًا شديد الحرارة ، فأرسل إليهم ، لاتحدثوا حدثًا حتى أحضر فأشارك في الصلاة عليها فوضُع النعش في موضع المصلى على الجنائز وجلسوا ينتظرون حتى حان الظهر فأرسلوا إليه فقال : لا تحدثوا شيئًا حتى أحضر ، فجاءت صلاة العصر ، ثم لم يزالوا ينتظرونه وكلما كانوا يرسلون إليه ، فلا يأذن لهم حتى صُليت العتمة (المغرب) ، ومكث الناس جلوسًا حتى غلبهم النعاس فقاموا فأقبلوا يصلون عليها جمعًا .. جمعًا وينصرفون ، فلما صلوا الصبح أرسل إليهم خالد : صلوا عليها وادفنوها فصلى عليها "شيبة بن النطاح" .

ويورد لنا حمزة النشرتي رواية تقريبية حلاً لهذا الخلاف في رده على سؤال عمن تكون السيدة سكينة والتي يوجد ضريحها ومسجدها في مصر ؟

وفي إجابته على هذا السؤال قال : لقد أزال السخاوي في كتابه "تحفة الأحباب" هذا الإبهام عندما قال : إن السيدة سكينة التي بمصر هى السيدة سكينة بنت الإمام علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب .

وبدون الدخول في تفاصيل أكثر عن هذا الخلاف نقول إن هذه السيدة الطاهرة سواء هى ابنة الإمام الحسين ، والتي شرفت أرض مصر بوجودها فوق ترابها أو تحته أو هى ابنة الإمام علي زين العابدين فإنهما من آل البيت الطيبين ، وبالتالي فعلينا ومنذ هذه اللحظة إفساح المجال لحديث آخر عن مسجدها الذي يرتاده المسلمون تبركًا بها وبجدها الكريم رسولنا ﷺ .

وهناك أيضًا من المصادر الحديثة والقديمة التي تحدثت عن هذا المسجد وموقعه ونشأته وتطوره.

ولقد سبق لنا في كتابنا "مقابر المشاهير من آل البيت" أن أفردنا صفحات كثيرة عن هذا المسجد، ومما قيل في هذا السياق أن علي باشا إبراهيم قد ذكر في خططه أنه أقيم بحي الخليفة عن شمال الذاهب إلى القرافة الصغرى ، وكان في بدايته زاوية صغيرة ، ثم ألحق بالضريح مسجدًا أقامه عبد الرحمن كتخدا في عام ١١٧٤م ، ثم أجرى فيه عباس باشا تعديلات كثيرة كان منها أن أصبح له ثلاثة أبواب غير الميضأة واثنان على الشارع مكتوب على وجه أحدهما :

حــرم بـه بنـت الحـسين بسكينة تصب المواهب كلها

وعلى وجهه الآخر :

ذا مسجـد يا آل طـه مـؤرخ　　شمس هدى بنت الحسين سكينة

أما الثالث فهو باب المقبول في الجهة القبلية ، ويفتح على درب الأكراد ومكتوب عليه :

لك مظهر بنت الحسين مؤرخ　　لهم ههنا التابوت فيه سكينـة

وهذا المسجد تقام فيـه الشعائر ويشتمل على ستة أعمدة من الرخـام ومنبر من الخشب الجيد ، وفـيه خلوتـان يسكنهمـا الخـدم ومدفن قـديم لصـاحب البـحر وأخـيـه صاحب النهـر الحنفـيين المشهورين، وبجوار القبة شباك مطل على ضريح السيدة سكينة رضي الله عنها[(١)] .

من ناحية أخرى أكدت الدكـتور سعاد ماهر في كتابها مساجد مـصر وأولياؤها الصالحون أن مسجد السـيدة سكينة يرجع إنشائه إلى عهد عـبد الرحمن كتخدا عـام ١١٧٣هـ . ثم جددته بعد ذلك وزارة الأوقاف في القـرن الثالث الهـجري ، وعلى باب المقـصورة النحاسـية لوحـة تذكارية مؤرخة بسنة ١٢٦٦هـ .

وكما ذكـرنا من قبل فإن هذا المسجد منسـوب إلى السيدة نفيسـة إبنة الإمام الحسين رضي الله عنهمـا وبالتالي فقد أصبـح مقصـدًا لكثير من الزائرين لأداء الشـعائر فيه والتـبرك بصاحبـة المقام وقراءة الفاتحة على روحها .

•• السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الحسين :

تعتبر السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الحسين رضي الله عنهم وعنا جميعًا . من بين الجيل الثاني لآل البيت من الذين وفدوا إلـى مصر وأقاموا بها ، إذ تـعتبر أن أول هذه الأجيـال ممثلة في السيدة زينب ابنة الإمـام علي رضي الله عنه وكذلـك أختـها السـيدة رقـية . ثم السـيدة سكينة ابنة الإمـام الحسين والتي تنتمي إلى الجيل الثاني أيضًا .

ولقد أثيـر حول وصولها إلى مـصر خلافات كـثيرة مثل أخـتها السيـدة سكينة .. وسبب هذه الخلافـات أن هناك من المصـادر التي أكدت أنهـا دفنت في البقـيع بعد أن عـاشت ما تقـارب من سبعين عامًا ، في حين يوجد مسجد بإسمها في مصر .

---

(١) علي مبارك ، الخطوط التوفيقية جـ (٥) .

والدكتورة سعاد ماهر أستاذة علم الآثار الإسلامية قد حاولت من جانبها حل هذا الإشكال إذا اعتبرن أن هناك ما يسمى بمساجد أو مقامات أو مشاهد الرؤيا ، وربما وجود هذين المسجدين سواء بالنسبة للسيدة سكينة أو للسيدة فاطمة الزهراء ، كان وراء إقامتهما إحدى الرؤى المنامية لهذه الشخصية أو تلك .

ولكنني في واقع الأمر أعتبر أن هذا المخرج لا يحل هذا الإشكال ، نظرًا لوجود مصادر تاريخية أخرى أكدت على وجود هاتين السيدتين الطاهرتين في مصر .

ولقد سبق لنا الإشارة إلى ذلك عندما تحدثنا عن مسجد السيدة سكينة رضي الله عنها.

وعلى أية حال فلن نسبق الأحداث ، ونبدأ رحلتنا مع سيرة هذه السيدة الطاهرة ببيان ما ارتبط بمولدها وحسبها ونسبها وظروف معيشتها التي ربما نتبين منها ما ارتبط بوجودها جسدًا طاهرًا في مصر حيث قال عنها ابن حجر العسقلاني في كتابه «تهذيب التهذيب» : إنها سيدة سيدات عصرها ، جليلة القدر ، رفيعة المنزلة ، والمعروفة برجاحة عقلها ورزانته ، إنها فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب .. المدينة النيرة القريبة الشبه بجدتها البتول فاطمة الزهراء في جودها وجلدها وتدينها ، فكانت إلى الزهادة والبعد عن الزخارف أميل [1] .

ولقد أسعدها حظها بأن يكون جدها لأمها هو طلحة بن عبيد الله القرشي أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وبذلك فقد جمعت في حياتها محاسن كثيرة تجلت في هذه العترة الطيبة التي لم تتوقف عند حد بعينه ، إذ أن جدها الأكبر هو رسولنا الكريم ﷺ ، وجدها لأمها أم إسحق هو ذلك الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله القرشي .

ولدت السيدة فاطمة النبوية بالمدينة المنورة في حوالي عام ٤٥هـ ، وقبل أختها السيدة سكينة بنحو سنتين ، وقد نشأت وترعرعت في حجر والدها الإمام الحسين ، فسلكت طريقه القويم ، واقتبست منه الصلاح والتقوى والخلق العظيم .

ولما بلغت مبلغ النساء .. تزوجت من ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي رضى الله عنه وعن تفاصيل ذلك يقول ابن الجوزي في كتابه "أحكام النساء" : وقد تزوجت فاطمة بنت الحسين ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي ، وذلك أنه كتب إلى عمه الحسين ، فقال : يا ابن أخي انتظرت

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب .

هذا منك ، انطلق معي . فخرج معه حتى أدخله منزله ثم أخرج إليه ابنتيه فاطمة وسكينة فقال : اختر ، فاختار الحسن المثني فاطمة فزوجه إياها[1] .

ولقد أثمر هذا الزواج الطاهر عن إنجاب طفلين هما عبد الله وإبراهيم ، وتذكر المصادر أنه لما توفي زوجها الحسن المثني وكان عمره ٨٥ عامًا تزوجت من عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وتحت إلحاح أمها ، إذ كانت فاطمة النبوية قد عقدت العزم ، بل وأعلنت في مرض زوجها الحسن المثني أنها لن تتزوج من بعده .

ومما يذكره التاريخ عن هذه السيدة الطاهرة أنها كانت من بين أسرة الإمام الحسين التي حضرت وقائع كربلاء واستشهاده فيها ، وقد اشتهرت هي الأخرى بالأعمال الخيرية والتقرب إلى الله بقيام الليل وصوم النهار حتى اختارها رب العالمين إلى جواره في عام ١١٠هـ ، ودفنت بالبقيع.

وهنا ينشأ خلاف آخر بين المؤرخين وكتاب السير حول وجود مسجد باسمها في مصر ، كواحدة من آل البيت الكرام ، وربما ارتباطها بعمتها السيدة زينب رضي الله عنها والتي تولت تربيتها بعد رحيل الإمام الحسين وكذلك حضورها معركة كربلاء وكونها كانت من السبايا اللائي تم ترحيلهن إلى المدينة ثم خروجهن إلى مصر ؛ كان هو السبب الرئيسي وراء نشوء هذا الخلاف، وكذلك نجد أن هناك من المؤرخين الذين أكدوا على وجودها على أرض مصر .. بل وأنها قد عاشت فوق هذه الأرض الطيبة بجوار عمتها السيدة زينب وأختها السيدة سكينة ، ومن هؤلاء العلامة الأجهوري والذي ذكر في كتابه "مشارق الأنوار" أن السيدة فاطمة ابنة الإمام الحسين رضي الله عنه وعنها مدفونة خلف الدرب الأحمر بزقاق يعرف باسم فاطمة النبوية ، في مسجدها الجليل ومقامها العظيم ، وعليه من المهابة والجلال والوقار ما يسر قلوب الناظرين . أما ما اشتهر من أن السيدة فاطمة النبوية مدفونة في درب سعادة فهو غير صحيح.

وأضاف الأجهوري فيما قاله عن هذه السيدة الطاهرة وتعليقًا على ما أشار إليه آنفًا : وعلى تقرير صحة ذلك يحتمل أن يكون معبدها ، ويحتمل أن يكون لفاطمة النبوية الأخرى من آل البيت أيضًا ، وكذلك أكد على وجودها في مصر الشيخ الصبان الذي قال : إن ضريحها موجود

---

(١) ابن الجوزي – أحكام النساء .

بمصر وفي الموضع الموجود به حاليًا ، وأضاف أنه بعد فترة زمنية غير معروفة ألحق بضريحها المسجد الموجود حاليًا والمعروف باسم مسجد فاطمة النبوية بالدرب الأحمر ، وقد أنشئ في عام ٢٦٦هـ ، في الجهة القبلية للضريح .

كما ركُب في العام نفسه على الضريح مقصورة نحاسية في غاية الروعة ، وفي عام ١٩٣٠م تم تجديد محراب المسجد ، ثم توالت بعد ذلك عمليات تجديده المستمرة حتى أصبح على ما هو عليه الآن .

•• السيدة نفيسة ابنة الحسن الأنور:

ونصل بحديثنا هذا عن آل البيت وحفيدات النبي الكريم من اللاتي أقمن بمصر - إلى الجيل الثالث والذي نراه ممثلاً بصدق في السيدة نفيسة ابنة الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

ثم يشاركها في هذا الجيل أيضًا السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم أجمعين .

ولسوف نخصص حديثنا القادم عن السيدة نفيسة رضي الله عنها وكذلك عن مسجدها الموجود في القاهرة ضمن مساجد آل البيت الطيبين .

ومثلما فعلنا من قبل فإن رحلتنا هذه تبدأ بالبحث عن مولدها ونشأتها ومواقفها ، وصولاً للحديث عن مرقدها ومسجدها أيضًا .

ولقد رأينا من قبل تحقيق هذه الخطوة ضرورة الحديث أيضًا عما اشتهرت به من ألقاب كثيرة فرضت نفسها على سيرتها المكتوبة في التاريخ الإسلامي .

ولقد تحدث عن هذه الألقاب توفيق أبو علم في كتابه الهام والقيم والذي أصدره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومما ذكره في هذا السياق قوله : إنها نفيسة الدارين ، نفيسة العلم ، نفيسة العابدة ، نفيسة المصريين[(١)] .

ليس ذلك فقط ، بل وشمل حديث الصفات والألقاب قوله إنها أيضًا كانت سيدة أهل

(١) السيدة نفيسة - توفيق أبو علم .

الفتوى والتصريف والسيدة الشريفة العلوية وصاحبة الكرامات الطاهرة الوفيرة والمناقب الفاخرة وأم العواجز والسيدة المرضية ومشبعة المحروم .

ويتطرق صاحب كتاب "السيدة نفيسة" إلى قول المزيد تفسيراً لما سبق وأشار إليه من ألقاب اشتهرت بها هذه السيدة الطاهرة فهي على سبيل المثال نفيسة الدارين : لعوارفها وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها ، وهى نفيسة العلم لما استنبطته من ذخائر العلم واستجلته من غوامضه وما نشرته على طالب الاستفادة منها .

ويستشهد بعض المؤرخين على ما اتصفت به السيدة نفيسة إلى نجاحها في تعلم القراءة والكتابة وهي لم تبلغ السابعة من عمرها بعد ، وقد ساعدها ذلك أيضًا على أن تحفظ القرآن الكريم في هذه السن المبكرة .

أما عن حيث مولدها ونشأتها فهناك إجماع بين كل المصادر التي تحدثت عن سيرتها بأنها ولدت رضي الله عنها في مكة المكرمة وفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة هجرية .

وما أن بدت إشراقتها وظهر ضياؤها في الحياة حتى فرحت بها أمها واستبشر بها أبوها ، وزاد سروره عندما اكتشف وفق ما أشارت إليه معظم المصادر في سيمها شبهًا عظيمًا بأخته وعمتها السيدة نفيسة بنت زيد ، وهى التي تزوجها الوليد بن عبد الملك فاختار لها أبوها اسم عمتها لنفاستها .

ثم انتقلت السيدة نفيسة للعيش في المدينة المنورة بعدما انتقل إليها أبوها الحسن الأنور مع بقية أسرته ، وذلك بعد أن وثق فيه الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور وبالتالي عينه واليًا على مدينة رسول الله ﷺ .

وظل والدها يوالي العمل بما كُلف به من دون ملل لمدة خمس سنوات ، إلا أن قرناء السوء دسوا له عند المنصور والذي ما لبث أن غضب على الحسن وعزله وصادر كل ما كان يملك وأودعه سجون بغداد[1] .

---

(١) ابن خلكان ـ وفيات الأعيان .

ويؤكد ابن خلكان فيما رواه عن والد السيدة نفيسة أنه قد ظل سجين بغداد حتى عرف بأمره الخليفة الجديد فأطلق سراحه وأعاد إليه كل ما كان يملكه .

وكانت ابنته السيدة نفيسة في سنوات سجن أبيها تطيل من أمر عبادتها حتى فك الله سجنه وقد أخذها لتؤدي فريضة الحج في سنوات متعاقبة . وفي البيت الحرام كانت تكثر من صلوات الشكر لما أنعم الله عليها وعلى والدها[(١)] .

والمشهور في الروايات أن الحسن الأنور والد السيدة نفيسة قد ظل يعيش في بغداد حتى زمن الخليفة العباسي المأمون الذي استأذنه في اصطحاب ابنته نفيسة لزيارة مصر عام ١٩٣هـ ، وبعد أشهر قليلة من مقدمه إلى الفسطاط توفي ودفن في شرقي مدينة مصر[(٢)] .

ليس ذلك فقط بل وأكد الشعراني فيما كتبه أيضًا أن قبر حسن الأنور موجود حاليًا في مصر ومسجده يزار وتقام فيه الصلوات ، هذا المسجد الذي أقامه الأمير عبد الرحمن كتخدا عام ٢١٢هـ .

ولما بلغت السيدة نفيسة مبلغ النساء خطبها من أبيها كثيرون من الأشراف لصلاحها وتقواها ومنزلتها باعتبارها من آل البيت الكرام ، ومع ذلك لم يفز بها زوجة إلا إسحق المؤتمن بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم جميعًا .

إذن هى وزوجها أبناء عموم لأن نسبها ينتهي إلى الإمام الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب ، وزوجها أيضًا ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه .

وتم هذا الزواج في اليوم الخامس من شهر رجب من عام ١٦١هـ ، وكان عمرها آنذاك ستة عشر عامًا ، ومن ثم رزقت منه بمولود أسموه القاسم وابنة أسموها أم كلثوم .

وبطبيعة الحال فقد لاحظنا خلافًا كبيرًا بين المؤرخين حول توقيت زيارتها لمصر ، بل وأسباب اختيارها لمصر كدار لها بعد رحيلها من المدينة المنورة .

---

(١) أهل بيت النبوة سير وقضايا – مصدر سابق .

(٢) طبقات الشعراني ج٢ .

وممن تحدثوا عن زيارتها لمصر واختيارها مقر إقامة لها بعد مكة والمدينة المنورة هو اليافعي في كتابه "مرآة الجنان " والذي أشار فيما كتبه إلى أن السيدة نفيسة قدمت إلى مصر عام ١٩٣هـ مع زوجها إسحق المؤتمن وأبيها الحسن الأنور ، وذلك بعد أن أتموا الحج ، ثم ذهبوا إلى فلسطين لزيارة المسجد الأقصى ، وعاشوا هناك أيامًا في رحاب الحرم ا لقدسي .

ويؤكد اليافعي في كتابه "مرآة الجنان" أيضًا أنه داخل الحرم الإبراهيمي تاقت نفسها الصافية لزيارة مصر فصحت عزيمتها على العيش في ظلالها لسنوات ، لأنها عرفت أن مصر حرمًا آمنًا يلوذ به العائذ في دفع كل خطب مهول .

وهناك من المصادر الأخرى التي نقلت إلينا مظاهر استقبال السيدة نفيسة عندما جاءت إلى مصر ، مثلما حدث بالتمام والكمال مع عمتها السيدة زينب رضي الله عنها عند مقدمها إلى مصر لأول مرة .

وممن أشاروا إلى هذه المظاهر الاحتفالية الإمام السيوطي في كتابه "حسن الحاضرة" . الذي قال: أنه عندما علم أعيان هذا البلد الأمين بمقدم السيدة نفيسة رضي الله عنها خرجوا كي يستقبلوها عند مدينة العريش حتى وصلت إلى مدينة الفسطاط عاصمة مصر آنذاك .

وتؤكد هذه المصادر ومنها السيوطي أيضًا أنها وصلت إلى مصر في شهر رمضان من عام ١٩٣هـ فدعاها كبير تجار مصر وهو جمال الدين عبدالله الجصاص ؛ للنزول بداره في الفسطاط ، فلبت دعوته وأقامت بداره فترة كان يتردد على زيارتها خلق كبير من المصريين ، مما أدى إلى ازدحام دارها بهؤلاء الزوار ، الأمر الذي دعاها إلى الانتقال إلى دار أخرى خاصة بها في حارة خلف مسجد شجرة الدر بشارع الخليفة والمعروفة الآن باسم الحسينية .

وربما جاءت هذه التسمية تبركًا من اسم نفيسة ابنة الحسن الأنور ، ولما عرف بذلك والي مصر في ذلك الوقت وهو السري بن تميم أهداها دارًا أخرى انتقلت للعيش بها حتى دفنت بها وهو المكان الموجود به مسجدها الآن في درب السباع ، كما نظم زيارتها من جانب المصريين فقصرها على يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع كي تتفرغ للعبادة .

وتذكر المصادر نفسها في السياق ذاته أن بيوتها قد تحولت إلى مأوى للفقراء والمرضى

والمجذومين والخائفين الذين يطلبون دعواتها ، فكانت ذات مال وإحسان وهي لم تكن ترد يدًا امتدت إليها في حاجة أو معونة[1] .

وأكثر من ذلك فقد شهدت دارها لقاءات علمية كثيرة ترجمتها في حلقتها المشهورة والتي كانت تعقدها في مسجد عمرو بن العاص ، وكان يحضرها الرجال والنساء.

ويؤكد الشعراني فيما كتبه أن هذه الحلقة العلمية التي اشتهرت بها السيدة نفيسة في الجامع العتيق بالفسطاط كانت تدور على عدة أعمدة .

وهناك من الصفات الأخرى التي فازت بها هذه السيدة الطاهرة من غير ما أشرنا إليه آنفًا .. إذ اعتبرها العديد من المؤرخين في طليعة النساء المتصوفات المتعلقات بنور الله ، وهناك أيضًا من يقول في هذا السياق إن الإمام الشافعي كان من زوارها في بيتها وقد سمع منها الحديث وصلى بها التراويح في شهر رمضان . وكان إذا ما أصابه مرض وتعذر عليه زيارتها أرسل إليها من يبلغها تحياته ويسألها الدعاء له بالشفاء .

وفي آخر مرة مرض فيها هذا الإمام الجليل بعث إليها برسوله يطلب منها الدعاء له بالشفاء كالمعتاد .. فأخبرت هذا الرسول بقولها : أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إلى وجهه الكريم ، فلما عاد إليه رسوله وأخبره بما قالته ، عرف الإمام الشافعي قرب لحاقه بالرفيق الأعلى ، وبالتالي فقد أوصى أن تصلي عليه السيدة نفيسة صلاة الجنازة ، وقد اختاره رب العالمين إلى جواره في آخر شهر رجب عام ٢٠٤هجرية ونفذت وصيته وحمل نعشه الطاهر إلى دارها ، فصلت عليه صلاة الجنازة .

ويحكي لنا الشيخ محمد عثمان فيما كتبه عن آل البيت أيضًا أن السيدة نفيسة رضي الله عنها قد ظلت تقيم بمصر وسط تكريم أهلها وتعلقهم بها وحبهم لها حتى أحست بدنو أجلها فحفرت في دارها قبرًا بنفسها ولنفسها ، ثم كتبت إلى زوجها إسحق المؤتمن بالحضور إليها من المدينة المنورة ومعه ولدهما القاسم وابنتهما أم كلثوم .

وفي ليلة من ليالي النصف الأول من شهر رمضان من عام ٢٠٨ هجرية اشتد عليها المرض وكانت صائمة فطُلب إليها أن تفطر فرفضت لأنها أخذت تدعو الله ثلاثين عامًا لكي يقبض روحها وهي صائمة .

(١) لواقح الأنوار – الإمام الشعراني .

وفعلاً توفيت على ما كانت عليه ، عندئذ طلب زوجها أن ينقل جثمانها الطاهر في تابوت إلى المدينة كي تدفن هناك مع باقي أهلها في البقيع فعارضه أهل مصر وتمسكوا بدفنها في القبر الذي كانت قد حفرته بنفسها لنفسها ، وبالفعل تم لهم ذلك ، فواصلت بقاؤها في مصر ولكن هذه المرة تحت ثراها ، وبالتالي عاد زوجها وأولادها إلى المدينة المنورة بدون جسدها الطاهر .

ولقد استمر احتفال المصريون بهذه السيدة الطاهرة حتى بعد وفاتها وتجلى ذلك في عدة مظاهر كان من أهمها تحويل مرقدها ومقامها إلى مسجد ظل محط أنظار واهتمام كل المصريين وفي كل العصور .

ليس ذلك فقط ، بل وحرص المصريون على إحياء ذكراها سنويًا ، وفاء لما قدمته سواء للعلم والعلماء أو للمساكين وأصحاب الحاجات .

ونظرًا لمقدار وقيمة هذه السيدة الطاهرة والذي ذاع صيتها لأعمالها الخيرية الكثيرة باعتبارها إحدى حفيدات آل البيت ، فقد اهتم المؤرخون بها وبمسجدها وتاريخ إنشائه وما جرى عليه من إضافات وتعديلات .

فنرى على سبيل ا لمثال المقريزي شيخ المؤرخين يتحدث عن ضريحها في كتابه الخطط . مؤكداً على أن أول من بنى على قبرها هو عبد الله بن السري بن الحكم والي مصر من قبل الدولة الأموية. ثم أعيد بناء هذا الضريح في عهد الدولة الفاطمية بعدما أقيمت فوقه قبة .

كما تم تدوين تاريخ عمارته على لوحة من الرخام وضعت على باب الضريح كتب فوقها «نصر من الله وفتح مبين لعبد الله ووليه معد بن تيميم الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين .. أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الأنام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أمتع بطول بقائه المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وشد عضده بولده الأجل سيف الإمام جلال الإسلام شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين زاد الله في علاه وأمتع المؤمنين بطول بقائه في شهر ربيع الآخر سنةاثنتين وثمانين وأربعمائة» .

واستمر اهتمام الحكام بهذا المسجد وتعميره وتجديده ، ففي عهد الخليفة ا لفاطمي الحافظ لدين الله حدث تصدع لقبة المشهد النفيس فجددها ، كما كسى المحراب بالرخام .. وكان ذلك في عام اثنتين وثلاثين وخمسمائة .

ثم ذكر الإمام السخاوي في كتابه المزارات أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد أمر عام في ٧٥٢ هجرية أن يتولى النظارة على المشهد النفيس الخلفاء العباسيون وأن أول من تولاه من هؤلاء هو الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر المستكفي بالله .

ثم يقول الجبرتي عن تطور بنائه وتوسعة مسجد السيدة نفيسة أن الأمير عبد الرحمن كتخدا قد عمر المشهد النفيسي ومسجدها ، ثم بنى الضريح ، وجعل للنساء أثناء زيارتهن لها طريقًا بخلاف طريق الرجال .

وفي عام ٧٧٠ هجرية أقام والي مصر "علي باشا الحكيم" بوابة على مساحة من الأرض الفضاء أمام المسجد ، هذه البوابة ما زالت موجودة إلى الآن .

ولما تعرض هذا المسجد في عام ١٣١٠ هجرية لحريق أتلف النصف الشرقي منه ، أمر الخديوي عباس حلمي الثاني بإعادة بناء الضريح والمسجد ، وقد حرص على افتتاحه بنفسه ، وصلى فيه صلاة الجمعة . أما المقصورة النحاسية والموجودة حاليًا فيرجع تاريخها إلى عصر عباس حلمي باشا أيضًا .

ونظرًا لأهمية هذا المسجد والذي استمد قيمته وتاريخه من قيمة السيدة الطاهرة نفيسة فقد خصص علي باشا مبارك جزءًا كبيرًا للحديث عن الضريح والمسجد ، كما وصفه وصفًا دقيقًا .

ثم تواصل الاهتمام بالمسجد والضريح حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، من شكل معماري متميز بل ويضاف إليه تحسينات كل عام .

•• السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق :

ولعله ختام مسك عبر رحلتنا والتي بدأناها بالحديث عن حفيدات آل البيت ، عندما نتوقف في نهاية هذه الرحلة أمام ضريح السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين رضي الله عنهم أجمعين .

هذه السيدة الطاهرة التي تمثل بالنسبة لنا أيضًا وفوق هذه الأوراق آخر من يمثلون الجيل الثالث ممن وفدوا أو وفدن إلى مصر من آل البيت النبوي الكريم.

وهى بلا شك سيدة فاضلة قد اختارت هى الأخرى مصر كي تقيم بها حتى توفاها الله ودفنت حيث كانت تقيم.

وبعد مرور عدة سنوات تحول بيتها وضريحها إلى مسجد ألحق بهذا الضريح مثلما كان مع غيرها من حفيدات آل البيت وكما مر علينا منذ لحظات .

ومما تشير إليه المصادر الخاصة بمولدها ونشأتها ونسبها .. أنها هى أخت إسحق المؤتمن زوج السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وكانت تعرف باسم "أم فروة" مثل كنية جدتها لأبيها .

أما أمها فكانت تدعى حميدة البربرية ، وهناك من المؤرخين الذين أكدوا فيما كتبوه على أن السيدة عائشة قد أقامت في مصر ودفنت بها عندما توفيت في عام ١٤٥ هجرية وأقيم ضريحها بجوار المسجد المعروف باسمها أيضًا والذي يقع في حي الخليفة ، بل ويوجد بالقاهرة الآن حي كبير يحمل اسمها وكذلك ميدان كبير يطل عليه الآن مسجدها ، هذا المسجد الذي أنشئ في عام ١١٧٦ هـ على يد الأمير عبد الرحمن كتخدا ، وتم هدمه مرة أخرى في عام ١٩٧٠م ثم أعيد بناؤه على الطراز الحديث وما هو عليه الآن .

وبفضل الله وتوفيقه فقد تناولنا بالتفصيل كل ما يخص السيدة عائشة في كتابي عن "مقابر المشاهير من آل البيت والصحابة والعلماء" .

ولسوف نحاول اختيار بعض الذي قلناه عنها كي نستكمل التبرك بسيرة آل البيت الكرام من حفيدات نبينا ﷺ .

لقد جاءت السيدة عائشة ابنة الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين إلى مصر في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، فرارًا من بطشه ، وقد سبقها إلى هذه الرحلة معظم آل البيت من الذين فروا إلى المغرب طلبًا للأمن والأمان . وكان في صحبتها في رحلتها إلى مصر إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب [(١)] .

وكعادة أهل مصر من الذين رحبوا بمقدم آل البيت ، فقد لاقت أيضًا السيدة عائشة الحفاوة نفسها عندما علموا بمقدمها .

وفي مصر عاشت السيدة عائشة رضي الله عنها في زهد وانقطاع في عبادة رب العالمين ، وكانت تدرك تمامًا أن الخوف من الله يعني الهروب إليه .

---

(١) مقابر المشاهير من آل البيت – المؤلف .

ولما توفيت في عـام ١٤٥ هجرية وفق مـا ذكره الإمام السـخاوي في كتـابه "تحفة الأحـباب"، دفنت حيث كانت تقيم في المكان نفسه الذي يوجد فيه ضريحها الآن .

وأكد السـخاوي أنه رأى قبر السـيدة عائشة وقـد ثبت به لوح رخامي مكتوب عليه : هـذا قبر السيـدة الشريفـة عائشـة من أولاد جعـفر الصـادق ابن الإمام مـحمد الـباقر ابن الإمـام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب .

ولقد أجمعت المصادر أن أخص ما كانت تتصف به السيدة عائشة هو الورع والتقوى ، وظلت على هذه الصفات حتى بعد وصولها إلى مصر .

ومما لاحظناه في البحث عـما دون بشأن سيـرة السيدة عائشـة .. أن هذه المدونات كانت قليلة بالقيـاس بغيرها من حفـيدات آل البيت وربما ذلك كـان مرجعه إلى حـياتها القصـيرة إذ لـم تعش سوى عشرين عامًا فقط .

أما فيما يخص وصف ضريحها فقد أشار العلامة شمس الدين بن محمد في كتابه "الكواكب السيـارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والـصغرى" ، إلى ضريح السـيدة عائشة كـما أكد الشعراني أن أستاذه علي الخواص أخبره بأن السيدة عائشة رضي الله عنها دفنت بباب القرافة بحي الرميلة بالقلعـة ، وأنها دفنت في الدار التي كانت تقيم بـها عندما قدمت إلى مـصر ، وكانت هذه الدار تقع في الطريق الموصل إلى جبل المقطم ناحية القلعة ، وهو مكان ضريحها ومسجدها اليوم.

هذا الضريح الذي كان في البداية مزارًا صغيـرًا وظل كذلك حتى القرن السادس الهجري ، إذ كان عبارة عن حجرة مربعة الشكل تعلوها قبة وترتكز على صفين من المقرنصات .

وذكرها أيضًا علي باشا مبارك في خططه ، وقـال عن الضريح وعن المسجد : إنه يوجد خارج ميدان محمـد علي بالقرب من قرة ميدان شمال الذاهب إلى القرافـة الصغرى من بوابة حجاج في خط يعرف بها الآن الضريح أو المقبرة والمسجد يتبع الآن حي الخليفة .

كمـا تحدثت مصادر التـاريخ أن كل من الفاطميين والأيوبيين قـد اهتموا بهذا الضـريح ، وقد أنشأوا بجوار قبرها مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم .

وحتى عندمـا أحاط صـلاح الدين عواصم مصـر الإسلامـية الأربع وهى الفسطـاط والعسكر

والقطائع ثم القاهرة بسور ضخم كان طوله ١٥ كيلو متر ، تسبب ذلك في فصل قبة الضريح عن باقي القرافة ، مما جعله يقوم بفتح باب في هذا السور وقد أصبح يعرف باسم باب عائشة ، والمعروف الآن بباب القرافة[(١)] .

ويؤكد عالم الآثار حسن عبد الوهاب أن هناك العشرات من الأدلة التي أثبتت وجود ضريح السيدة عائشة في المكان الموجود به حاليًا ، ومن هذه الأدلة أن ابن الزيات ، وهو خير من ألف من كتب في أعلام القرافتين الكبرى والصغرى أكد هو الآخر عندما ذكر مشاهد باب القرافة أن مشهد السيدة عائشة بالحوامة ولها نسب متصل بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، ثم تبعه السخاوي في كتابه "تحفة الأحباب" والذي قال : إن السيدة عائشة مدفونة بمصر ، وأنه قد عاين قبرها في تربة قديمة على بابها لوح رخامي مدون عليه حسبها ونسبها ، وقد توفيت في عام ١٤٥هـ .

كما ألحق بهذا الضريح مسجد يعرف الآن باسم مسجد السيدة عائشة ، وهو الموجود حاليًا عند بداية الطريق إلى المقطم .

وتقول المصادر أن المسجد القديم قد تهدم ثم أعيد بناؤه لأول مرة على يد الأمير عبد الرحمن كتخدا .

ليس ذلك فقط ، بل إن هذا المسجد قد تم هدمه في عام ١٩٧١م وأعيد بناؤه على ما كان عليه من مساحته التي تبلغ ٦٦٠ مترًا .

---

(١) المصدر السابق .

الفصل الثاني

أحفاد آل البيت

وبالمنهج نفسه الذي سرنا على ضوئه في الفصول السابقة ، سوف نتحدث كذلك عن أحفاد آل بيت رسولنا الكريم من الذين وفدوا إلى مصر .

وكما نعرف فقد كانت معركة كربلاء ومقتل الإمام الحسين هي ذلك الفارق الزمني الذي لعب دوره العظيم في دخول عترة كبيرة من آل البيت إلى مصر .

ولسوف نحاول من قبل الدخول في تفاصيل حديث هؤلاء الأحفاد تاريخيًا وإنسانيًا ومعماريًا، أن نشير إليهم على سبيل الإجمال ، ثم من بعد هذه الخطوة نبدأ في تناول سيرة كل منهم على حدة .

وبالرجوع إلى المصادر التاريخية الموثوق بها فقد اتضح لنا أن شجرة آل البيت فيما يخص الأحفاد والحفيدات والتي نبتت فوق أرض مكة المكرمة قد ازدهرت فوق أرض مصر وكان مصدر بذرتها الطاهرة كل من الإمام الحسين والإمام الحسن وأختهما السيدة زينب .

وفيما يخص الأحفاد من آل البيت من دوحة الأمامين الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فقد أكدت العديد من المصادر أن هؤلاء الأحفاد من آل البيت قد بدأوا رحلتهم إلى مصر أولاً برأس الإمام ا لحسين والذي قتل في معركة كربلاء .

أما ابنه الإمام علي زين العابدين والمسمى بعلي الأصغر فقد رحل إلى المدينة وأقام بها هناك ومن ثم توفي ودفن بالبقيع ، في حين وصل إلى مصر مرة أخرى ومن الجيل الثاني من هؤلاء الأحفاد رأس الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين .

ولدينا في مصر ما يسمى بمشهد الرأس وهو الخاص بهذا الحفيد ، ثم يصل إلى مصر كذلك الحفيد الثالث أو من أحفاد الجيل الثالث للإمام الحسين رضي الله عنه ونعني به الإمام محمد الجعفري حفيد الإمام زين بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين .

هذا فيما يخص الفرع الأول من دوحة أحفاد آل البيت من الذين وفدوا إلى مصر وأصبح لهم أضرحة ومساجد .

وأما ما يتعلق بالفرع الثاني من آل البيت ونقصد به نسل الإمام الحسن وأحفاده ، نجد أن ابنه الحسن المثنى قد عاش ومات في المدينة رغم أننا قد أشرنا عند الحديث عن حفيدات آل البيت أنه جاء إلى مصر مع ابنته ، وربما قد عاد مرة أخرى إلى المدينة فأقام بها حتى توفاهالله ودفن هناك في البقيع ، وبالنسبة لأحفاده الذين أقاموا في مصر فكان منهم عبد الله المحفن وإبراهيم الجواد وحسن الأنور ، ولكل عنهم ضريح ومقام ومسجد تقام فيه الشعائر ويحتفي ويحتفل بالصحابه كل عام وله زواره ومريديه .

ولسوف نبدأ منذ هذه اللحظة حديث التفاصيل عن أحفاد آل البيت من الرجال من الذين وفدوا إلى مصر وأقاموا بها ثم ماتوا على أرضها ودفنوا تحت ثراها .

والبداية هنا لا بد وأن تكون مما اختاره التاريخ لنا ، وهو الحديث عن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب.

•• الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب :

إذا كنت أنا من الذين قد شرفوا بالحديث عن هذا الإمام العابد العادل الجليل الحسين بن علي ابن أبي طالب حفيد رسولنا الكريم ورأس آل بيته الكرام ، فإنني سوف أكون بذلك في ذيل هؤلاء الذين كتبوا عنه سواء من المؤرخين أو من المفكرين والأدباء ، وبالتالي فقد كان علينا أن نبحث عن زوايا جديدة وغير مرئية في حياة هذا الإمام الجليل من أجل أن نقدمها وربما بأسلوب مختلف .

صحيح أنه ليس هناك جديد في سيرته أو في مسيرة حياته فيما تم تناوله من قبل ؛ إلا أن هناك أيضًا وبكل تأكيد زوايا عديدة لم يتم إلقاء الأضواء المبهرة عليها وبالتالي من هنا يزيد دورنا فوق هذه الأوراق ، وأظن أن خير بداية لذلك لا بد وأن تكون مما اختاره الله للإنسان نفسه وفق مجريات حياته التي تبدأ من الطفولة والتي هي مستودع العديد من الأسرار والأخبار أيضًا .

ذلك لأن الحديث عن طفولة هذا الإمام الجليل وما قيل عن هذه الطفولة وبشائر الخير فيها من المؤكد كانت الطريق نحو ما فاز به الإمام الحسين حتى وصل إلى أعتاب الجنة باعتباره وأخيه وفق ما ذكرته كل المصادر من شباب أهل الجنة .

ومن عجيب ما صادفناه من روايات تاريخية هو وجود تلازم في الحديث عن الطفولة والنشأة فيما يخص كل من الإمامين الحسن والحسين ، ولسوف تلاحظون أنتم ذلك أيضًا رغم أننا قد غيرنا موقع الإمام الحسين في حديثنا القادم لأننا أتينا به بعد أخيه الإمام الحسن وبالتالي فسوف نغير مسار الحديث عنه إلى حين ينفرد هو ذاته بأعماله فوق هذه الأوراق .

وعلى سبيل التعريف المبدئي فإن الحسن والحسين هما من أبناء الإمام علي رضي الله عنه من زوجته السيدة فاطمة الزهراء .

وحدث بلا حرج عن هاتين الشخصيتين اللتين لعبتا أدوارًا عظيمة في تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية . فعلي بن أبي طالب وفق ما مر علينا من قبل قد تربى في بيت النبوة حتى صار شابًا يافعًا ، ونراه هنا كان أول صبي يؤمن برسول الله وبرسالة الإسلام ، (ليس ذلك فقط ، بل ونراه كذلك كان أول فدائي في الإسلام ، عندما قبل أن ينام في فراش الرسول الكريم ليلة الهجرة ، وقد تحلى بالشجاعة والفدائية وإنكار الذات .

وهناك غير هذا وذاك أحاديث كثيرة قد اقتربت من شخصية علي بن أبي طالب وزوجته السيدة فاطمة .. أصغر وأحب بنات النبي إليه ، بل وكُتبت فيه وعنه المئات من الكتب سواء في القديم أو في الحديث وربما بالعديد من اللغات .

هذين الحفيدين الكريمين لرسول الله ﷺ وكما أشرنا إلى ذلك من قبل قد ولدا بالمدينة المنورة وجاء ميلاد الأول أوائل العام الثالث للهجرة ، وبعد ذلك بعام تقريبًا جاء الحسين وكان مولده في ليلة الخامس من شعبان وذلك في العام الرابع للهجرة .

وفي اليوم السابع من ولادة كل منهما أمر رسولنا الكريم بختانهما وحلق رأسيهما والتصدق بوزن الشعر فضة وعق عنهما بكبش ، وكانت هذه الاحتفالية الخاصة بمولد هذين الطفلين الكريمين ، قد وضعت أسسًا إسلامية طيبة لكيفية الاحتفال بمقدم أي مولود جديد داخل الأسرة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فقد أظهرت لنا مقدار وقيمة ومنزلة هذين الوليدين داخل نفس رسولنا الكريم ، وكذلك مقدار والديهما أيضًا .

وفي حقيقة الأمر فقد كان الاحتفال بمقدم هذين الحفيدين الجليلين من جانب رسول الله ﷺ هو المعبر الحقيقي لاهتمام هذا الرسول الكريم بهما ومن دون غيرهما من أحفاده عليه السلام .

ولا شك أنه كانت هناك أسباباً كثيرة قد أدت إلى هذه النتيجة وربما كان في مقدمتها ما جاء في هذه الآية الكريمة والتي يقول فيها ربنا تعالى :

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾

(سورة الأحزاب : الآية : ٣٣)

وأغلب المصادر الشيعية قد أكدت على أن رسولنا الكريم قد جمع ابنته فاطمة وولديها الحسن والحسين وتوجه إلى الله يناجيه بقوله الشريف : "هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا" .

وهناك خلافات عديدة بين المؤرخين وكما ذكرنا من قبل عمن هم آل البيت ، وهل يقتصر هؤلاء على أولاد فاطمة وعلي أم يدخل ضمن هذه العترة الشريفة إناس آخرون ، ولقد سبق لنا أن ناقشنا هذه القضية من خلال بيان مختلف الأراء .

ولقد أجمعت كل كتب السيرة وكتب التاريخ على أن كل من الحسن والحسين قد نشأ وتربيا وترعرعا في حضانة إمهما السيدة فاطمة الزهراء وبرعاية جدهما عليه الصلاة والسلام.

وهناك العشرات من الأحاديث النبوية التي أظهرت لنا تلك المنزلة، ونحن هنا نذكر منها على سبيل المثال قول رسولنا الكريم ﷺ : «حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينًا» . وقوله عليه السلام : «أحب أهل بيتي إلي الحسن والحسين» .

وبناء على تلك المنزلة العالية والتي فاز بها كل من هذين الحفيدين وما كان يراه الصحابة الكرام من اهتمام وحب رسول الله تجاههما ، فقد استمرت تلك الحفاوة بهما حتى من بعد رحيله عليه السلام ورحيل إبنته فاطمة ، ففي عهد الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، نالا تكريمًا خاصًا وفي عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أيضًا والذي قيل عنه أنه كان يؤثر هذين الحفيدين وهما غلمان على أبنائه خاصة ابنه عبد الله ، ثم في خلافة عثمان بن عفان وكان كل من الحسن والحسين قد بلغا مبلغ الشباب اليافع لذلك سمح لهما بالانتظام في سلك جيوش المسلمين التي فتحت البلاد شرقًا وغربًا .

ليس ذلك فقط ، بل وانخرط كل منهما في طريق العبادة إلى ا لله ، خاصة الإمام الحسين ، والذي تروى عنه وعن مسلكه روايات تاريخية عديدة ، فإلى جانب تميزه في فنون الحرب

والقتال ،كان كذلك متميزًا في أمور الدين وفي العبادة ، وقد أخذ يحضر مجالس العلم على كبار أعلام الصحابة ونجباء الشعر ، حتى وعت ذاكرته ألوانًا متعددة من العلوم والآداب خاصة التي أخذها عن ابن عبد الرحمن السلمي الضرير مقرئ الكوفة فضلاً عن الأعلام والأقطاب من أمثال عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة وأبي ذر الغفاري وغيرهم [(١)] .

ولقد ظل الإمام الحسين حريصًا على تلقي العلم من صحابة جده رضي الله عنهم جميعًا ، حتى صار له أيضًا مجلس علم خاص به ، كان يتردد عليه عدد كبير من مريديه .

لقد كان مجلس علمه بعدما انضم إليه مصاف العلماء بالمسجد النبوى الشريف يغص بالمنتفعين بعلمه وفضله واجتهاداته الفقهية والأدبية.

وبخلاف ما كان يتمتع به الإمام الحسين من حرفية خاصة ارتبطت بالعلوم وبالفقه ، فكانت محل اهتمام العشرات من المصادر التاريخية ، والتي كانت له أيضًا مآثر عديدة ، خاصة ما ارتبط منها بأخلاقه الطيبة ، إذ كان من أعظم الناس خُلقًا ، ورغم ذلك فقد كان من أعظم الناس تواضعًا. أضف إلى ذلك ما اتصف به من الشجاعة والجرأة إلا على الحق .

وعندما كانت تتقدم به الأيام ويكبر في سنه ، كلما كان يقترب أكثر وأكثر من أحداث سياسية عايشها بجانب أبيه علي رضي الله عنه ، وكان من أهم تلك الأحداث ما نتج عن الخلافات التي أعقبت مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان بشأن من هو صاحب الحق في تولي الخلافة من بعده، وموقف الإمام علي بن أبي طالب والذي يعتبره الكثير من المؤرخين الخليفة الرابع ، رغم ما كان من تعنت معاوية بن أبي سفيان .

وكما يؤكد المؤرخون كذلك وفي السياق نفسه أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان قد استعان بابنه الحسين لمحاربة خصومه فيما سمي بعد ذلك تاريخيًا باسم الفتنة الكبرى ، كما حارب الحسين بجوار أبيه في معاركه الشهيرة كالجمل وصفين والنهروان وغيرهم ، حتى أغتيل أبيه على إثر المؤامرة المعروف تفاصيلها في التاريخ ، وسقط شهيدًا .

ولما نودي بالخليفة الجديد أُخذت البيعة لإبنه الكبير الحسن ، وكان أخوه الحسين في مقدمة من

(١) أهل بيت النبوة - مصدر سابق .

بايعوه بالخلافة ، بل وظل إلى جواره مؤيداً إياه ضد كل أعدائه وخصومه ، حتى تم اغتياله هو الآخر على يد إحدى زوجاته التي دست له السم في طعامه .

إذن نلاحظ هنا أن الإمام الحسين رضي الله عنه وفي هذا المنعطف التاريخي ، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الدخول في المشاكل السياسية الخطيرة والتي بدأت تعصف بالعالم الإسلامي آنذاك .

وكلما كانت تمر الأيام بعد توالي هذه الأحداث كلما ازداد بروز دور الإمام الحسين فيها سواء بإرادته أو رغمًا عنه خاصة فيما أسفرت عنه هذه الأحداث ووقائعها الشهيرة في كتب التاريخ ، وكان من أقصاها وأعظمها حادث كربلاء أو تلك المعركة التي راح ضحيتها الإمام الجليل نفسه .

رغم أن العديد من المؤرخين قد أكدوا فيما سجلوه من تفاصيل لهذه الأحداث أن الحسين بعد مقتل أخيه قد آثر العزلة والابتعاد عن السياسة ، وظل هكذا طيلة حكم معاوية بن أبي سفيان إذ لم يخرج عليه أو يعارضه كخليفة للمسلمين وفق ما تعهد به آنفًا .

وظل على هذه الحالة ماضيًا في الصدق الذي درج عليه رغم محاولات تأليب شيعة العراق من الذين كاتبوه محرضين إياه على خلع معاوية ، واستمر هو على موقفه الرافض لذلك حتى توفي معاوية وكان قد أوصى بابنه يزيد خليفة للمسلمين من بعده !! ، وكانت هذه الفترة هي بداية تغيير طريقة اختيار الحاكم المسلم ، إذ أصبح صاحب هذا الاختيار هو الحاكم نفسه وليس عموم المسلمين كما كان من قبل ، كما أدى ذلك أيضًا إلى اختفاء مبدأ الشورى وحل محله مبدأ الملكية.

وعلى ذلك فقد وجد الإمام الحسين نفسه داخل الساحة السياسية من جديد بعدما كان قد أُبعُد عنها لعدة سنوات ، وقد كان محقًا في ذلك ، لأنه رأى أنه أحق بالخلافة من يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، والذي كان سبيله للفوز بها.. المكر والخديعة .

مما يثير في النفس الحزن و اللوعة أن يزيداً لم يكتف بما قرره أبيه بشأن اختياره لخلافة المسلمين من بعده ، بل وأرسل عامله في المدينة كي يأخذ له بيعة الخلافة من كبار الصحابة هناك وعلى رأسهم الحسين نفسه !! وكان هدفه من ذلك بطبيعة الحال هو إضفاء الشرعية على هذا الاختيار والذي جاء وفقًا لرغبة أبيه وليس لإرادة المسلمين .

من هنا نستطيع أن نؤكد أن الأيام التي تلت هذه الخطوة كانت إيذانًا بما سوف يتعرض له الإمام الحسين من مؤامرات عانى منها من قبله كل من أبيه وأخيه وبسبب مهازل السياسة.

فلقد ذاق هو نفسه مرارة تلك المؤامرات ليس كشاهد عليها أو مشارك فيها فقط مثلما حدث أيام أبيه وأخيه والتي أودت بحياتهما ، بل ذاق منها بعدما أصبح داخل هذه الدائرة نفسها .

وهناك من المؤرخين الذين يؤكدون فيما كتبوه على أن يزيد بن معاوية والذي تولى حكم المسلمين من بعد أبيه معاوية وهو في سن الثانية والثلاثين كان هدفه الأول والأخير هو الحصول على تأييد الحسين بن علي من أجل أن يضمن بقاء حكمه ويعيش آمنًا .

ومما لا شك فيه أن هذه الرغبة كانت تلح عليه لمعرفته بأن الإمام الحسين هو الذي كان أولى منه بهذا المنصب وبالتالي بتولى الخلافة من بعد معاوية ووفقًا لمبادئ الشورى والبيعة الإسلامية المتفق عليها من قبل .

والشيخ محمد عثمان فيما كتبه عن آل البيت يؤكد ذلك إذ نراه يقول : وفي غُرة رجب من سنة ستين للهجرة توفي معاوية بن أبي سفيان وقام بأمر الخلافة من بعده ابنه يزيد وعمره ٣٢ عامًا، ولم يكن هم يزيد إلا الحصول على مبايعة الحسين له بالخلافة فكتب إلى والي المدينة الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان لأن يعمل ما استطاع ليأخذ البيعة له من الحسين .

وبعد محاولات غير مجدية من والي المدينة لتنفيذ ذلك ، رحل الحسين وأهله من المدينة إلى مكة ودخلها في ليلة الجمعة ٣ من شعبان سنة ستين هجرية[(١)] .

وهذا معناه أن الإمام الحسين لم يكن راضيا عما حدث من معاوية تجاه إبنه ، وبالتالي فقد أصبح مهيئًا للدخول في صلب هذه المعركة السياسية من أجل استرداد الخلافة من آل معاوية.

ولذلك نراه قد استجاب لدعوات أهل الكوفة من الذين عُرفوا بمعارضة يزيد بن معاوية ، وقد طالبوه بأن يكون هو الخليفة الجديد! .

ورويدًا رويدًا نتقرب من أحداث كربلاء التي أودت بحياة الإمام الحسين وبعض من أهل بيته وآل بيت النبوة أيضًا .

---

(١) في البيت النبوي الكبير – مصدر سابق .

وهناك العشرات من الكتب التاريخية التي تناولت هذه الأحداث وبكل تفاصيلها ، وسوف نتوقف عند بعض ملامحها استكمالاً للحديث عن أخريات أيام الإمام الحسين ووصولاً إلى نتائجها المؤلمة والتي عصفت برأسه واحتضنتها أرض مصر باعتباره أول أحفاد النبي الكرام من آل البيت من الذين جاءوا إلى هذا البلد الأمين .

ولقد استجاب الإمام الحسين رضي الله عنه لمطالب أهل الكوفة وجاء إليهم بعدما اغتيل رسوله مسلم بن عقيل ، وتقول المصادر التاريخية إن الإمام الحسين عند مقدمه إلى كربلاء ذلك المكان القريب من نهر الفرات ، وجد في انتظاره جيشًا كبيراً كان قوامه عدة آلاف من الجند . إذ كان يزيد ورجاله قد علموا مسبقًا بما كان ينوي الإقدام عليه الإمام الحسين، وكان قائد جيشه هو عبيد الله بن زياد الذي اتضحت نواياه عندما قرر اغتيال الإمام الحسين من دون بعض أصحابه من الذين كانوا معه .

هذا الهدف كان وراءه تحقيق أمنية غالية لدى يزيد بن معاوية حتى يكون هو الخليفة الأوحد وبلا منافس ، ولم يكن أمام جيش يزيد بقيادة ابن زياد سوى القضاء على الإمام الحسين ومن كان معه من بعض أصحابه ، وقد تم لهم بالفعل ما خططوا له ، إذ اغتيل الإمام الحسين ، واجتزوا رأسه وفصلوها عن جسده ، كي يحملوها إلى الخليفة في دمشق تأكيداً على نجاحهم في مهمتهم! ! ، ويقال إن عمر الإمام الحسين آنذاك كان ستة وخمسين سنة وخمسة أشهر وستة أيام .

ومما مر علينا من قبل نكتشف أن معركة كربلاء ونتائجها الظالمة والمؤسفة كانت هى السبيل لدخول آل البيت إلى مصر ، عندما جاءت السيدة زينب رضي الله عنها أخت الإمام الحسين وما تبعها بعد ذلك من أحفاد وحفيدات .

وما نود أن نشير إليه كختام لهذه المرحلة سواء في حياة أو في موت الإمام الحسين ، أن هذا البطل قد اغتيل في اليوم العاشر من شهر المحرم من عام ٦١هـ ، وقد أصبحت ذكرى أليمة داخل قلوب كل المسلمين ، ودائمًا ما يحييها أهل الشيعة خاصة في كل من العراق وإيران .

•• مرقد الإمام الحسين ومشهد رأسه :

ولما كنا نتحدث عن آل البيت في مصر ومساجدهم خاصة من الأحفاد كان لا بد لنا من الوقوف أمام ذلك المكان الذي دفن فيه جسد الإمام الحسين ، وكذلك المكان والذى دفنت فيه رأسه .

ومن عجيب الصدف أن هذا الإمام الجليل قد أصبح في الدنيا مقسومًا إلى نصفين ، الأول بجسده المدفون بمدينة مشهد في العراق والثاني برأسه المدفونة في القاهرة في مصر ، وبكل من هذين المكانيين مسجدان كبيران .

وفيما يخص المكان الذي يتواجد فيه جسد الإمام الحسين رضي الله عنه .. فهناك من المصادر التي أكدت أنه بعدما تم فصل رأس الإمام الحسين عن جسده والذهاب بها إلى يزيد بن معاوية في دمشق قام قوم من قبيلة أُسد بإخراج الأجسام المبرأة من كل زيغ ، فوجدوها في العراء بعد رحيل عمرو بن سعد الذي اصطحب الرأس إلى دمشق ، فصلوا عليها ، كما حفروا للحسين قبرًا بمشهد حيث مثواه الموجود الآن بالعراق .. كما دفنوا ابنه علي بن الحسين عند قدمه . كما حفروا للشهداء من أهل بيته وأصحابه من الذين قتلوا .. قبورًا أخرى بما يشبه مقبرة جماعية كبيرة . وبالتالي دفنوهم جميعًا معًا . أما العباس بن علي فدفن في الموضع الذي قتل فيه[1] .

هذا عن جسد الإمام الحسين أما فيما يخص رأسه الشريفة ، فتقول المصادر التاريخية أنه وبعد ما تم عرض رءوس هؤلاء الشهداء ومنهم رأس الإمام الحسين أمام يزيد بن معاوية وفي مجلسه داخل قصره بدمشق ، تم دفن رأس الحسين في دمشق .

ويشير الدكتور محمود عبد الفتاح شرف الدين إلى قضية مهمة ودائمًا تطفو إلى السطح من حين إلى آخر ، وهي قضية المكان الذي دفنت فيه رأس الإمام ، ولسوف ندعه يحكي لنا عن قصة هذه الخلافات من قبل الوقوف على مكانها في القاهرة ، حيث هى موجودة في مرقده حاليًا داخل مسجد الإمام الحسين .

يقول ا لدكتور محمود عن هذا الخلاف :

تردد الناس في القطع في موضع الرأس الشريف ، وهل هو في مستقره الذي هو فيه بالقاهرة حيث يوجد المشهد الحسيني ، أم في كربلاء؟! ، وقد أشاع المغرضون بأن رأس سبط الرسول الإمام الحسين لا وجود له بقاهرة المعز مطلقًا استنادًا إلى ما قاله القرطبي نقلاً عن الزبير بن بكار الذي عده أعلم الناس بالأنساب : بأن الرأس أعيد إلى الجثة بكربلاء بعد مرور أربعين يومًا .

---

(١) أهل بيت النبوة – مصدر سابق .

وأضاف : وما ذكر من أنه دفن بعسقلان في المشهد المعروف به أما بالقاهرة فهو شيء باطل لا صحة له.

وحسمًا لهذه القضية ووفق إجماع المورخين يؤكد الدكتور محمود عبدالفتاح بأنه من الثابت تاريخيًا والمؤيد بأسفار العلماء والمحققين والرواة البارزين بأن رأس سبط الرسول وريحانته مدفونة بالقاهرة[(١)] .

ولما انتهى المؤرخون من حسم قضية وجود رأس الإمام الحسين في مصر من عدمه .. دخلوا في قضية خلاف أخرى حول الظروف التي أدت إلى دخول هذه الرأس الشريفة إلى مصر ، ومن هو صاحب هذا العمل الجليل ، ومن الذي اصطحب هذه الرأس ووضعها حيث هى مدفونة الآن داخل قبره تحت قبة المشهد الحسيني .

ولسوف يكون لنا مع هذه الخلافات وقفة قد تطول أو تقصر وفق مجريات الأمور ، ونبدأ هذه الوقفة التاريخية مما أشار إليه الكاتب الصحفي مأمون غريب الذي أكد وفق ما جاء على لسان بعض الرواة أن الذي وصل بالرأس الشريف إلى مصر من مدينة عسقلان هو الأمير سيف المملكة وواليها ، حيث دفنها في قصره المعروف باسم قصر الزمرد[(٢)] .

ومما قالوه في هذا السياق أن هذه الرأس الشريفة لما خرجت من عسقلان وجد دمه لم يجف بعد ، وله ريح كريح المسك ، وعندما جيء به إلى مصر دفن في قصر الزمرد وهو المكان المعروف حاليًا بالمشهد الحسيني .

ومن أجل الخروج من مأزق الحديث زمنيًا عن تاريخ انتقال رأس الإمام الحسين من مشهده في عسقلان إلى مصر ، أكد الشيخ محمد عثمان أنه في زمن ما .. نقل الرأس كما ورد بأحد الأقوال إلى عسقلان ، وعندما احتلها الفرنج أيام الحروب الصليبية افتداه منهم بمال جزيل أيام الحروب الصليبية الصالح طلايع وزير العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ، وبنى له مسجدًا عظيمًا لدفنه به يعرف بمسجد الصالح طلايع ، ولأن هذا المسجد بني خارج باب زويلة وهو في نهاية مدينة القاهرة من جهة الجنوب في ذلك الحين ، فقد بنى للرأس مشهدًا عظيمًا داخل القاهرة والمعروف الآن بمشهد الحسين .

(١) أهل بيت النبوة – مصدر سابق .

(٢) الإمام الحسين ، حياته واستشهاده – مأمون غريب .

ويواصل الشيخ محمد عثمان روايته التاريخية عن ذلك المكان الذي وضعت به رأس الإمام الحسين فيقول : وكان وصول الرأس الشريف بمصر في احتفال لائق به أقيم يوم الأحد الموافق ثمانية من جمادى الآخر سنة ٥٤٨هـ ، ودفن في سرداب قصر الزمرد ، ثم نقل كي يدفن في ضريح تحت قبة المشهد الحالي بعد عام واحد فقط أي في عام ٥٤٩هـ (١) .

وهناك روايات تاريخية أخرى عن تفاصيل مسيرة رأس الحسين حتى وصلت إلى مصر ، إذ تقول هذه الروايات أن رأس الإمام الحسين رضي الله عنه قد نقلت إلى عسقلان في أيام الدولة الفاطمية وهى من المدن التي كانوا قد استولوا عليها أثناء فتحهم لبلاد الشام ، ولما تولى الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الوزارة أخرج رأس الإمام من مشهده بعسقلان خوفًا من أن تقع البلدة في يد الفرنج .

ولاحظوا هنا الخلاف الكبير في هذه الرواية عمن سبقتها ، ثم بعد ذلك توجه ابن أمير الجيوش بهذه الرأس المعطرة إلى مصر .

ويقول الدكتور محمود شرف الدين أن هناك رواية أخرى تؤكد قيام الصالح طلائع وليس طلايع وكما جاء في بعض المصادر هو الذي تولى هذه المهمة واسمه أيضًا طلائع بن رزيك ، وقد بذل في نقلها أربعين ألف دينارًا .. ويبدو أنها هُربت من داخل عسقلان ، بدليل قوله أن الأمير طلائع قد استلم الرأس خارج مصر ، وهو حافي القدمين مكشوف الرأس ، وكانت رأس الإمام الحسين في بُرنس حرير أخضر .

ويؤكد هذه الرواية فيما نقله المؤرخون تقي الدين المقريزي أيضًا والذي أشار فيما كتبه إلى أن طلائع بن رزيك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان ، ولما خاف عليها من الفرنج وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنها فيه ويفوز بهذا الفخار ، وغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون ذلك إلا عندنا ، فعمدوا إلى ذلك المكان وبنوه له ونقلوا الرخام إليه ، وذلك في خلافة الفائز الخليفة الفاطمي .

وكان الذي وصل بالرأس من عسقلان هو الأمير سيف المملكة تميم واليها ، والقاضي المؤتمن بن مسكين والأستاذ مكنون في عشارى من عشاريات الخدمة ، وأنزل به إلى الكافوري ، ثم حمل

(١) في البيت النبوي الكريم – مصدر سابق .

في السرداب إلى قصر الزمرد ، ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة ، فكان كل من يدخل الخدمة يقبل القبر ، وكانوا ينحرون في يوم عاشوراء عند القبر الإبل والبقر والغنم ويكثرون من النواح والبكاء ويسبون من قتل الحسين ، ولم يزالوا على ذلك حتى زالت دولتهم (١) .

•••

إذن هناك إجماع غير مشكوك فيه بأن الإمام الحسين الحفيد الكريم لرسولنا الكريم ، مدفون في مصر ، وقد أصبحنا على مسافة خطوات قليلة من مشهده ومقامه الشريف ، ثم مسجده أيضًا ، وبالتالي كان لا بد لنا من الاقتراب من هذا المكان الطيب للوقوف على تطور بنائه وما إن أدخل عليه من تعديلات على مدى سنوات طويلة قضاها هذا الإمام الجليل فوق أرض مصر .

ولا شك أن هناك العشرات من الدارسين للآثار وللتاريخ وللعمارة قد حدثونا وبالتفصيل المطلوب عن ضريح ومشهد ومسجد الإمام الحسين ، ولقد رأينا من أجل أن تكتمل الفائدة المرجوة من هذه الأوراق ضرورة بيان بعض الذي ذكروه عن هذا المكان الطاهر والشريف .

والثابت تاريخيًا في سياق هذا الحديث أنه بعدما تم إعداد الضريح الطاهر لاستقبال رأس الإمام الحسين ، ودفن به في عام ٥٤٩هـ - ١١٥٤م . تم إنشاء مسجد بجوار هذا الضريح لإقامة الشعائر الدينية وتدريس العلوم .

والرحالة ابن جبير يحدثنا بالتفصيل عن محتويات ضريح الإمام الحسين فيقول : توجد رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تابوت من فضة ومدفون تحت الأرض، وقد بُني عليه بنيان يعجز الوصف عنه ، ولا يحيط به الإدراك ، مجلل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعًا أبيضًا ومنه ما هو دون ذلك ، وقد وضع أكثره في أنوار فضة خالصة ، ومنها مذهبة ، وعلقت عليه قناديل فضة وخص أعلاه بأمثال التفافيح ذهبًا في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنًا وجمالاً ، وفيه أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع ، الترصيع مما لا يتخيله المتخيلون.

والمدخل إلى هذه الروضة على مثال المسجد في التألق والغرابة ، وحيطانه كلها رخام على

(١) المقريزي - الخطط - ج ٣ .

الصفة المذكورة ، وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها و هما أيضًا على تلك الصفة بعينها ، والأستاد البديعة من الديباج معلقة على الجميع [(١)] .

ونظرًا للمكانة العظيمة التي أصبح يحظى بها الإمام الحسين رضي الله عنه ، فقد أخذ الحكام في تتبع مشوار رأسه حتى جاءت إلى مصر ، وكان لا بد من إكرامها ووضعها في المكان اللائق بها والذي أخذ يزداد قيمة مع مرور الأيام والسنوات ، فمع دخول العصرالأيوبي امتدت يد الرعاية لمشهد الإمام الحسين ، وقد أنشأ أبو القاسم بن يحيى بن ناصر السكري المعروف بالزرزور منارة على باب المشهد في عام ٦٣٤هـ - ١٢٣٦م ، وهى منارة كما تقول الدكتورة سعاد ماهر مليئة بالزخارف والنقوش البديعة ، إلا أن هذا المشهد قد احترق في عهد الملك الصالح أيوب في عام ٦٤٠هـ ، وكان سبب الحريق كما يرويه المقريزي وأبو المحاسن أن أحد خُزان الشمع دخل ليأخذ شيئًا فسقطت منه شعلة فوقف الأمير جمال الدين نائب الملك الصالح أيوب بنفسه حتى تم إطفاؤه ، ومن ثم قام بترميمه بعد هذا الحريق.. القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ووسعه وألحق به ساقية وميضأة وأوقف عليه أراضي خارج الحسينية قرب الخندق .

ثم توالت بعد ذلك اهتمامات الأمراء والحكام المصريين بهذا المشهد سواء من حيث تجديده أو توسعته أو إلحاق به أماكن واسعة للصلاة ، ففي العصر المملوكي أيضًا ، رفُع إلى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قضية يدور موضوعها حول أن مسجدًا على باب مشهد الحسين وإلى جانبه مكان من حقوق القصر ، بيع وحمل ثمنه للديوان ، وهو ستة آلاف درهم ، فأمر السلطان برد الدراهم ، وأبقى الجميع للمسجد ، فاتسع مكانه وزاد رونقًا وبهاء بما صرف عليه من تلك الأموال.

ثم في عهد الملك ناصر محمد بن قلاوون تم توسعة المسجد وذلك ببناء إيوان وبيوت للفقهاء وكان ذلك في عام ٦٨٤هـ .

أما في العصر العثماني فقد أمر السلطان سليمان خان بتوسيع المسجد، نظرًا لما رآه من الإقبال العظيم من المصلين ومن الزائرين ، كما عني الوالي العثماني السيد محمد باشا الشريف والي مصر في عام ١٠٠٤هـ - ١٠٠٦هـ بترميم المشهد الحسيني وإصلاح زخارفه ، ثم قام الأمير عبد الرحمن كتخدا بإصلاحات كثيرةسواء للمشهد الحسيني أو للمسجد الملحق به .

---

(١) رحلة بن جبير .

ويقال أنه قد أعاد بناء المسجد وعمل به صهريجًا وحنفية بفسحة ، وأضاف إليه إيوانين ، كما رتب للعاملين به والقائمين على خدمة المسجد مرتبات كثيرة ظل معمولاً بها حتى عام ١٢٠٦هـ ، عندما تحولت نظارة أوقاف المسجد الحسيني لدى السيد أبو الأنوار الوفائي . ويقال إنه قد ألحق أضرار جسيمة بالمسجد نظرًا لأنه كان يملك دارًا بجوار المسجد وقد تضررت من الميضأة والمراحيض فعزم على هدمها .

ولقد اهتم الجبرتي شيخ المؤرخين بهذه الوقائع فسجلها في تاريخه المدون .

وفي عصر السلطان العثماني عبد العزيز والذي قام بزيارة المسجد الحسيني ، بعد تجديده على يد الخديوي إسماعيل ، حيث اهتم المؤرخون بتسجيل هذه الزيارة نظرًا لما لحق بالمسجد من توسعات وتطورات كثيرة حتى أن مؤرخًا كبيرًا من أمثال علي مبارك قد حدثنا عنه في خططه، والتي ذكر فيها أنه نظرًا للزحام الشديد على المسجد وعلى الأماكن التي كانت تحيط به .. قرر الخديوي إسماعيل فتح شارع السكة الجديدة إلى جوار المسجد .

وأكد علي مبارك أنه كان من بين فريق المهندسين الذين تم ندبهم لتنفيذ هذه العملية والتي تمت في عام ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م .

أما في عهد ثورة يوليو فقد ازدادت العناية بالمسجد وبالمشهد الحسيني ، سواء من حيث زيادة مساحته أو فرشه أو إنارته .

ثم توالت بعد ذلك اهتمامات الحكومات المصرية المتعاقبة والتي كانت تكلف وزارة الأوقاف بإحداث المزيد من التطوير للمسجد ولكل من حوله من الأماكن حتى صار إلى ما هو عليه الآن.

ومع مرور الأيام والسنوات لم يعد للمشهد أو للمسجدالحسيني أهمية فقط ؛ بل امتدت هذه الأهمية سواء من حيث النظافة والعناية إلى الحي كله ـ وهو الحي الحسيني ـ الذي صار كذلك من أشهر الأماكن السياحية في القاهرة .

•• الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين :

يحتل هذا الإمام الطيب المبارك المرتبة الثانية داخل منظومة أحفاد آل البيت من الذين عاشوا وماتوا ودفنوا في مصر ، إنه الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين .

ولقد رأينا أنه من الواجب ضرورة الحديث عن أبيه الإمام زين العابدين والذي ينسب إليه حي كامل من أحياء القاهرة القديمة ، وكما ذكرت من قبل في كتابي مقابر المشاهير فإن هناك عدة أسباب تجعلنا نتحدث أولاً عن أبيه من قبل الحديث عنه شخصيًا .

ومن هذه الأسباب أن الضريح أو المقبرة أو المشهد أو حتى المسجد الموجود بالقاهرة الآن ، يعرف باسم ضريح زين العابدين ابن الإمام الحسين بن علي ، ليس ذلك فقط بل ونجد في القاهرة حي بأكمله ينسب إلى هذا الإمام ا لجليل ، كما نعرف فهو ابن الإمام الحسين والذي نجاه ربنا تعالى من مذبحة كربلاء ، وكان له الفضل في زيادة أعداد آل البيت الكريم ، سواء في مصر أو في غيرها .

ولقد سبق لنا أن نوهنا إلى أننا لا بد وأن نقف ولو للحظات أمام تاريخ ابن الإمام الحسين رضي الله عنه ، ومن أبرز ما قيل عنه ، أنه ولد في المدينة ا لمنورة ، وفي بيت جدته السيدة فاطمة الزهراء في يوم الخميس السابع من شهر شعبان عام ٣٧ هجرية .

ورغم أن أباه الإمام الحسين قد زوده من علمه وعلوم الآخرين ، وشاءت ظروفه أن يسافر مع أبيه إلى العراق ، وأن يشاهد كذلك حادث مقتله ، كما حضر كذلك مع عمته السيدة زينب ما وقع لها بعد مقتل أبيه عندما أعيدوا إلى المدينة مرة أخرى .

وتقول المصادر التاريخية أنه لزم المدينة .. وعاش بها تاجرًا، فـفاضت عليه بالرزق الكثير مما جعله يخصص جزءًا من أرباح تجارته لتحرير العبيد والموالي من الذين كان يشتريهم كي يعلمهم الإسلام ثم يعتقهم لوجه الله .

ومما ذكرناه نحن وفق ما وقع في أيدينا من مصادر أن الإمام الشعراني قد ذكر فيما سجله عن الإمام علي زين العابدين أنه حين توفي بالمدينة نقل جثمانه الشريف إلى مصر في عام ٥٢٩هـ ، إلا أن هناك مصادر أخرى قالت أن الإمام زين العابدين قد وفد إلى مصر مع من وفد مع عمته السيدة زينب.

هذا عن الأب الكريم الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب، أما عن ابنه الإمام زيد بن زين العابدين ، فقد ولد في عام ثمانية هجرية وأمه ، أم ولد ، وهى امرأة كانت مملوكة لأبيه ، وإليه تنسب طائفة الزيدية وهى إحدى طوائف الشيعة وأكثرها

اعتـدالاً وقربًا من أهل السنة ، حيث لا يـتم اختيار إمـامهم بالوراثة ، بل لا بد وأن يكون حـاصلاً على شروط معينة .

هذا وقد انتشرت تعاليم هذه الطائفة في كثير من الأقطار الإسلامية ، خاصة في اليمن وبالتالي فإن معظمهم من الشيعة الزيدية .

ويقال بأن خلفاء بني أمية كانوا يهابونه ويخشونه لما كـان يتمتع به من فصاحة اللسان والبلاغة اللغوية.

ويحكي لنا الشيخ محمـد عثمان فيما نقله عن الرواة بعـض المواقف التي تؤكد ذلك، ففي مرة من هذه المرات اجتـمع زيد بن زين العابدين بالخليـفة الأموي العـاشر وهو هشام بن عـبد الملك ، فقـال له هشام : بلغني أنك تـريد الخلافة ، وأنت لا تصـلح لها ، لأن أمك أم ولد ؛ فرد عـليه زيد قائلاً : كان لنبي الله إبراهيم الخليل ولدان أحداهما إسمـاعيل من هاجر وهى أمة مملوكة ، وإسحق من حرة ، وهى سارة ، فأخرج الله من صلب إسماعيل خير ولد آدم وهو جدنا محمد ﷺ ، فقال له هشام : قم ، فقال زيد : إذن لا تراني إلا حيث تكره ..

وهناك موقف آخـر يحكيه الشيخ مـحمد عـثمان .. هذا الموقف الذي تمثل في إحـدى المعارك التي كان زيد بن زين العابدين طرفًا فـيها . وقد أسفرت عن مقتله وفصل رأسـه مثلما حدث لجده الإمام الحسين .

ولكن لما حدث ذلك ؟! تقول المصادر نفسهـا أن هذا الإمام كان يريد أن يسير على درب جده الإمام الحـسين من أجل استـرداد الخلافـة ، وقد بدأ هذه الخطوة بتـكوين جيش صـغير الـعدد من مجـموعـة من أتباعـه ، وسار بهم إلى الكوفـة ، ولكنه سرعـان ما هم بالرجـوع إلى المدينة المنورة والتي كان قد آتى منها ، حيث كان يعيش هناك ، ولكن أهل الكوفة تمسكوا ببقائه لمحاربة بني أمية واسترداد عرش أجداده واسترجاع الخلافة.

وقد أعطوه ميثاقًا رغبة منهم في أن تكون أيامـه هى أيام نهاية عرش بني أمية ، وبالتالي أقنعوه بالعودة والسير في طريق محاربة بني أمية .

ولما علم بذلك الخليفة هشام بن عبد الملك ، حدث في شأنه أميره في الكوفة ، يوسف بن عمر

الثقفي ، والذي أعد بدوره جيشًا كبيرًا لملاقاة زيد وجيشه الصغير ، وفي هذه المعركة تفرق من حوله ومعظم أصحابه وتركوه مع قلة منهم .

ويبدو أن الزمان قد أعاد دورته من جديد مثلما حدث مع جده الإمام الحسين وجده الأكبر الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، إذ ظل يقاتل جيش بني أمية بمن كان معه حتى سقط قتيلاً وشهيدًا في شهر صفر من عام ١٢٢هـ . وقيل عام ١٢١هـ .

وحدث مع رأسه ما حدث لرأس جده الإمام الحسين إذ أقبل بنو أمية على تكرار ما وقع لجده منذ عدة سنوات ، وبالتالي قاموا بفصل رأسه عن جسده ، وأرسلوها إلى مقر الخلافة في دمشق . أما جسده فقد دُفن في الكوفة .

ولقد وجدنا أن هناك خلافات واضحة بين المؤرخين حول مصير رأس هذا الإمام وفي الوقت نفسه وجدنا أن هناك شبه إجماع بأنها جاءت إلى مصر ودفنت في المكان الموجودة فيه الآن .

ومما قيل في هذا السياق أن هذه الرأس وبعد أن حُملت إلى الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق تم إحراقها ، وقيل أنه علقها على أبواب دمشق ثم بعث بها إلى المدينة.

أما الكندي فيما كتبه فقد أكد على قدوم رأس الإمام زيد إلى مصر ، وأنه بعدما وصلت تلك الرأس الشريفة إلى مصر طيف بها ثم نُصبت على المنبر الجامع بمصر ويقصد بذلك جامع عمرو بن العاص في عام ١٢٢هـ ، فسُرقت ودفنت في الموضع الموجودة فيه الآن ، وقد بنى الفاطميون فوقها مشهدًا في المكان المعروف الآن باسم مشهد الرأس ، وقيل أن ذلك قد حدث في أيام والي مصر حنظلة بن صفوان ، وهو الذي قام بكل ذلك .

ومن قبل أن نتحدث عن المشهد وعما ألحق به من مسجد هو موجود حاليًا ، رأينا ضرورة أن نتوقف ولو للحظات لاستكمال ما بدأناه من حديث عن الإمام زيد بن الإمام زين العابدين ، والذي وصفه عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه عن الأئمة التسعة بأنه الإمام العابد والذي كان يدعو دائمًا إلى إعمال العقل ، فالعقل وحده هوالذي يحكم على الأفعال بالحسن أو بالقبح ، وكان الحكام في ذلك الوقت يحاولون أن يخنقوا الفكر والرأي ، وأن يعطلوا العلم والعقل كي يفرضوا على الناس قبول ما يفعلونه هم ، بلا نقاش أو تذمر .

ويضيف عبد الرحمن الشرقاوي : وبقدر ما كانت الأمة تحتقر صناع الزيف من أشباه الفقهاء ، كانت تكبر كبار الفقهاء والعلماء الشرفاء من أمثال زيد بن زين العابدين ، ولذلك كان خلفاء بني أمية يخشونهم ويتربصون بالشرفاء منهم .

أما فيما يتعلق بالإمام زيد نفسه فقد سلك طريقًا آخر يرتبط بالبحث عن الحقيقة ، وبالتالي فقد أعلن أنه لا يحل لمسلم أن يقبل هدية أو عطاء من حاكم ما لم يكن عادلاً ويحقق مصالح الأمة ، ثم لازم في الناس بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب شرعي وأصل من أصول الدين ، كما كان كثيرًا ما يصرح في مجالسه برأيه في شروط الخلافة ، مؤكدًا على أن الخليفة لا يكون خليفة لرسول الله ﷺ وأميرًا للمؤمنين إلا في ضوء هذه الشروط[١] .

وحين نعود للحديث عن المشهد والمسجد الخاص بالإمام زيد نجد أن هناك رأي يؤكد فيه صاحبه بأن هذا المقام مدفون فيه الإمام زين العابدين نفسه إلى جانب رأس ابنه الإمام زيد ، ومن بين الذين أكدوا ذلك الكاتب الصحفي عبد المنعم قنديل في كتابه حياة الصالحين .. ولعل ذلك يبدو في قوله : وحين يدخل الزائر إلى مقام الإمام زين العابدين يجد عمامتين على المقام . الأولى تشير إلى زين العابدين والثانية إلى ابنة زيد الذي قتل في الكوفة ونقلت رأسه إلى مصر[٢] .

هذا المشهد قد أنشأ في باديء الأمر داخل بناء قديم لم يبق منه إلا مدخله بالواحة القريبة في الفتحة الصغيرة والموجودة فوقها مصراع واحد من الجرانيت .

وكما نعرف فإن هذا المشهد والذي فيه رأس أحد عترة آل البيت موجود الآن ، وكما ذكرنا من قبل في حي زين العابدين،وهو ملحق بالمسجد الذي أنشأه كما يقال عثمان أغا آغات في حوالي عام ١٢٢٥هـ - ١٨٠٩م ، وهو الذي أقام بداخل هذا المسجد أيضًا مقبرة له ولزوجته حفيظة هانم.

وفي عام ١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م - جدد محمد خفتان (قفطان) عمارة ا لمسجد ، ومثبت تاريخ هذه العمارة على لوحين ثُبت إحداهما على الباب الخارجي والآخر على الباب الداخلي . كما أُنشأ على الضريح تحت القبة ا لمقصورة الحديدية .

(١) أئمة الفقه التسعة - عبد الرحمن الشرقاوي.

(٢) حياة الصالحين - عبدالمنعم قنديل .

كما جددت المسجـد والضريح الدولة الفاطمية ، ويبدو ذلك جليًا من اللوحة التـذكارية المثبتة على مدخـل المسجد القـديم بالواجهـة الغربيـة والتي كتب عليـها : بسم الله الرحمن الـرحيم هذا مشـهد الإمـام علي زين العـابدين ابن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليـهم أجمعين - في سنة ٥٤٩هـ .

ولسوف نختـتم رحلتنا هذه داخل ضريح الإمام علي زين العـابدين وابنه الإمام زيد بما سطره المقريزي في خططه تحت عنوان : "ذكر المشاهد التي تتبرك الناس بزيارتها" ومما ذكره المقريزي في هذا السياق قوله : هذا المشهـد يقع فيما بين الجامع الطولوني ومدينة مصر في تسميـة العامة مشهد زين العابدين وهو خطأ ، وإنما هو مشهد رأس زيد بن علي زين العابدين حين أنفذه هشام بن عبد الملك إلى مصر ونصُب على المنبر بالجامع الكبير ، فسرقه أهل مصر ودفنوه في هذا الموضع .

أما الكندي فقال في كتابه "الأمراء" : وقـدم إلى مصر في سنة اثنتين وعشرين ومائة أبو الحكم بن أبي الأبيض خطيبًـا برأس زيد بن علي رضوان الله عليه ، يوم الأحـد لعشر خلون من جـمادى الآخرة ، واجتمع الناس إليه في المسجد[1] .

•• الإمام محمد الجعفري حفيد الإمام زيد بن زين العابدين :

مما ذكرناه فـي بداية مشوارنا في هـذا الفصل : أن هناك فـرعين من أحفاد آل البـيت من الذين جاءوا إلى مصر واتخذوها موطنًا ثانيًا لهم سواء في الدنيا أو في الآخرة ، الفرع الأول منبته الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والذي شرفنا برأسه المدفـونة في القاهرة وفي مقامه ومشـهده وضريحـه الموجود حاليًا بحي الحسين ، ومن أتبـاع هذا الفرع تحدثنا أيضًـا عن الإمامين علي زين ا لعابدين بن الإمـام الحسين وولده الإمام زيد والذي جاء إلينا أيضًـا برأسه والتي دفنت في مشهده وقد سبق وتحدثنا عنه منذ قليل .

ثم يأتي الحـديث عن أتباع فـرع آخر من أفـرع شجـرة آل البـيت التي نبتت من صلب الإمـام الحسين - ألا وهو الإمام محمد الجعفـري ابن الإمام جعفر الصادق ، والذي رأينا وفق ما جاء في التاريخ ووثائقه أنه بالفعل يحتل مكانة متميزة بين آل البيت من الذين عاشوا وماتوا في مصر .

---

(١) الأمراء ـ للكندي .

وكمـا سبق وأشرنا فـإن هذا الإمام الجليل هو ابن الإمام جـعفر الصـادق .. ابن الإمام محـمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم أجمعين .

ومما يقال في هذا السياق أن الإمـام جعفـر الصادق قد أنجب من الأولاد غـير ما هو مـعروف كثيرون ، منهم موسى وإسماعيل ، وعبد الأفطح ومـحمد الديباج المعروف باسم محمد الجعفري صاحب المقـام الموجود في مـصر ، وصاحب مـا هو آت من كلمات نسطرها في رحـابه لأنه أحد أعمدة آل البيت من الذين استوطنوا مصر .

ومثلمـا فعلنا من قـبل مع غيره رأينا كـذلك أن نبدأ مشـوار هذا الحديث بالإشـارة إلى الإمام جعـفر الصادق ، ثم نعرج من بعـده للحديث عن ابنه محـمد ، إذ ذكرت المصادر وكـتب التاريخ خاصة الشـيعية منها أن هذا الإمـام الجليل ولد في مدينة رسول الله ﷺ في عام ٨٠هـ ، وقد حفظ القرآن الكريم وهو صـبي ، كما أخـذ يتقن التفـسير ويحـفظ الأحاديث النبوية ، وفـقه السنة وهو لذلك يعتبر من أوثق المصادر التي خرجت من آل البيت ، وقد عـاصر الإمام جعفركما يؤكد ذلك عبد الرحمن الشرقاوي العديد من الأحداث السياسية والتي راح ضحيتها معظم آل البيت .

ذلك لأن الخلفاء الأمـويين قد عـقدوا العزم على الـتخلص من كل آل البيت مـن الذين كانوا يفكرون في إعادة الخلافة واستردادها .

ولقد مر علينا من قبل كيف تخلصوا من الإمـام زيد بن علي زين العابدين ، كما تخلصوا من قبل أيضًا من جده الإمام الحسين وجده الكبير الإمام علي بن أبي طالب .

ومن أجل تحقيق ذلك ا ستـعانت الدولة الأموية بالعديد من الجواسيس والعـيون لمراقبة كل آل البيت ، واضطهاد من كان منهم حتى يفكر في أمر هذه الخلافة ، ولذلك فإن الإمام جعفر الصادق يعتـبر من أوائل زعماء الشـيعة الذين اتخـذوا من مبدأ "التقـية" سبـيلاً للتخفي عن عـيون هؤلاء الجواسـيس ، وممارسة نشاطـه الديني أو السياسي بكل حـرية أملاً في نجـاحه في مقـاومة استـبداد هؤلاء الخلفاء من الذين اضطهدوا آل البيت ولفترة زمنية طويلة .

ولذلك نراه لم يجـهر بالعداء لبـني أمية اتقـاء لشرهم ، ورأى أن خـير ما يقـاوم به هذا الظلم وهذا البغي هو سبيل الكلمات المضيئة والتي تساهم في إنارة طريق الهداية لكل الناس .

ونظراً لما كـانت تمثله العراق آنذاك باعـتبارها كـانت قبلة المجـاهدين ضد بني أمـية فـقد رحل الإمام جعفـر الصادق إلى هناك بعدما ترك المدينة والتي ولد بهـا ، على أمل توصيل أفكاره وعلمه إلى قطاع عريض من المسلمين هناك ولكل البلاد التي حولها .

ويقال إن الإمام جعفر الصادق قد عاصر كـذلك الخلافة العباسية أثناء تواجده بالعراق ، وكان بين هؤلاء الخلفاء العباسيين من لم يرق له أفكار الإمام جـعفر الصادق فطلب منه الخليفة المنصور ضرورة مغادرة العـراق فوراً .. ورغمًا عنه ترك هذه البلاد راجعًا إلى المديـنة والتي عاش بها حتى توفاه الله .

ويؤكد عبد الرحمن الشرقاوي فيما كتبه أنه لم يُجمع الناس على حب أحد في ذلك العصر ، كما أجمعوا على حب الإمام جعفر بن محمـد والذي اشتهر فيهم باسم جعفر الصادق ، وأسباب ذلك ترجع إلى أن هذا الإمـام كان صافي النفس ، واسع الأفق ، مـرهف الحس ، متـوقد الذهن ، كبير القلب يلتمس في غضبه الأعذار للناس ، حـاد البصيرة ، ضاحك السن ، مضيء القسمات ، عذب الحديث ، حلو المعشر وسباقًا إلى الخير . هذا هو الإمام جعفر الصادق[(١)] .

ليس ذلك فقط بل وكان أيضًا واسع الصدر ، صادق الوعد وكان تقيًّا.

ولقد سبق وأشرنا إلى أن هذا الإمام قـد ولد في عام ٨٠هـ ، ومات في عام ١٤٨هـ .. وخلال هذا العمـر وعلى حد قول عبـد الرحمن الشرقـاوي نفسه قد أغنى الحـياة والفكر بحسن السـيرة والعلم الغزير ، وإشراقاته الروحية واستنباطه العقلي .

ويبدو أن تربيتـه الأولى في أحضان جده لأمـه القاسم بن محمد بن أبي بـكر وجده لأبيه علي زين العابدين قـد أوصلاه لما كان يتمناه سواء في سـيرته الدينية أو السيـاسية . إضافـة إلى ما كان يتلقاه من علوم بثـها إلى عقله وقلبه أبيـه الإمام محمـد الباقر الذي ورث عنه توقيـره لكل الخلفاء الراشدين وكل صحابة رسول الله ﷺ .

ويقال إن الإمام محمـد الباقر قد توفي وابنه جعفر في نحو الخامسـة والثلاثين من عمره ، وقد أتقن معظم معارف آل البيت وأهل السنة كما ورث عن أبيه أيضًا الإمامة بكل ما تعلمه وتلقاه منه من علم وأخلاق .

(١) أئمة الفقه التسعة – مصدر سابق.

وعندما سقطت دولة بني أمية أرسل الثوار إلى جعفر الصادق يطالبونه بأن يقبل بيعتهم له كي يصبح هو الخليفة ، ولما رفضها بايع الناس أبا العباس حفيد عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، فقبلها .

وهكذا انتقلت الخلافة إلى أبناء عمومته ، مما جعله يأمل خيراً فيما سوف يسلكه الخليفةالجديد تجاه آل البيت .

وعندما مات الخليفةالعباسي الأول وهو أبو العباس تولى من بعده الخليفة المنصور والذي تمكن كل من كانوا حوله أن يفسدوا العلاقة بينه وبين الإمام جعفر الصادق ، وهذا ما جعله وكما أشرنا من قبل يترك العراق ويعود إلى المدينة كي يعيش بها حتى توفاه الله ، وهو في سن الثامنة والستين من عمره ، تاركًا وراءه ذرية صالحة كان من بينها ذلك الإمام الجليل محمد الجعفري والذي هو حديث بقية هذه الفترة باعتباره من آل البيت ومن الذين اتخذوا من مصر أرضًا لهم في الحياة وفي الممات .

مما سبق عرفنا أن الإمام جعفر الصادق كان حفيًا بأن ينجب إمامًا آخر من الأئمة والعلماء الذين واصلوا العطاء تحت راية آل البيت . إذ ولد الإمام محمد الجعفري من أم ولد يقال لها حميدة ، هذا الإمام الذي كان منذ نعومة أظفاره وقوراً ويترفع عن الصغائر ، وبالتالي لم يكن يجاري أترابه من الأطفال في لعبهم ولهوهم.

ويقال في هذا السياق أن هذا الإمام كان قريبًا إلى قلب أبيه الإمام جعفر الصادق لشدة شبهه به وبرسول الله الكريم .

وعن هذا الحب الخالص بين الأب وابنه أورد المؤرخون الكثير من الحكايات نذكر من بينها : أن محمدًا دخل على أبيه جعفر يومًا وهو صبي ، فعدا نحوه ، فكبا في قميصه ووقع لحر وجهه ، فقام إليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره، وقال : سمعت أبي يقول : إذا ولد لك ولد يشبهني فسمه باسمي ، فهو شبيهي وشبيه رسول الله ﷺ .

ويقول بعض المؤرخين أن جماعة من الشيعة الإمامية قد جعلوا لمحمد بن جعفر وولده من بعده فرقة ، سميت باسم «السمطية» والتي تنسب إلى رئيس لهم يدعى يحيى بن أبي سميط ، ثم أن دعوة محمد بن جعفر الصادق في المذهب الشيعي والإمامة لم تمت بموته ، كما أقر بذلك كل مؤرخي المذهب الشيعي .

ونظرًا لما كان يتـمتع به هذا الإمام من مكانة داخل عـقول وقلوب أصحاب المذهب الشـيعي ، فقد حظي بالعديد من الدراسات التي قدمت لنا وصفًا له ولحياته ولغزارة علمه .

إذ وصفه المؤرخ محـمد بن الحسن الطوسي في كتابه "فـهرست كتب الشيعة" بأنه كـان شيخًا وقـورًا من شيـوخ آل أبي طالب يقرأ عليـهم العلم ، وقـد روى عن أبيه رضي الله عنه علمًـا جمًـا ومكث بمكة مدة من الزمن .

أما الفخري فقال عنه في كتـابه "الآداب السلطانية" عندما تحدث عن خلافة المأمون : وفي أيام خرج محمد جعفر الصادق - رضوان الله عليهما - بمكة وبويع خليفة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد أحـسن له ذلك حين رأى كثرة الاختـلاف ببغداد ، وما بها من فـتن ، وكان الغالب على أمر محمد ابنه وبعض بني عمه ، فلم يحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكرًا ، فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه .

أمـا فيـمـا يخص الحديث عن إقـامـته في مـصـر ودخوله إياها بعـد أن عـاش لسنوات طوال بالعراق، فيبدو أن مطاردة آل عباسى أو الخلفاء العباسيين للإمام محمد الجعفري وتضييقهم عليه ، هو الذي دفعه إلى الهروب إلى مصر واختيارها دار إقامة ودار ممات أيضًا ، حيث توفي ودفن بها.

ومن غريب الأمور أننا لم نعثر على معلومات تاريخية كافية عن فترة وجود هذا الإمام الجليل في مصر .. الأمر الذي جـعل بعض المؤرخين يشككون في وجوده في مصر أصلاً ، وقـد اعتبروا ما قيل عن مقبرته أو ضريحه أو مشهده إنما هو من مشاهد الرؤيا!

وهذا الرأي هو الذي تميل إليه الدكتورة سعاد ماهر ، وقـد تحدثت فعلاً عن هذا المكان باعتباره من مشاهد الرؤيا ، وليس من المشاهد المدفون بها أصحابها !! .

وتستند الدكتورة سعاد ماهر إلى قصة تاريخية منقولة على لسان يحيى بن الحسن خادم القاسم والي مصـر إذ قال : ضاقـت بالإمام القاسم المـمالك واشتـد الطلب، ونحن مختـفون مـعه خلف حانوت إسكافي يقطن قرب مشهد السيدة نفيسة ، فنودي نداء بلغنا صوته : بُرئت الذمة ممن أوى القاسم بن إبراهيم ، وممن لا يدل عليه ، ومن دل عليـه فله ألف دينار والإسكافي يسمع ولا يعمل ولا يرفع صـوته، فلما جـاءنا قلنا : أمـا ارتعت ؟ قـال : من لي وما ارتيـاعي منهم ، ولو قـرضت بالمقارض بعد إرضاء رسول الله ﷺ حتى في وقايتي لولده بنفسي .

وتعليقًا علـى هذه الرواية تقول الدكتورة سعـاد ماهر : أننا نستطيع أن نستنتـج من هذه القصة نقطتين هامتين بالنسبة لموضوع مشهد الجعفري والذي ينسب إلى الإمام محمد بن جعفر الصادق.

الأولى : أن المكان الذي اختبأ فيه أخوه القـاسم عند الإسكافي كان بالقرب من ضريح السيدة نفيسة ، والثانية : أنه من المرجح أن المصريين قـد اعتزوا بهذا المقام الذي سكنه أحد أفراد آل البيت وأقاموا مكانه زاوية أو مسجدًا أعاد بناءه خلفاء الـدولة الفاطمية، أو لعله من الأضرحة أو مشاهد الرؤيا التي أكثر بناءها في العصور الوسطى وخاصة لآل البيت[1] .

ورغم ذلك فقـد كان هذا المشهـد محل اهتمـام كبيـر سواء من الناس في مصـر أو من علماء الآثار والتاريخ . أما عن مكان وجوده فيقول عنه الدكتور مـصطفى شيحة أستاذ الآثار الإسلامية: أن هذا المشهد موجود إلى جانب مشهد أو مقبرة السيدة عاتكة ، وهما موجودان بشارع الأشرف، وعلى مقـربة من جامع ابن طولون ، ويضمـهما قـاعة واحدة ، يتم الدخول إليـهما بواسطة فـاتحة مدخل مـعقودة يعلوها عـتب منقوش عليه بحـران من الكتابة النسخـية بها كـتابات تقول : بقـعة شرفت آل البيت .

هذا المدخل يفضي إلى دهليز مستطيل وممتد ويعلوه جزء من سـقف خشبي ، وبالجهة الشرقية منه مشهد السـيدة رقية ، وينكسر هذا الدهليز فـي نهايته جهة اليمين حيث يؤدي إلـى قبتي عاتكة والجعـفري ، كما كُتب على مقام ومرقـد محمد الجـعفري : هذا مقـام سيدي علي الجعـفري بن جعـفر الصادق !! ، وقبـه هذا المشهد الموجـودة حاليًا مجـددة ويقع مدخلها في الضلع الشـمالي الشرقي وتقوم على بناء مربع وبصدرها تجويف المحراب الخالي من الزخارف.

•• الإمام إبراهيم الجواد بن الإمام الحسن المثني :

ومـا يزال حديث أحـفاد نبـينا الكريم ﷺ مـوصولاً فـيمـا يخص من جـاء منهم إلى مصـر ، ونتوقف هنا عند أحفاد الفرع الثاني من فروع هذه العترة الشريفة ، ونقصد ما جاء من نسل الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

وهذا معناه أن أحفاد النبي الكريم لم يقتصروا على شـخص بعينه بل جاءوا جماعات أو أفراد إلى هذا البلد الأمين ، وأقاموا فوق هذه الأرض الطاهرة ، ثم دفنوا في بطنها.

---

(١) مقابر المشاهير – كتاب للمؤلف – مصدر سابق .

ومن بين هؤلاء الإمام إبراهيم الجواد بن الحسن بن عبد الله الملقب بالكامل ابن الحسن المثني ابن الإمام الحسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين .

هذا الإمام الجليل عندما نقترب من قصة حياته سوف نفاجئ بأنه مر تقريبًا بكل الظروف التي مر بها أعمامه وأبناء عمومته من الذين راحوا ضحية البحث عن منصب الخلافة سواء أيام الأمويين أو العباسيين .

ومما يؤكد لنا ذلك.. ما كتبه المقريزي : من أن الخليفة المنصور قتل الإمام إبراهيم بن الحسن المثني في عام ١٤٥هـ ، وأنه أرسل رأسه إلى مصر فنصبت في المسجد الجامع العتيق وهو جامع عمرو بن العاص .

أما أبو المحاسن فيصف لنا كيف جاء رأس هذا الإمام إلى مصر قائلاً : وبينما الناس في ذلك قدم اليزيد برأس إبراهيم بن عبد الله ، فنصب في المسجد أيامًا ثم طيف به ودفن في الضاحية التي تعرف بمنية مطر (يقصد المطرية) .

كما أورد القضاعي أيضًا فيما ذكر رواية تؤكد على هذا القول إذ أشار فيها إلى أن مسجد التبر قد بني على رأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن المثني بن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب ، عندما أنقده المنصور ، وسرقه أهل مصر ودفنوه هناك .

أما الكندي فقد ذكر في كتابه "الولاة والقضاة" ما نصه : ثم قدمت الخطباء إلى مصر برأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة لينصبوه في المسجد الجامع وقامت الخطباء فذكروا أمره .

وقد حقق الشيخ الشبلنجي في كتابه "نور الأبصار في مناقب آل البيت" ما قيل عن هذا الإمام الجليل وانتهى إلى أنه هو إبراهيم بن عبدالله المحض أخو محمد المهدي الذي كان من كبار العلماء ، وأن الإمام أبا حنيفة قد بايعه وأفتى الناس بالخروج معه ومع أخيه محمد.

وهناك من المصادر التاريخية الأخرى التي أكدت أن هذا الإمام الجليل الذي ينتسب إلى آل البيت ومن الذين دفنوا في مصر وقد قتل وهوابن ثماني وأربعين عامًا وأن الذي حمل رأسه إلى هنا ابن أبي الكرام .

أما فيما يخص تفاصيل حادث مقتله وفصل رأسه عن جسده فهناك أيضًا من المصادر التي تحدثت عن ذلك ببعض التفاصيل ؛ منها ما جاء في كتاب "العبر في خبر من غبر" من أن إبراهيم عندما علم بخروج أخيه محمد في مائتين وخمسين من أتباعه من المدينة ، وقد ندب الخليفة المنصور لحربه ابن عمه عيسى بن موسى الذي زحف إلى المدينة لمحاربة محمد فقتله وبعث به إلى المنصور .

عندئذ خرج هو الآخر لنصرة أخيه .. في اتجاه البصرة ، التي دخلها سرًا في عشرة من أتباعه ، ولما عرف أن الخليفة المنصور علم بذلك ، لجأ الإمام إبراهيم إلى الكوفة حتى يأمن شره .

وهناك ألزم الناس بارتداء الملابس ذات اللون الأسود ، ولما علم الخليفة المنصور أيضًا بوجوده في الكوفة أرسل إليه جيشًا من ٥ آلاف مقاتل فقضى عليه وقتله ثم اقتلع رأسه من جسده وأرسله إلى الخليفة في قصره .

أما عن أثر تلك الحوادث في مصر ، وكيف جاء رأس إبراهيم إليها فيقول عنها بالتفصيل ابن ظهيرة في كتابه "الفضائل الباهرة في محاسن مصر القاهرة" : أنه في أيام يزيد بن حاتم والي مصر من قبل الخليفة المنصور ظهرت بمصر دعوة بني الحسن بن علي بن أبي طالب ، وتكلم بها الناس وبايع كثير منهم بني الحسن في الباطن ، وماجت الناس بمصر وكاد أمر بني الحسن أن يتم ، والبيعة كانت باسم علي بن محمد بن عبد الله ، وبينما الناس في ذلك قدم اليزيد برأس إبراهيم ابن عبد الله في ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة فنصب في المسجد أيامًا[١] .

(١) ابن ظهيرة - الفضائل الباهرة في محاسن مصر القاهرة .

وبطبيعة الحال ، فإنه حينما وصلت رأس هذا الإمام إلى مصر وبالطريقة التي رؤها مناسبة لذلك ، تم رفعها على باب الجامع الكبير وهو جامع عمرو بن العاص ، إلا أن المصريين وكعاداتهم وتكريمًا لآل البيت ، قد احتالوا على ذلك من أجل الحصول على هذه الرأس ودفنها في مكان يليق بها ، هذا المكان الذي ضم هذه الرأس والموجود حاليًا بحي المطرية ، كما يوجد بداخل مسجد معروف لكل أهل مصر منذ تلك الفترة .

ولسوف يكون لنا معه حديث في بعض التفاصيل من أجل أن تكتمل الفائدة، هذه التفاصيل التي رأينا فيها بعض الخلافات فيما يخص مكان وجود هذا المدفن ، حيث ذكر ابن ظهيرة في كتابه المشار إليه من قبل أن مسجد التبر المدفون فيه رأس الإمام إبراهيم الجواد والمعروف أيضًا بمسجد الجميزة هو في طريق الجب ، حيث بنى عليه المصريون مقامًا عندما أرسل رأسه أبو جعفر المنصور إلى الأمصار فأخذه أهل مصر ، ودفنوه في هذا الموضع .

أما عن سبب تسمية هذا المسجد بمسجد التبر أو مسجد تبر، فيرجع وفق ما ذكره المقريزي أنه نسبه إلى تبر.. وكان أحد الأمراء الأكابر في أيام كافور الإخشيدي .

ولما قدم جوهر القائد من المغرب بالعساكر وفق ما رواه المقريزي ثار تبر الإخشيدي في جماعة من الكافورية والإخشيدية وحاربه فانهزم بمن معه أسفل الأرض ، فبعث جوهر يستعطفه ، فلم يجب وأقام على الخلاف فسير إليه عسكرًا حاربه بناحية صهر جت ، فانكسر وصار إلى مدينة صور التي كانت على ساحل البحر فقبض عليه بها وأدخل إلى القاهرة فسجن إلى صفر سنة ستين وثلاثمائة ، فاشتدت المطالبة عليه وضُرب بالسياط وقُبضت أمواله وحُبس عدد من أصحابه بالمطبق من القيود إلى ربيع الآخر ثم خرج وأقام أيامًا مريضًا ومات .

ويؤكد المقريزي فيما رواه أيضًا : أنه تم سلخ جلده بعد موته وصُلب عند كرسي الجبل ، أما ابن عبد الظاهر فقال إنه قد حشي جلده تبنًا وصلب فربما سمي مسجده باسم التبن أو التبر.

وفي كتاب السخاوي "تحفة الأحباب وبغية الطلاب" قال : وقد ظل هذا المسجد يعرف باسم مسجد تبر إلى عهد بعيد ثم تحول إلى زاوية صغيرة ثم اندثرت المباني وبقيت التربة فقط ، ومن عهد قريب تطوع الأهالي ببنائه فأعيد إلى شبه حالته سنة ١٩٢٢م ، وهو باق إلى الآن بالمطرية بشارع البرنس ماهر ، ويعرف حاليًا باسم جامع إبراهيم وعليه ضريح يُزار ، ولكن بعض العامة تقول إنه إبراهيم الدسوقي وهذا خطأ بطبيعة الحال .

وتؤكد الدكتورة سعاد ماهر أن سبب اختيار جهة المطرية كي تكون مقرًا لرأس الإمام إبراهيم الجواد ، هو إبعاد الناس عن زيارة مقبرته حتى تخمد الثورة وتضعف دعوة العلويين ، إذ كانت منطقة المطرية في ذلك الوقت منطقة مهجورة وغير مسكونة لبعدها عن مركز العاصمة والتي كانت آنذاك الفسطاط ثم العسكر ، كما أن مقابر المسلمين في ذلك الوقت كانت تمتد عند سفح جبل المقطم . ومما يوحي بأهمية هذه المقبرة في تلك المنطقة النائية هو اهتمام الأمير تبر ببناء مسجد بجوارها .

•• الإمام حسن الأنور والد السيدة نفيسة :

تحية تقدير للأستاذ أحمد أبو كف الذي رأيناه وقد بذل جهدًا كبيرًا من أجل التوصل لحسم الخلاف الذي استمر طويلاً بين المؤرخين فيما يتعلق بصاحب مقام أو ضريح الإمام حسن الأنور والد السيدة الطاهرة نفيسة ، وذلك في كتابه الهام والذي أخرجه للمطابع منذ عدة سنوات "سيرة آل بيت النبي في مصر" . إذ توصل أبو كف فيما بذله من جهد إلى أن الإمام حسن الأنور هو الموجود بالفعل داخل ضريحه بالقرب من جامع القراء بين القلعة وجامع عمرو بن العاص .

ليس ذلك فقط ، بل إن هذا الضريح قد ألحق بمسجد حسن الأنور والموجود في المكان نفسه المشار إليه ، والذي أكد موقعه المؤرخون من الذين قالوا أنه موجود حاليًا في المنطقة المسماة بخرطة أبو السعود بمصر القديمة ، من جهة سور القاهرة في الطريق إلى مسجد عمرو بن العاص .

وكما تعودنا فوق هذه الأوراق فإننا سوف نخصص جزءًا يسيرًا من كلماتنا هنا للحديث عن صاحب هذا المقام وهذا الضريح لأنه ينتمي إلى آل بيت رسول الله ﷺ وتحيته من هذا الجانب واجبة علينا جميعًا ، ذلك لأن الوقوف على بعض لمحات من سيرة حياة هذا الإمام أو ذاك يوضح لنا مكانته وقدره ، وبالتالي يزداد في داخلنا تقديرًا وإعزازًا ، ومن أولويات ما يجب علينا الوقوف أمامه طويلاً هو حديث ميلاده ونشأته وصولاً إلى علمه وأفكاره ، خاصة وأننا قد عرفنا أن هذا الإمام الجليل قد استطاع أن يحقق في حياته الطويلة عدة طموحات سواء في سيرته الدينية أو العلمية أو السياسية أو حتى الاقتصادية .

أما من حيث حديث الميلاد والنشأة فتقول المصادر التاريخية أنه ولد في عام ٨٣هـ وأن أمه أم ولد وأبيه كان يدعى الإمام زيد بن الحسن السبط .

وأم ولد لمن لا يعرف هى في الأصل كانت جارية ومن ثم يتم عتقها ليتزوجها .. وكانت تلك من العادات المتوارثة والمتأصلة لدى العرب آنذاك ، هذا ما أكد عليه المقريزي فيما كتبه عن هذا الإمام الجليل .

كما أكدت بعض المصادر الأخرى على أن الإمام الحسن الأنور قد نشأ في بيت جده الكريم ، فقرأ القرآن وحفظ الأحاديث النبوية كما كان كثير الصلاة والصيام، مع زهد مشهور عنه وورع وتقوى وصلاح مثلما كان بقية آل البيت ، ولذلك قد فتح الله عليه بالعلم الغزير حتى صار إمامًا وعالمًا ومرجعًا للعديد من تلاميذه ومريديه خاصة عندما كان يقيم في المدينة ، وقد التصقت به كل هذه الصفات حتى كانت تسبقه حيثما كان يذهب .

ليس ذلك فقط ، بل وتحدثنا المراجع والمصادر التاريخية عن أن هذا الإمام الجليل قد فاز في حياته بألقاب كثيرة ، وقد اشتهر بها وكان منها على سبيل المثال : شيخ الشيوخ ، وشيخ بني هاشم، والتابعي ، والأنور ، والنابه والعالم والعابد والفاضل والشريف ، وكان من ثقاة رواة الأحاديث الشريفة ، ويقال في هذا السياق أنه كان من بين تلاميذه كل من الإمام مالك بن أنس وكذلك محمد بن إسحاق . أما فيما يخص ما قيل عن شيوخه فقد ذكرهم الإمام ابن حجر ، وقال كان من منهم أبوه الإمام زيد وابن عمه عبد الله بن الحسن ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر .

وكما سبق وذكرنا ووفقًا لما أشار إليه أيضًا أبو كف ، فإن هذا الإمام الجليل قد تفوق في ميادين كثيرة ومتنوعة تم حصرها في ثلاثة هى : أولاً حياته الدينية والعلمية ، وقد جمعت العديد من الكتب مآثر هذا الإمام الجليل فيما يخص علمه وريادته الدينية ففي كتاب الذهبي "ميزان الاعتدال" ذكر أن الإمام حسن الأنور قد روى أحاديث عن جده النبي الكريم ﷺ وما جاء في كتابه المرتضى "الفرائد ودور القلائد" بشأن إتقانه للفتوى إذ رأى ووفقًا لإحدى هذه الفتاوى: أن وضع الطيب قبل الإحرام جائز شرعًا .

وفي كتاب "الكامل" للمبرد هناك إشارات مضيئة بشأن رأيه في بعض مسائل الحج والتي أخذ بها فيما بعد معظم الفقهاء ، وما جاء أيضًا في كتاب "معجم البلدان" بشأن تشدده في الدين وتألقه كناقد للشعر ومتذوق له وحافظًا لكثير من أبياته .

وأما فيما يخص ما قيل ثانيًا بشأن حياته السياسية ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه قد

استطاع أن يصل إلى منصب الولاية في دولة كانت تضطهد العلويين وتتوجس منهم خيفة بدليل أنه في عام ١٥٠ هجرية تولى إمارة المدينة المنورة من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ، وكان حسن الأنور قد بلغ حينئذًا ٦٧ عامًا ، وظل واليًا على المدينة لمدة خمس سنوات ، وهناك بعض الكتب التي نسبت إليه أنه كان أول من لبس السواد شعار العباسيين ، تأييدًا لهم وتدعيمًا لدولتهم، ومع ذلك فقد عُزل من هذه الولاية ومن ثم ألقوا به في السجن ، وصادروا كل أملاكه حتى تولى الخليفة العباسي المهدي الخلافة فأخرجه من سجنه وأعاد إليه كل أمواله ، ويقال أن سبب ذلك هو أن هذا الخليفة كان يعرف أقدار الرجال من ناحية وأقدار آل بيت رسول الله ﷺ من ناحية أخرى .

هذا وقد قضى الإمام الحسن الأنور في سجنه نحو عامين وأن ذلك كان سبب خروجه من منصبه كوالي .. بعد وشاية من أحد أعدائه داخل بلاط الدولة العباسية من الذين كانوا يتوجسون خيفة من آل البيت .

ورغم انشغال هذا الإمام الجليل سواء بحياته الدينية أو السياسية إلا أنه لم ينس حياته العامة والتي شهدت نجاحه اقتصاديًا ، وهو ما يمثل القسم الثالث من مسيرة حياته إذ رُوى أن الإمام الحسن الأنور كان يمتلك قصورًا في المدينة المنورة ، وكان الناس يقصدونه من كل مكان طمعًا في كرمه ومساعداته لهم ، كما كانت له تجارة رابحة حتى أنه أراد توسعة جامع رسولنا الكريم وهو المسجد النبوي الشريف على نفقته الخاصة ، ولكن الخليفة المنصور عارض ذلك ورفضه.

وبشكل عام ووفق إجماع كل المصادر تقريبًا نقول إن هذا الإمام الجليل والذي ينتمي إلى الرعيل الأول داخل آل البيت الشريف كان يتمتع أيضًا بالعديد من الصفات التي تفرد بها دون غيره إذ ا شتهر بالعطاء ، وبالتالي لم يكن يرد أصحاب الحاجات .

والحديث عن هذا الإمام الجليل بطبيعة الحال لا يكتمل إلا بالإشارة تفصيلاً إلى مقبرته ومقامه وضريحه ، والذي حظى به تراب أرض مصر .

ولقد سبق لنا ونوهنا عند الحديث عن ابنته السيدة نفيسة أن والدها الحسن الأنور قد صاحبها عند مجيئها إلى مصر وبعض المصادر قد أشارت إلى عودته مرة أخرى إلى المدينة .

كما أن هناك مصادر أخرى أكدت على أنه عاد من جديد إلى مصر وظل يعيش بها حتى توفاه الله ودفن تحت ثراها. وإذا ما ثبت أنه قد عـاد فعلاً إلى مصر ، فإن توقيت ذلك إنمـا جاء بعد خلعه من ولايته على المدينة وبعد خروجه من السجن ورد جميع أمواله إليه .

ولعلي وبإحسـاس شخصي يميل كـثيرًا ناحيـة حب رسولنا الكريم وآل بيتـه الكرام ، أقول إن الحسـن الأنور قد قدم إلـى مصر واختـارها دار بقـاء إلى يوم القـيامة ، بـعدما تعـرض لكثيـر من المشاكل وما وقع له من أزمات في حياته السياسية والتي انتهت به وكما ذكرنا في ظلمات السجن، وكان يهدف من وراء ذلك أن يستـريح من عناء العمل السياسي والتفرغ للعبـادة فوق أرض سبقه إليها العديد من آل البيت .

ومما يؤكد ما تـوصلنا إليه من نتائج أن إلى ابن خلكان في كتـابه "وفيات الأعيـان" قد ذكر أن هذا الإمام قـد مات في مـصر سنة ثمـاني وستين ومـائة من الهجـرة وعمره كـان في ذلك الوقت خمسًا وثمانين سنة ، وكذلك ما ذكره الشيخ عبد الخالق سعد في كتابه "الجواهر النفيسة" . والذي أكد هو الآخر على استمرار وجود الإمام الحسن الأنور في مصر والتي عاش بها حتى مات ودفن في ضريحه الموجود حاليًا والملحق بمسجده ، ومما قاله هذا العـلامة في هذا السياق : إن معيشته في مصر قد بدأت من يوم السـبت السادس والعشرين من شهر رمضـان سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجـرة . إلا أن أحمد أبو كـف قد أشار إلى أن هذا القـول يحتاج إلى تمحـيص بسبب اخـتلاف التواريخ .

أما الشيخ عبد الغـفور محمود جعفر شيخ جـامع الحسن الأنور والذي يبحث دائمًا في تاريخ هذا المسجد فـيقول في السيـاق نفسه ووفق لما أورده أحمـد أبو كف ، أن هناك مخطوطًا ينقل عن ابن النحوي قصة طويلة مفادها أن الحسن الأنور قد توفي في ريف مصر ونقل جثمانه إلى مسجده الحالي.

وفيما يتعلق بالتسلسل التـاريخي لما لحق بهذا المسجد من تطورات أدت به إلى الحال الذي هو عليهـالآن ، فقد ذكر علي مـبارك في خططه أن أول من عمـر هذا المسجد هو القاضي فـخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش وتم ذلك باسم ا لملك مـحمد بن قلاوون ، وانتهى من عمارته في سنة ٧١٢ هجريـة ، ثم جاء العصـر العثمـاني ما وقع لهـذا المسجد أيضًـا في العصـر الحديث من

تجديدات شارك فيهـا أهالي الحي الذي يقع فيه مسجد الإمام الحسن الأنور في منطقة أبو السعود بمصر القديمة .

•• الإمام عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن :

ولعلنا نختم هذه الرحلة المباركة ، وهي رحلة الحديث الذي دار حول الأماكن التي قُبر فيها آل البيت من الأحفـاد وذلك بالوقوف ولو لـلحظات أمام ضـريح الإمام عـبد الله المحض بن الإمـام الحسن المثني بن الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه .

ورغم أن سيرته العطرة لم يتم تناولها بالتـفصيل المطلوب ربما لقلة المصادر المروية عنه ، إلا أنه قد حظي باهتـمام بعض المؤرخين من الذين أشـاروا إلى أنه كان من بين عتـرة آل البيت من الذين ذاقوا وبال ذلك الصراع السياسي الذي امتد لقرون طويلة بين العلويين وبين كل من بني أمية وبني العباس خاصة الذين نجحوا في تولي الخلافة بعدما أقصوا عنها آل علي بن أبي طالب.

وبالنسبة لعبد الله المحض فـيبدو أن كلمة المحض والتي ارتبطت بحياته كان سبـبها إخلاصه لله في عبادته له .

وهذه الصفة لم تكن غريبة أبدًا عليه لأنه أحد أحفاد نبينا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، وأمه هي« السيدة فاطمة ا لنبوية ابنة الإمام الحسين . صاحبة المقام والضريح والمسجد الموجود أيضًا في مصر ، وكـما نعرف كانت هي الأخـرى من أعمدة آل البيـت من الذين اختاروا مصـر للإقامة فيها ، والموت أيضًا فوق أرضها .

وتقول المصادر التي تناولت سيرة هذا الإمام العطرة أنه حين كبر أصبح قريب الشبه إلى درجة كبيـرة بجده رسول الله ﷺ ، كمـا اشتهـر بالتقوى والورع والصـلاح ، كما كـان من بين آل البيت الذين حـملوا لقب شيخ بنـي هاشم ، ولذلك نراه قد أسندت إلـيه مـهمـة توزيع الصدقـات على مستحقيها من بعد أبيه الحسن المثني .

وفيما يخص حديث وفاته ، فقد قيل إنه مات مع بعض أقاربه في عام ١٤٥هـ ، بعد أن سجنه أبو جعفر المنصور الخليفة الثاني للعـباسيين ويكون بذلك قد أصبح مثل أبيه إبراهيم الجواد والذي أطيح برأسه في صراعه مع العباسيين ومن ثم تم نقلها إلى مصر .

ويقال إنه عندما توفي هذا الإمام تم نقل جثمانه أيضًا إلى مصر كي يدفن على أرضها مثل أبيه إبراهيم الجواد ، ولذلك أقيم له ضريح بشارع الشيخ ريحان التابع لقسم عابدين بوسط القاهرة وله كثير من الزائرين الذين دأبوا على إقامة شعائر الصلاة في هذا الضريح ومن ثم ألحق به أيضًا مسجد صغير .

ولقد لاحظنا أن هناك بعض المصادر المروية وأغلبها مصادر شيعية قد تحدثت عن هذا الإمام وعن علمه وورعه وتقواه ، ومن هؤلاء أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني والذي ألف كتابًا بعنوان "مقاتل الطالبين" تحدث فيه عن بعض صفات هذا الإمام الجليل ، والتي رواها من خلال نقله لأحاديث إناس كثيرون قابلهم وكانوا على مقربة من هذا الإمام .

ليس ذلك فقط ، بل وأشار الأصفهاني كذلك إلى أسباب تسميته بالإمام عبدالله المحض . حيث قال عن ذلك : إنما سمي بهذا الاسم لأن أباه الحسن بن الحسن المثني وأمه فاطمة بنت الحسين ، وكان يشبه رسول الله ﷺ ، كما كان شيخًا لبني هاشم ، وبجانب ورعه وتقواه فقد كان أيضًا شاعرًا كبيرًا .

وفيما يخص عائلته .. وأولاده فقد ذكرهم الأصفهاني أيضًا وهم ستة رجال أشداء ينتسبون كذلك إلى آل البيت من الأجيال التي جاءت بعد هذا الجيل الرائد . ومن بين هؤلاء قال الأصفهاني : محمد النفس الذكية وإبراهيم قتيل باخمري وإدريس الأول وأمه عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومي ، وموسى وسليمان ويحيى.

وأما عن حياته السياسية والتي أدت به إلى غياهب السجون فيحكي لنا جانبًا منها أيضًا الأصفهاني في كتابه المشار إليه من قبل عندما قال : لما قدم أبو العباس السفاح وأهله سرًا على أبي سلمة في الكوفة ، سترهم وستر أمرهم وعزم أن يجعلها شورى بين أولاد علي وأولاد العباس حتى يختاروا هم من أرادوا ، ثم قال : أخاف أن يتفقوا ، فعزم على أن يسند هذا الأمر إلى ولد علي بن الحسن والحسين ، فكتب إلى ثلاثة نفر منهم وهم جعفر بن محمد بن علي بن الحسين وعمر بن علي بن الحسين وعبد الله بن الحسن ، ووجه بالكتب مع رجل من مواليهم من ساكني الكوفة فبدأ بجعفر بن محمد فلقيه ليلاً وأعلمه بأنه رسول أبي سلمة وأن معه كتابًا إليه منه ، فقال: وما أنا وأبو سلمة وهو شيعة لغيري؟! فقال الرسول : تقرأ الكتاب وتجيب عليه بما رأيت ،

فقال جعـفر لخادمه : قدم منى السراج ؛ فقـدم فوضع عليه كتاب أبي سلمة فأحـرقه! . فقال : ألا تجيبه؟ قال : رأيت الجواب ، فخرج من عنده وأتى عبـد الله بن الحسن فقبل كتابه ورجع إلى جعفر بن محـمد ، فقـال له : أي أمر جاء بـك يا أبا محمـد ؟ لو علمتني لجئـتك ، فقـال : أمر يجل عن الوصف ، قال : وما هو يا أبا محمد؟ قال : هذا كتاب أبي سلمة يدعوني لأمر ويراني أحق الناس به ، وقد جاءته شيعتنا من خرسان ، فقال له جعفر الصادق ومتى صاروا شيعتك ، أنت وجهت أبا سلمة إلى خرسان وأمرته بلبس السواد ، فهل تعـرف أحدًا منهم باسمه ونسبه؟! . وكيف يكونون من شيعتك ولا تعرفهم ولا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : إن كان هذا الكلام منك لشيء فقال جعفر: قـد علم الله أني أوجب على نفـسي النصح لكل مـسلم فكيف أدخره عـنك؟! ، فلا تمنين نفـسك لأباطيل، فإن هذه الدولة ستـتم لهؤلاء القوم ولا تتم لأحد من آل أبي طالب ، وقد جـاءني مثل ما جاءك ، فـانصرف غـير راض بما قاله ، وأمـا عمـر بن الحسين فـرد الكتاب وقال مـا أعرف كـاتبه فأجيبه، ومات عبد الله المحض في حبس أبي جعفر المنصور مخنوقًا! .

والغرب أن هذا الإمام الجليل قـد حظي بكتابات تاريخية عديدة خاصـة عن أيامه الأخيرة ومما قيل عنه في هذا السياق أنه قتل في محبسه بالهاشمية وهو ا بن خمس وسبعين ، في السنة الخامسة والأربعين ومائة وفي يوم عيد الأضحى .

وأبو الفرج الأصفهـاني قد حدثنا كذلك وبالتفصيل عن هذا الحـادث الذي أودى بحياة الإمام عبد الله المحض .

ومما حكاه في هذا السيـاق قوله : عن عمر بن أبي زيد عن عـيسى بن عبد الرحـمن بن عمران عن أبي فروة قال: كنا جلـوسًا مع فلان وذكر اسمــه الذي كان يتولى حبس عبـد الله ، فإذا برسول قد قدم من عند أبي جعفـر المنصور ومعه رقعة فأعطاها ذلك الرجل الذي كـان يتولى الحبس لعبد الله وإخـوته وبني أخيـه ، فـقرأها وتغـيـر لونه وقام متـغيـراللون مـضطربًا وسقـطت الرقعـة منه لاضطرابه. فقـرأناها فإذا فيـها : "إذا أتاك كتـابي هذا فانفذ في مـذلة ما آمرك به" ، وكـان المنصور يسمى عبد الله بن الحسن بالمذلة، وغاب الرجل ساعة ثم جـاء متغيرًا مضطربًا منكرًا فجلس مفكرًا لا يتكلم ثم قال : ما تعدون عبد الله بن الحسن فيكم؟ فقلنا والله خير من أظلت هذه ، وأقلت هذه. فضرب أحد يديه على الأخرى ، وقال : قد والله مات .

وتوفي عبد الله الذي كان يتولى صدقات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعد أبيه الحسن ونازعه في ذلك زيد بن علي بن الحسين[1] .

ثم يصور لنا ابن كثير في كتابه "البداية والنهاية".. أيضًا أخريات أيام هذا الإمام الجليل حيث ذكر أن المنصور قد أخذه وأهل بيته مقيدين من المدينة إلى الهاشمية فأودُع السجن الضيق فمات أكثرهم ، وكان عبد الله بن الحسن .. أول من مات فيه بعد خروج محمد من المدينة ، وقيل إنه قتل في السجن عمداً وكان عمره يوم أن مات خمسًا وسبعين عامًا ، وصلى عليه أخوه الحسن بن الحسن[2] .

(١) مقاتل الطالبين – أبو الفرج الأصفهانى .
(٢) البداية و النهاية لابن كثير .

الفصـــل الثالث

أولياء الله من آل البيت

لو أخذنا نتحدث عن مراتب آل البيت من حيث درجات التحاقهم بهذا الشرف العظيم . سوف نكتشف أننا استطعنا التوصل إلى وجود عدة درجات أو مراتب داخل هذا البيت الكريم . وقد سبق لنا الإشارة ثم التناول بالتفصيل المطلوب للمرتبة الأولى من آل البيت النبوي وهم زوجاته الكرام أمهات المؤمنين وكذلك أولاده وبناته وأزواجهن ، كما تحدثنا أيضًا عن المرتبة الثانية والتي تبوأها الأحفاد المباشرين لهذا النبي الكريم خاصة من ابنته السيدة فاطمة الزهراء وزوجها الإمام علي بن أبي طالب .

هؤلاء الأحفاد والحفيدات اللاتي أقمن في المدينة، مع هجرة البعض إلى خارج الحجاز خاصة إلى مصر ، واستمرار إقامتهم في هذا البلد الأمين إلى يوم الرحيل ، ثم تحدثنا كذلك عن الجيل الثالث من هؤلاء الأحفاد من الذين هاجروا كذلك إلى مصر وأصبح لوجودهم مكانًا بارزًا فوق أو تحت هذه الأرض الطيبة . وكان هؤلاء من نسل أحفاد النبي ، وقلنا أننا قد قدمنا نماذج لهؤلاء وفق ما حدثتنا عنه المصادر التاريخية الموثوق بها .

وبعد مرور سنوات طويلة اكتشفنا أن هناك مراتب أخرى ودرجات جديدة داخل بيت آل النبوة . هؤلاء الذين أصبح يمثلهم عدداً لا بأس به من أولياء الله الصالحين من الذين هاجروا إلى مصر واتخذوها دار إقامة سواء في الدنيا أو في الآخرة .

صحيح يوجد فوق أرض مصر العشرات ، بل والمئات من هؤلاء الأولياء الذين يحتلون مكانة ممتازة داخل قلوب وعقول كل المصريين ، وأضرحتهم ومساجدهم ومشاهدهم خير شاهد على ذلك . ولقد سبق لنا الحديث عن مظاهر الحب والاحتفاء بهؤلاء جميعًا .

وفي هذا الفصل سوف نتحدث عن خمسة من أولياء الله الصالحين من الذين ينتمون إلى الجيل الأخير من الأجيال التي تدخل في بيت آل النبوة . وهم الإمام الشافعي ، صاحب المقام

والضريح والمسجد المشهور في مصر القديمة ، ثم الإمام السيد البدوي والذي جاء إلى مصر واستوطن مدينة طنطا ، وكذلك الإمام وولي الله إبراهيم الدسوقي الذي سكن مدينة دسوق بكفر الشيخ ، والإمام الحسن الشاذلي الذي أقام في الإسكندرية طويلاً ولكنه توفي وهو في طريقه إلى الحج في منطقة بالصحراء بين مدينة قنا والقصير تعرف بالحميثره . وأخيرًا الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي عاش في القاهرة ومات بها ثم انتقل جثمانه كي يدفن في بلدته دقدوس بالدقهلية .

هؤلاء ا لخمسة من أولياء الله الصالحين سوف يكون الحديث عنهم وعن حياتهم وعلمهم ومقامهم وأضرحتهم خير ختام لحديث طيب مبارك اقتربنا فيه لمسافات قليلة من أعتاب البيت النبوي الكريم وما أقام به من إناس طيبين حفل بهم التاريخ الإسلامي وبأعمالهم أيضًا.

والبداية سوف تكون مع هذا الإمام الجليل ، أحد أصحاب المذاهب الأربعة وهو :

•• الإمام محمد بن إدريس الشافعي :

على كثرة ما كتب عن هذا الإمام الجليل باعتباره أحد أولياء ا لله الصالحين وأحد أصحاب المذاهب الأربعة ، إلا أننا وجدنا أن ما كتبه الدكتور أحمد عمر هاشم عن هذا القطب الجليل هو من خير ما كُتب عن هذا الإمام ؛ ولذلك سوف نفرد لما كتبه عنه الصفحات تلو الصفحات مع الاستعانة بالله أولاً وبما كتبه غيره عن هذا الإمام سواء في كتب المحدثين أو القدامى .

ويبدأ الدكتور أحمد عمر هاشم حديثه عن هذا الإمام بقوله : من كُتب السنة التي وصلت إلينا ، مما صنف في هذا العهد "مسند" الإمام الشافعي رحمه الله تعالى وقبل أن نوضح عناية الإمام الشافعي بالسنة نعرف به (١) .

ويقول الدكتور أحمد عمر هاشم عن هذا الشيخ الجليل : إنه أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان شافي بن السائب ، ويلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف ، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ وتوفي والده وهو صغير ، فنقلته والدته إلى مكة المكرمة وهو ابن سنتين .

ومن قبل الاسترسال في الحديث عن حياة هذا الولي الجليل .. رأينا من الضروري أن نعرف

(١) المحدثون في مصر والأزهر ودورهم في إحياء السنة النبوية الشريفة – د. أحمد عمر هاشم .

مهفوم الولاية وارتباطها بهؤلاء الناس الطيبين الصالحين . خاصة وأن الخمسة الكبار الذين أشرنا إليهم في بداية حديث هذا الفصل ، يتمتعون أيضًا بمنزلة مهمة إذ يقتربون لمسافات قليلة من آل البيت باعتبارهم من أحفاد هذا البيت . إذن هم قد جمعوا بين كونهم أولياء ، بالإضافة إلى قرابتهم من آل البيت .

ويبدو أن التساؤل عن معنى الولي والولاية قد سبقنا إليه آخرون من الدارسين والمؤرخين أيضًا ، والكاتب الصحفي سعيد أبو العينين يشير إلى ذلك فيما سطره عن هؤلاء الأولياء في مصر، وردًا على ما طرحه من سؤال ، قال : لقد طرح السؤال على العلماء والفقهاء الذين قدموا اجتهاداتهم ، وقالوا في هذا السياق : إن الرسول هو من "والى" الله بالطاعات . فإذا واليت الله بالطاعة ، فأنت "ولي" . ويكون الله وليًا لك ، أي يتولاك بالرعاية والعناية[1] . لقوله تعالى :

﴿ والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ﴾ .

وقالوا أيضًا : الولي هو العارف بالله ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات .

وقالوا : الولي هو ممن قال عنهم رسول الله : "إن من عباد الله عبادًا ما هم أنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانتهم عند الله ، قالوا : يا رسول الله أخبرنا من هم ؟ . وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وأنهم على منابر من نور ، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس" .

وقالوا أيضًا : إن اسم الولي مأخوذ من قوله تعالى :

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ﴾ .

ويضيف سعيد أبو العينين أن الولي في اللغة معناه القريب ولذلك فإن العبد إذا ما كان قريبًا من الله بكثرة طاعته وبإخلاصه ، كان الله قريباً منه برحمته وفضله ورضاه .

والخمسة الكبار الذين هم ضيوف هذه الأوراق ، لا شك تنطبق عليهم جميعًا كل هذه

(١) رحلة أولياء الله في مصر المحروسة - سعيد أبو العينين .

الأوصاف ، ليس لطاعتهم لله فقط ، بل ولما قدموه من خدمات جليلة للإسلام ، وكل هذه الصفات المحمودة ، تجعلنا نعاود وبسرعة الحديث عن أحد هؤلاء الأولياء المخلصين لله في دينهم وفي دنياهم ، وهو الإمام الجليل سليل آل البيت الإمام الشافعي والذي ملأ الدنيا بورعه وعلمه وفقهه.

ولا شك أن رحلة هذا الإمام وحياته وعطاءه الدائم تستحق من كل منا الوقوف على تفاصيلها لمعرفة مدى ما قدم للإسلام من خدمات جليلة ، ما زالت آثارها باقية إلى اليوم . هذه الرحلة الإيمانية لم تبدأ من فراغ بل كانت تزود من أن لآخر سواء بالعلم أو بالمعرفة بدليل أن هذا الإمام الجليل عندما انتقل للعيش بمكة المكرمة تفرغ لحفظ وتلاوة كتاب الله حتى حفظه عن ظهر قلب وهو في العاشرة من عمره ، هذا الحفظ المبكر للقرآن الكريم لا شك ساهم كثيرًا في إتقان الإمام الشافعي اللغة والشعر . كما استمع لدروس الفقه والحديث من الإمام مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة وغيره من العلماء الذين كانوا منتشرين في كل ربوع هذا البلد الأمين .

أما في المدينة ا لمنورة فقد أخذ العلم عن الإمام مالك وقرأ عليه الموطأ . كما أخذ من غيره من علماء المدينة . ولم يقتصر ذلك على شغفه بالعلم والعلوم .. بل شارك بأعماله في ميدان السياسة عندما تولى العمل في إحدى ولايات اليمن . ولكنه سرعان ما عاد منها إلى بغداد بعدما اتُهم بالتشيع والدعوة لآل البيت، ولما تمت تبرئته أخذ يتنقل في مدن إسلامية كثيرة . حتى استقر به المقام في مصر في عام ١٩٩هـ ، وقد ظل يعيش بها حتى توفاه الله عام ٢٠٤هـ .

ويبدو أن الإمام الشافعي كان قد سجل بعض لقطات من حياته بقلمه وفي أوراقه فنراه يقول عن طفولته على سبيل المثال : "كنت يتيمًا في حجر أمي ، ولم يكن معها ما تعطي المعلم ، وكان المعلم قد رضى مني أن أخلفه وأسير خلفه إذا قام . فلما ختمت القرآن دخلت المسجد ، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة . وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف ، فكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث والمسألة ، وكانت لنا جرة قديمة ، فإن امتلأ العظم طرحته في الجرة"[(١)] .

•••

وعلى إثر الحديث عن علمه الذي تلقاه في كل من مكة والمدينة نريد أن نؤكد على صلته

(١) محمد بن إدريس الشافعي – سعد القاضي .

الوثيقة بآل البيت وصاحبه عليه الصلاة والسلام .. فمن ناحية النسب هو ابن عم رسولنا الكريم إذ يلتقي معه في عبد مناف وهو الجد الثالث لسيدنا رسول الله ﷺ ، والجد التاسع لمولانا الإمام الشافعي والذي كان يدعى أيضًا بالمطلبي لانتمائه إلى عبد المطلب .

وإلى جانب ثبوت مطلبيته ثم هاشميته من جهة الأب يثبت العلماء هاشميته وشرف نسبه كذلك من جهة الأم فيذكر البيهقي : لا أعلم هاشميًا ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب ثم الشافعي رضى الله عنه ، فأم علي رضي الله عنه هى فاطمة بنت أسد بن هاشم وجدة الشافعي هى الشفاء بنت أسد بن الحسن . ليس ذلك فقط ، بل جاء في طبقات الشافعية للسبكي أن هناك العديد من الروايات التي أكدت على أن أم الإمام الشافعي هاشمية وبالتالي فهو إذن من آل البيت

وكما أن هناك العشرات من المصادر التاريخية التي حدثتنا عن هذا الإمام الجليل وعن نشأته ونسبه ، حدثتنا كذلك عن علمه الذي أهله كي يكون أحد الأئمة الأربعة من أئمة أهل السنة من الذين أصبح لهم مذهبًا دينيًا مشهورًا ومعروفًا . وهناك رواية أوردها الدكتور أحمد عمر هاشم فيما كتبه عن الإمام الشافعي وارتفاع قدره وعلمه فيمن كانوا حوله .. هذه الرواية قال بها الربيع ابن سليمان أحد الذين عاصروا هذا الإمام الجليل : كان الشافعي رحمه الله تعالى يجلس في حلقته فإذا صلى الصبح ، فيجئه أهل القرآن ، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعانيه ، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا ، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار ثم ينصرف رضي الله عنه .

وبطبيعة الحال كان هذا الإمام الجليل بجانب علمه الغزير كثير العبادة فقد كان يقسم ليله إلى ثلاثة أجزاء وفق ما أشار إليه الإمام الشعراني . الأول والثاني يصلي والثالث ينام .

ومن قبل مجيئه إلى مصر والاستقرار بها نهائيًا .. كانت للشيخ الإمام جولات عديدة في عدد من البلدان الإسلامية مثل اليمن والعراق التي زارها ثلاث مرات ، وقد تركها في أواخر سنة تسع وتسعين ومائة هجرية متجهًا إلى مصر التي أقام بها حتى توفي عام ٢٠٤هـ . وفي مصر كما يقول الدكتور أحمد عمر هاشم ، كان مذهبه الجديد ، وكانت مصنفاته الخالدة التي رواها عنه تلاميذه . مثل كتاب الأم والرسالة وكتاب السنن . ونظرًا لأن عنايته قد امتدت بتفوق إلى السنة لذلك سمى أتباع مذهبه بأصحاب الحديث .

وكما أسلفنا فإن الإمام الشافعي قد استقر به المقام في مصر التي قضى بها خمس سنوات، وتوفي في خلافة عصر المأمون في بيت عبد الله بن عبد الحكم وذلك في ليلة ا لخميس من شهر رجب، ودفنه بنو عبد الحكم في قبورهم وصلى عليه السري أمير مصر . ولقد أشرنا من قبل أن هذا الإمام الجليل قد عاصر السيدة نفيسة رضي الله عنها ، بل وكثيرًا ما كان يلتقي بها قبيل وفاته .

أما فيما يخص حديث مسجده فله قصة يرويها علماء الآثار الإسلامية وعلى رأسهم الدكتورة سعاد ماهر.

ضريح ومسجد الإمام الشافعي :

كنا قد ذكرنا آنفًا أن الإمام الشافعي عندما جاء إلى مصر قد نزل ضيفًا على الفقيه المالكي المصري ابن عبد الله بن الحكم منذ عام ١٩٩هـ ، وظل يقيم بهذا البيت حتى توفي في آخر شهر رجب عام ٢٠٤هـ . ومن ثم دفن في مقابر أولاد بن عبد الحكم بالقرافة الصغرى وهم أول من أقاموا فوق قبره قبة جددها صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٧٢هـ ١١٧٦م . وكان في ذلك الوقت قد شرع في بناء المدرسة الصالحية بجوار ضريح الإمام الشافعي . كما شيد بجوار هذا الضريح مسجد الإمام الشافعي والذي أول من بناه هو السلطان الكامل الأيوبي في عام ١٢١١م . هذا البناء لم يعد يبقى منه حاليًا سوى الضريح ا لخشبي المحفور برسومات رائعة . وهو يقع حاليًا بشارع الإمام الشافعي بقرافة الإمام الشافعي .

وتقول المصادر المعمارية أن ضريح الإمام الشافعي يعتبر من أكبر الأضرحة من حيث المساحة التي تبلغ ١٥ مترًا وله جدران سميكة جدًا مما جعلها مؤهلة لحمل قبة ضخمة .

أما فيما يخص مسجد الإمام الشافعي فتقول المصادر التاريخية والمعمارية أن جامع الإمام الشافعي تم إعادة بنائه في أزمان مختلفة من التاريخ الإسلامي ، فقد توفي هذا الإمام في مدينة الفسطاط ، وشيد فوق مقبرته ضريح بسيط . والجامع المعني بهذا الحديث قد تمت إقامته في نهاية القرن الماضي في عصر الخديوي توفيق ويحمل هذا المسجد العديد من سمات الفن الإسلامي الأصيل ، وهو ما يجعل منه واحدًا من أبرز وأجمل المزارات الدينية في مصر .

ومما يقال كذلك عن ضريح الإمام الشافعي أنه يضم بداخله أربعة مقابر: الأولى للشافعي والثانية لأم السلطان الكامل والثالثة للسلطان الكامل نفسه وحولها مقصورة مطعمة بالصدف أما المقبرة الرابعة فهي لمحمد بن عبد الحكم .

•• الإمام سيدي أحمد البدوي :

ويتـواصل عطاء الزمـن كي يعطي هذه الأرض الطيبـة منابت بروائـح الجنة من آثار ثمـار آل البيت من الذين اختـاروا مصـراً كمقـام لهم ، وقد تبعـهم جيل جديد مـن الذين ساروا على هذا الدرب إلى أن وطأت أقدامهم أرض مصر . فبعـد حديثنا عن الإمام الشافعي الذي أثبتت المصادر التاريخية نسبة إلى آل البيت .

نأتي للحديـث عن إمام آخر من أئمـة آل البيت في مصـر من الذين أيضًا ينتسبون إلى العـترة النبوية الشريفـة ، وهو الإمام الجليل سيدي أحمد البـدوي ، وقد حفلت صفحات التـاريخ بسيرة هذا الإمام المتـصوف . حيث ذكـرت أنه ولد بمدينة فاس بالمغـرب في عام ٥٩٦هـ . ويرجع نسـبه وأصله إلى أهل بيت النبوة .

ويقول علي عـيسى فـيما كـتبه عن تاريخ هذا الإمام الجليل أن المؤرخ الشـهير الـشيخ يونس والمعروف بابن أزيك الصوفي والذي كان معاصراً لسيدي أحمد البدوي ، أنه ولد في أوائل القرن الثامن الهجري . وأكد ذلك الإمام جلال الدين السيوطي والمقريزي وكذلك الشعراني .

ويقول علي عيسى أيضًا : إن المؤرخين قد اتفـقوا على أن أجداد البدوي هم الإمام علي وابنه الإمام الحسين والإمام علي زين العـابدين وابنه محمد الباقر وابنه جعـفر الصادق وابنه علي الرضا وابنه محمد الجـواد وابنه علي الهادي ، وهم وفقًا لهذا الترتيب مثبـتون في النسب كما روى ذلك المقريزي ، وقد هاجر أجداده إلى المغرب (١) .

أما سـعيد أبـو العينين فقـد توسع في حديث نسب هذا الولى الصـالح حيث قـال : إن الإمام البدوي قـد ولد في زقاق الحـجر بمدينة فـاس المغربية بالمـغرب الأقصى حـيث دولة المرابطين التي كانت أولى خطوط الدفاع عن العالم الإسلامي بعد سقوط الأندلس ، وكان ميلاده عام ٥٩٦هـ - ١١٩٩م ، وكان أصغر إخوته السبعة . كـما أن والده هو السيد علي البدوي الشريف العلوي وأمه هى السيدة فاطمة بنت محمد بن أحمد عبد الله والذي يتصل نسبها أيضًا إلى الإمام الحسين .

وكانت أسرة البدوي قد هاجرت من مكة إلى المغرب ، فراراً من ظلم الحجاج الثقفي ، وقالوا

(١) أولياء الله - علي عيسى .

إن تاريخ هجرة هذه الأسرة إلى المغرب كان في عام ٧٣هـ ، وقد ظلت أسرته تستوطن بلاد المغرب طيلة ٥ قرون حتى عام ٦٠٣هـ عندما قررت أسرته وعائلته العودة من جديد إلى مكة ، وكان عمر السيد البدوي في ذلك الوقت سبع سنين ، وقيل إن أسرته نزلت إلى مصر وهى في طريق العودة إلى مكة ، وكان ذلك في عصر الملك العادل سيف الدين شقيق صلاح الدين الأيوبي[١] .

ويقال كذلك إن الإمام السيد البدوي قد مكث في المدينة حتى أصبح عمره ١٨ عامًا . حفظ خلالهم القرآن الكريم ، وأخذ يتفقه في الدين عن طريق مصاحبة والده وإخوته إلى مجالس العلم والدين ، بدأ اهتمامه بمذهب الإمام مالك ثم أتم دراسته في الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام الشافعي . وقد اشتهر في هذه السن المبكرة بأنه الشيخ الزاهد . رغم أن المصادر أكدت أن أخيه الأكبر الشيخ حسن علمه فنون الفروسية ، وأصبح مشهوراً في كل من مكة والمدينة بهذه الصفة بالإضافة إلى علمه وورعه .

ولكن عندما توفي أباه وأخيه الشيخ محمد .. ازدادت رغبته في اعتزال الناس وحب الخلوة . وكان موت والده في ٦٢٧هـ . وأخيه عام ٦٣١هـ . ودفنا في باب المعلا قريبًا من مكة[٢] .

وكدأب أقرانه من علماء هذا الزمان .. رغب الإمام البدوي في الهجرة إلى الله مرة أخرى من أجل تلقي المزيد من العلم ، ومقابلة كبار العلماء ا لذين كانوا آنذاك منتشرين في العراق والتي جاء إليها مع أخيه حسن عام ٦٢٩هـ . وأقام في بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية ، وبعد عدة سنوات عاد من جديد إلى مكة وظل بها حتى رحل إلى مصر .

ويقول ا لشيخ أبو السعود الواسطي أن السيد البدوي عندما عاد إلى مكة أقام في جبل أبي قبيس ، وقد اتخذ من الصمت والعزلة وسيلته للتقرب إلى الله .

أما فيما يخص رحلته إلى مصر .. فهناك من المصادر التي أكدت أن وراء هذه الرحلة رؤيا رآها الإمام في منامه ثلاث مرات . وهذه الرؤيا المناميةلم تحدد له الرحيل إلى مصر فقط ، بل وأرشدته إلى حيث أقام في مصر في مدينة طنطا والتي كانت تعرف منذ القديم باسم "طندتا"،

---

(١) رحلة أولياء الله في مصر المحروسة – مصدر سابق .
(٢) رحلة الأولياء – مصدر سابق .

ويؤكد على ما جاء في هذه الرؤيا سعيد أبو العينين فيما كتبه مؤكداً على أن خطاب هاتف هذه الرؤيا كان يقول له في كلمات : "سراك طندتا".. فإنك تقيم بها وتربي رجالاً وأبطالاً ..

وبصرف النظر عن صحة هذه الرؤيا أو عدم صحتها .. المهم أن هذا الإمام الجليل قد آتى إلينا وأقام بيننا وفوق أرضنا .. والتي تشرفت به وبأمثاله .

إذن نحن أمام أحد أولياء الله الصالحين من آل البيت من الذين اختاروا الإقامة في مصر . وفضلوا الابتعاد عن العاصمة حيث أقاموا في الريف . إذ كانت طنطا في ذلك الوقت قرية صغيرة تقع وسط الدلتا .. وهناك العشرات من الروايات التي ، تحدثت عن أسباب اختياره لطنطا بالذات دون غيرها من مدن وريف مصر .

وبخلاف ما رواه أتباع هذا الإمام عن هذه الأسباب قال المؤرخون أن السيد أحمد البدوي فعل ما فعله غيره من شيوخ الصوفية وأعلامها الكبار من الذين وفدوا إلى مصر ، وحرصوا على أن يكون مركز إشعاعهم الديني بعيداً عن العاصمة ، وحتى تكون الفائدة كبيرة ، نظراً لأن معظم أو كل آل البيت وكذلك من ارتبطوا بهم من العلماء والفقهاء كانوا يملأون القاهرة .

ولعلي أؤيد ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون .. لأن هذا الصنف من أولياء الله الصالحين كانوا يتمتعون برؤية ثاقبة ونظر بعيد . ولم يكن لهم هدف سوى الدعوة إلى الله وجمع أكبر عدد من المسلمين المؤيدين لهم ولنشاطهم الديني حولهم . تحقيقاً لمبدأ العدالة في العالم .

ليس ذلك فقط ، بل إن مثل هذه الخطوة التي أقدم عليها هؤلاء الأولياء ا لصالحين قد نبعت من إحساسهم بأن أهل ريف مصر لم يكن لهم حظ كبير من التعليم أو العلم مثلما كان أقرانهم من أهل العاصمة . ومن هنا نرى أنهم قد نجحوا نجاحاً باهراً فيما أقدموا عليه . وربما فكر هؤلاء الأولياء أيضاً في الابتعاد عن مركز السلطة والسلطان وحتى لا ينشغلوا إلا بذكر الله والدعوة لعبادته بصدق وإيمان ويقين .

المهم أن مصر قد حظيت بهجرة هذا الإمام الجليل وأصبح أحد أقطاب الدعوة إلى الله على منهج الصوفية فوق هذه الأرض الطيبة . ويؤكد سعيد أبو العينين فيما ذكره عن رحلة السيد البدوي إلى مصر أن أول دار نزل بها بعدما اتخذ من طنطا مقراً له بعيداً عن العاصمة هي دار الشيخ ركن الدين ، والتي عاش بها حوالي ١٢ عاماً .

ولما مات هـذا الشيخ انتـقل السيـد البدوي إلى دار أخـرى مجاورة لـها هي دار ابن شـحيط ، وكانت في ذلك الوقت تقع فـوق ربوة عالية . وعـاش بها ٣٦ عامًا حـتى توفاه الله . إلا أن بعض المؤرخين من الذين تناولوا سـيرة هذا القطـب الجليل أشاروا إلى أن الشـيخ ركن الدين هو نفـسه الشيخ بن شحيط والذي كان شيخًا للبلد ، وكان على جانب كبير من الجاه والنفوذ ، كما كانت له تجارة رابحة ، وكان من بين الذين تعرفوا بالإمام السيد البدوي في موسم الحج ، وأحد الذين دعوه للإقامة في طنطا .

ومما هو مشهور عن السيد البدوي أنه كان يفضل الإقامة فوق أسطح المنازل التي كان يقيم بها، وقـد عرف مـريدوه ذلك فكانوا يـلتقـون به فـوق سطح هذا المنزل أو ذاك . من هنا عـرفـوا باسم "السطوحية" .

أما عن مناقب هذا العالم الصـوفي الجليل فقد ذاع صيته لعلمـه وورعه ؛ ولذلك جمع حوله عدداً كـبيـراً من المشايخ قيـل أن عددهم وصل إلى رقم الأربعين . هؤلاء الذين اخـتصهم بـعلمه وبالاقتراب منه والتحلق حـوله . كما كانوا في الوقت نفسه تلاميـذ من الذين تطوعوا لنشر دعوته الصوفيةوالـتي أساسها زهد الحياة ، والتـفرغ لعبادة الله ، والتمسك بالكتـاب والسنة ، وقيام الليل والأخذ بالذكر والابتعاد عن شهوات الدنيا ومباهجها والحث على الشفقة وإكرام الغريب ، وستر العريان وعدم الإنكار على فـقراء المسلمين . حتى أصبح له طريقـه في هذا المجال .. عرفت باسم الطريقة الأحـمدية والتي لم يتوقف انتـشارها عند حدود مـصر فقط ، بل زحـفت إلى الشام وإلى مكة نفسها .

ومما يذكـره المؤرخون كـذلك عن حـياة هذا الإمـام الجليل أنه حـضر زمن الملك الصـالح نجم الدين أيوب ، وكل من كانوا حول هذا الملك قد سمعوا بدعوة السيد أحمد البدوي وأصابهم نوع من الخشـية والريبـة من تلك المكانة التي كـان عليهـا هذا الإمام الجليل . إلا إن بعض علـماء هذا العصـر قد تقـربوا من السيـد البدوي لعلمـه ولورعه كـان من بينهم قاضي قـضاة مصـر في ذلك الوقت ابن دقيـق العيد ، والشـيخ عبـد العزيز الدويني وآخـرون ، مما ساهم كثيرًا في نشـر دعوته وانتشـار طريقته التي عـرفت بالطريقة الأحـمـدية والتي ما زالت من الطرق الصوفـية الشهـيرة في مصر وفي العالم العربي .

ضريحه ومسجده :

وكما سبق لنا الحديث فإن هذا القطب الصوفي قد وفد إلى مصر وعاش بها لأكثر من خمسين عامًا ، حتى توفاه الله . يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٧٥هـ . الموافق ٢٤ أغسطس سنة ١٢٧٦م . وقد مات في يوم إحياء ذكرى مولد النبي الكريم ﷺ . كما دفن هذا الشيخ الجليل في البيت الذي كان يقيم فيه ، وبالتالي أقيم على قبره ضريح تولى إعداده العديد من تلاميذه ومن أبناء طنطا أنفسهم ، ويقال إن خليفته الشيخ عبد العال قد أقام إلى جوار ضريح السيد البدوي زاوية صغيرة عرفت باسم الزاوية الأحمدية ، وقد بقيت هذه الزاوية على حالها إلى جوار الضريح حتى عصر السلطان قايتباي الذي قام بتحويلها إلى مسجد صغير ، وتم ذلك في عام ٩٠١هـ ، كما تولى أيضًا إقامة قبة على هذا الضريح وكذلك مأذنة صغيرة لهذا المسجد ، ثم جاء علي بك الكبير فقام ببناء المسجد الكبير كما أقام فوقه القباب الثلاثة ، وجعل أكبرها فوق الضريح ثم القبة الثانية فوق ضريح تلميذه الشيخ عبد العال ، والثالثة فوق ضريح الشيخ مجاهد شيخ الجامع ، كما أقام علي بك الكبير مقصورة من النحاس لهذا الضريح ونقش عليها اسمه ونسبه كما أنشأ في مواجهة المسجد سبيلاً وفوقه "كُتاب" لتعليم اليتامى القراءة و الكتابة وحفظ القرآن الكريم .

ولقد حظيت العمارة الكبيرة التي أقامها علي بك الكبير على ضريح السيد بدوي باهتمام معظم مؤرخي هذا العصر من أمثال الشيخ الجبرتي الذي قال عنها : أنها من أكبر مآثر علي بك الكبير، كما أخذ يذكر تفاصيل عمارة وبناء هذا المسجد وما ألحق به من أراضي وحوانيت وقال أيضًا أن علي بك الكبير قد أوقف على المسجد بعض الأوقاف من أجل الإنفاق عليه وعلى تعميره وإضاءته والصرف على المشروعات التي أقامها ، وسجل تلك الأوقاف في وقفتين حدد فيهما أوجه الإنفاق .

ومع مرور الأيام والأشهر والسنوات ، تحقق حلم علي بك الكبير في أن يصبح المسجد الأحمدي بطنطا أحد المعاهد الدينية الكبيرة وذلك على غرار الجامعة الأزهرية ، كما وصفه بذلك علي باشا مبارك .

ولمسجد السيد البدوي أربعة أبواب ولكل باب منهم اسم فالأول يعرف باسم باب السر

والثـاني يعرف باسم البـاب الرخـام والثالث باسم البـاب المطلي أمـا الرابع فيـعرف باسم البـاب الرئيسي . كما أن هناك أبواب أخرى لهذا المسجد ، ومنبره من أكبر منابر المساجد في مصر .

وعلى أية حال فقد ظل هـذا المسجد وضريح السيد البدوي به مـحل اهتمام كل الحكام الذين تولى حكم مـصـر سـواء في العصـور الوسطى أو فـي العصـر الحـديث . كـما حـظي بعناية كل المصريين الذين ساهموا كذلك بأموالهم في تجديده وفي تعميره وصيانته .

كمـا حظي تاريخ مولده بشـهرة كبيرة سواء داخل مـصر أو خارجـها . حتى أن بعض كـبار المسئولين وإلى اليوم يحرصون على حضور الاحـتفال بيوم مولده الشريف ، وهناك العشرات من الكتب التي حدثتنا عن هذا المولد وأهم ما فيه من مظاهر دينية ودنيوية ، وعدد الذين يترددون عليه للمشـاركة في هذه المناسـبة ، والذين نراهم في ازدياد مـستمـر على مدى كل السنوات . خـاصة المشاركين في الليلة الكبيرة لهذا المولد السنوي ، والذي يستمر لمدة سبعة أيام .

•• الإمام الجليل سيدي إبراهيم الدسوقي :

ومن أولياء الله الصالحين الذين استوطنوا مصـراً .. وينتمي إلى عترة آل البيت .. الإمام الجليل ورائد التـصوف الشـيخ إبراهيم الدسـوقي الذي تولى منصب شـيخ الإسـلام أيام حكم السلطان الظاهر بيبرس ، وهو يعـد أحد كـبار أقطاب الصـوفيـة من الذين عاشـوا في مصـر في العـصور الوسطى ، ومن المؤرخين الـذين يؤكدون فـي هذا السيـاق على أن هذا الإمـام الجليـل يعتـبـر من الخـمسـة الكبار الذيـن هاجر منهم إلى مـصـر من المغرب أربعـة وهـم الشـاذلي والعبـاس المرسي والقنائي والبدوي . هؤلاء الذين حملوا راية التجديد في الإسلام في فترات زمنية متقاربة ، عندما تعرض هـذا الدين الحنيف لبعض الهـزات التي تمثلت أعنفهـا في الحروب الصليـبيـة بعد سـقوط الأندلس.

وكـان علينا من أجل الوقـوف على قـصة هذا الإمـام الجليل ، ضـرورة الاقـتراب من مـولده ونشأته ، إذ تقـول المصادر التاريخيـة أنه ولد في مدينة دسوق التي ينسب إليهـا في عام ٦٢٣هـ . وهوبذلك من أوائل أقطاب الصوفية ا لذين ولدوا فوق أرض مصر ، رغم انتسابه الشريف إلى آل البـيت . إذ يؤكد الشـعراني في طـبقـاته أن إبراهيم الدسوقي هـو إبراهيم بن أبي المجد بن قـريش والذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب .

وهناك من المصادر التي توسعت في قول هذا النسب الشريف .. فهو سيدي إبراهيم الدسوقي والذي يرجع أصله ونسبه إلى السيد عبد العزيز أبو المجد بن علي قريش بن السيد محمد أبو الرضا بن السيد محمود أبو النجا بن السيد علي زين العابدين بن السيد عبد الخالق بن السيد محمد الطيب بن السيد عبدالله الكاظم بن السيد عبد الخالق بن السيد أبو القاسم بن السيد جعفر الزكي بن الإمام علي الهادي بن الإمام محمد الجواد بن الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الحسين سبط رسول الله ﷺ [١] .

ويقال أن أبيه سيدنا أبو المجد له ضريح مقام ببلدة "مرقص" بفتح الميم والقاف المقابلة لمدينة دسوق التي يرجع سبب تسميتها إلى كلمة "دسق" بمعنى السعة حيث أن النيل يكون غائرًا في دسوق ويبلغ أكبر اتساعه هناك ، وقد اختار سيدي إبراهيم أن يكون مكانه بالقرب من النيل في منطقة دسق التي تحولت مع مرور الزمن إلى دسوق .

وكما اهتمت المصادر التاريخية بالبلد الذي ولد به وبنسبه وعائلته ، اهتموا كذلك بمولده وتاريخه بالضبط وما ارتبط بهذا الميلاد من حكايات . ومن بين ما ذُكر في هذا السياق أن هذا الإمام الجليل ولد في آخر ليلة من ليالي شهر شعبان من عام ٦٥٣هـ .

وذلك بخلاف ما ذكرته بعض المصادر من أنه ولد في عام ٦٢٣هـ . وقد نشأ هذا الصبي نشأة دينية خالصة على مذهب الإمام الشافعي ، بعد أن حفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية . ثم تدرج في علمه وورعه حتى صار أحدعلماء هذه الأمة . مما أهله لكي يختاره السلطان الظاهر بيبرس في منصب شيخ الإسلام.

ومن قبل أن ننتقل في حديثنا هذا إلى زاوية أخرى من زاويا حديث هذا القطب الجليل استوقفني ما ذكره سعيد أبو العينين عن نسب هذا الإمام الجليل من ناحية أمه.. حيث أكد أن والدته هي السيدة فاطمة بنت عبد الله بن عبد الجبار ، وهى أخت الصوفي المعروف أبو الحسن الشاذلي ، كما يتصل نسبه بمعاصريه من أمثال البدوي عند الجد العاشر جعفر بن عبد الهادي.

وقد اشتهر هذا الإمام الجليل بالعديد من الألقاب كان من بينها لقب "ولي العزلة" لأنه كان

(١) أولياء الله – مصدر سابق .

يحب الخلوة والعزلة والتي تعود عليها بل وعشقها كما تقول بعض المصادر منذ صغرسنه . هذه الخلوة أو هذه العزلة هى التي ظل بها حتى توفي والده في عام ٦٤٦هـ . فغادرها لأول مرة ، وكان عمره آنذاك ٢٣ عامًا . وتحت إلحاح تلاميذه لم يعد إلى خلوته من أجل أن يتفرغ لدعوته ومبادئه ، ولذلك نراه قد اتخذ مكانًا بالقرب من هذه الخلوة من أجل أن يلتقي بتلاميذه الذين أخذوا في ازدياد مع مرور الأيام والأشهر والسنوات .

ويذكر المناوي في طبقاته أن إبراهيم الدسوقي كان شيخًا للطائفة البرهامية .. كما كان يتقن العربية والعبرية والسريانية ، وكان يعرف كذلك لغة الطيور وليس ذلك فقط بل له مؤلفات عديدة في الفقه والتوحيد والتفسير وكان من أشهرها كتابه المعروف باسم الجواهر أو الحقائق . هذه المؤلفات شغلت العديد من المستشرقين الذين نقلوها إلى لغاتهم ، خاصة إلى اللغة الألمانية وكما يؤكد سعيد أبو العينين أن للشيخ إبراهيم الدسوقي أيضًا قصيدة محفوظة بالمتحف البريطاني في لندن . كما أكد أيضًا فيما كتبه على أن الشيخ إبراهيم الدسوقي لم يتزوج ، وظل أعزبًا طيلة حياته التي لم تصل إلا إلى سن الثالثة والأربعين . إذ توفي في عام ٦٧٦هـ . وهى السنة التالية لرحيل السيد البدوي رضي الله عنهم أجمعين .

ولقد سبق لنا وذكرنا أن هناك من المصادر التاريخية التي أكدت توليه مشيخة الإسلام في عصر السلطان الظاهر بيبرس . حيث أكدت هذه المصادر أن هذا السلطان حينما عرف بعلمه وبمكانته عرض عليه هذا المنصب الذي قبله على ألا يتقاضى عنه أجرًا ، وأنه يهب ما يرد إليه من أموال إلى الفقراء والمساكين ، وتكريمًا له ولزهده أمر السلطان بيبرس ببناء زاوية بدسوق خاصة للإمام إبراهيم الدسوقي كي يلقي فيها علومه ويلتقي بتلاميذه ومريديه ، وهذا يدل دلالة واضحة على مكانته العلمية في عصره ولذلك كثر تلاميذه ليس في مصر وحدها بل في السودان وسوريا والحجاز وحضرموت .

ضريحه ومسجده :

ولما توفي هذا الإمام الجليل دفن في الحجرة التي كانت بالزاوية التي أمر السلطان الظاهر بيبرس ببنائها له . وفي الحجرة نفسها وعلى مقربة منه دفن أخوه كما دفنت بينهما أمه السيدة فاطمة شقيقة الإمام أبو الحسن الشاذلي إمام الصوفية . أما شقيقه الآخر الشيخ عتريس فهو المدفون بجوار مسجد السيدة زينب بالقاهرة ، وله ضريح باسمه في هذا المكان.

وبعد وفاة الشيخ إبراهيم الدسوقي ، وبعد دفنه في الحجرة التي كان يقيم بها في دسوق . أقيم على مقبرته ضريح وقبة ، ثم تحولت هذه الزاوية الصغيرة إلى مسجد ، ظل يتوسع في مساحته مع مرور السنوات . وكانت بداية هذه التوسعة في عصر السلطان قايتباي الذي أدخل العديد من التعديلات على هذا المسجد ، وما نراه الآن هوذلك المسجد الذي بُني في القرن الماضي ومساحته نحو ٢٠ ألف متر مربع وعدد أعمدته سبعين عاموداً من الرخام الأبيض ، وللمسجد ستة أبواب خصص منها بابًا للسيدات .

وفي أوائل القرن التاسع عشر تم ضم هذا المسجد إلى الجامع الأزهر، وبالتالي تحول إلى معهد أزهري كبير .. أصبحت الدراسة فيه تسير على نهج الدراسة بالأزهر الشريف. وكانت آخر عمارة لهذا المسجد ما تمت في عام ١٩٦٩م ، وهى التي عليها المسجد إلى الآن .

•• سيدي أبو الحسن الشاذلي :

من أقطاب الصوفية المعروفين في التاريخ الإسلامي .. أبو الحسن الشاذلي ، وهو كذلك من رجال الدين العظماء الذين لهم مواقف وطنية عديدة . ونظرًا لما كان يتمتع به من صفات عديدة أهلته لهذه المكانة العالية بين أقرانه من دعاة هذا الدين الحنيف فقط حظي بكتابات عديدة لكبار المؤرخين وكذلك الدارسين للدين الإسلامي سواء في مصر أو في غيرها ، وهو كما سبق وذكرنا من بين الأربعة الكبار في عالم الصوفية الذين وفدوا إلى مصر من المغرب الشقيق . وأن نسبه الشريف ينتمي إلى أحد أقطاب ال البيت وهو الحسن بن علي رضي الله عنه وأرضاه .

ومما سجله المؤرخون عن رحلة حياة أبي الحسن الشاذلي أنه ولد عام ٥٩٢هـ . في قرية تدعى غمارة ببلاد المغرب ، وهى قرية قريبة من قرية سبتة والتي ما تزال إلى يوم تحت الاحتلال الأسباني مع مدينة مليلة وأنه يدعى علي بن عبد الله بن عبد الجبار والذي اشتهر باسم الحسن الشاذلي .

وقد نشأ وترعرع في هذه القرية الصغيرة ، ودرس بها العلوم الدينية ، ثم رحل إلى العراق للبحث عن المزيد من الثقافة حيث كانت بغداد آنذاك تعج بكبار الفقهاء وأعلام الحديث والتفسير واللغة.

وممن التقى بهم الشيخ الشاذلي شيخه أبو الفتح الواسطي ، ثم سرعان ما عاد إلى بلدته على أمل أن يجد من يبحث عنهم من أساتذة الذين سوف يرشدونه إلى المزيد من العلم والمعرفة ، وقد

التقى بالفعل بشيخه الجليل عبد السلام بن مشيش الذي كان في ذلك الوقت وكما يقول ابن عياد في كتابه "المفاخر العلية" إمام أهل المغرب في مقابل كون الشافعي إمام أهل مصر .

وتؤكد المصادر التاريخية أن عبد السلام بن مشيش ذلك العالم الجليل قد انبهر به الحسن الشاذلي وأخذ عنه الكثير كما ذكره فيما كان يكتبه عن آثار ذلك الرجل ، مؤكدًا في هذا السياق على أن أستاذه ابن مشيش قد أوصاه فقال له : جدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء وعند كل شيء ومع كل شيء وفوق كل شيء وقريبًا من كل شيء ومحيطًا بكل شيء ، ليس ذلك فقط ، بل لقد بلغ تأثير ابن مشيش في الإمام الشاذلي حدًا بعيدًا .. إذ رسم له حياته وكيفية التواصل معها . وإليه يرجع تسمية هذا الإمام الجليل باسم الشاذلي .. حيث أوصاه بالانتقال إلى قرية تدعى شاذلة بالمغرب لأن الله سوف يسميه الشاذلي .

ويقول سعيد أبو العينين فيما كتبه عن هذا الإمام والقطب الصوفي الجليل أنه بالفعل ووفقًا لتعليمات أستاذه بن مشيش توجه إلى هذه القرية متخذًا من جبل زغوان مقر إقامته هناك . وقد بقي في خلوة خاصة أعلى هذا الجبل يتعبد فيها حتى امتلأ قلبه بالإيمان بالله وتطهرت نفسه حتى أصبحت خيرًا خالصًا . ثم نزل من الجبل كي يبدأ مرحلة جديدة في الدعوة والهداية والارشاد، عندما سافر إلى تونس ، وهناك تعرض للعديد من الصعاب التي نشأت عن غيرة أعلام تونس من علماء الدين وفقهائها . وقد ظنوا أن الإمام الشاذلي قد جاء كي ينتزع منهم الزعامة الشعبية التي كانوا يتمتعون بها .

ونظرًا لهذه المضايقات التي واجهها في تونس والتي أدت به إلى السجن بعد الوشاية ضده عند السلطان .. رحل إلى مصر ، متجهًا إلى مدينة الإسكندرية وقد ظلت المظالم تلاحقه حيث كتب أحدهم كتابًا إلى والي الإسكندرية يحذره فيه من مقدم هذا الإمام الجليل ومتهمًا إياه بالزندقة!! .

ويذكر كتاب "درة الأسرار" أن الذي كتب إلى والي الأسكندرية أو نائبها في ذلك الوقت هو الشيخ ابن البراء أحد علماء تونس فأبلغ سلطان مصر وبالتالي تم اعتقال الحسن الشاذلي في القلعة وبحضور القضاة والأمراء . إلا أن السلطان اكتشف زيف هذه الاتهامات عندما قابل الشاذلي ، وعرف فيه التقوى والصلاح والعلم الغزير .

وقد روى أبو الحسن الشاذلي فيما كتبه عن رحلته إلى مصر ودوافعها إلى هذه الرحلة والتي كان في مقدمتها رؤيته في المنام النبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ، والذي أرشده إلى هذه الهجرة ومن ثم الإقامة في مصر .

وكانت إقامته في مصر هذه تمثل له فترة استقرار مادي ومعنوي وسعة انتشار أيضًا . إذ ساهم خلالها في تربية تلاميذه الذين أخذوا يتوافدون عليه لتلقي العلم على يديه .

ويقول سعيد أبو العينين فيما كتبه عن الشاذلي أن سلطان مصر قد منحه برجًا من أبراج الاسكندرية وسورها العظيم الذي كان موجودًا في ذلك الوقت . هذا البرج الذي أوقفه السلطان له ولذريته من بعده . ويقال إنه كان في أسفل هذا البرج مرابط للبهائم ومساكن للفقراء الصوفية وجامع كبير سكن هو وأولاده أعلاه .

وفي هذه المدينة تزوج الشاذلي وأنجب خمسة أولاد ، وقد تفرغ بعد ذلك للعبادة وحث أتباعه على العبادة والعمل . وفق ما ذكره ابن عطاء السكندري فيما كتبه عن شيخه الإمام الحسن الشاذلي والذي كان يكره المدين المتعطل ويكره أن يسأل تابعه الناس ، بل وذكر الدكتور عبد الحليم محمود أن هذا الإمام الصوفي الجليل كان يعمل بالزراعة من أجل الاكتفاء الذاتي ، ولذلك تقوم فكرة النظرة الشاذلية للحياة على أن الغني الشاكر مفضل لديه على الفقير الصابر .

وشاءت الظروف أن يحضر أبي الحسن الشاذلي إلى الأسكندرية وفيها عالم من العلماء الأجلاء الذين نذرو أنفسهم للدين وللدعوة ؛ ولذلك التقى العديد من هؤلاء بالإمام الصوفي الحسن الشاذلي .

ويذكر ابن عياد وفق ما أشار إليه سعيد أبو العينين أن أكابر العلماء من أهل عصره كانوا يحضرون مجالسه العلمية ، وكان منهم العز بن عبد السلام وتقي الدين بن دقيق العيد وابن الصلاح وابن الحاجب وغيرهم ، ليس ذلك فقط ، بل التقى به كثيرًا كل من الإمامين الجليليون أبو العباس المرسي وابن عطاء السكندري .

ولم يتوقف جهاد الحسن الشاذلي عند ميدان الدعوة الإسلامية ونشر الصوفية ، بل شارك في معركة المنصورة والتصدي للصليبيين . رغم إصابته في أخريات أيامه وفي أثناء هذه المحنة بأن

كف بصره ، ومع ذلك كان من أوائل الذين شاركوا في رحلتهم إلى المنصورة لشد أزر المقاتلين هناك والذين نجحوا بفضل دعواته وغيره من العلماء وأولياء الله الصالحين من الانتصار على الفرنجة بقيادة لويس التاسع عشر والذي تم أسره في هذه المعركة .

وبعد أن تحقق حلم هذا الانتصار .. أراد الإمام الجليل الحسن الشاذلي أن يحج إلى بيت الله الحرام . وكان ذلك في عام ٦٥٥هـ .. ويبدو أن الله تعالى قد ألهمه أن هذه الرحلة هى آخر ما سوف يقوم به من أعمال في حياته ، بل وإن هذا الحج في هذه المرة لن يتم .. إذ سوف يتوفاه الله في الطريق ، وقد كان ، فقد توقف هذا الإمام الصوفي الجليل أثناء هذه الرحلة وكان يبلغ من العمر ٦٣ عامًا عند بلدة كانت تعرف باسم "حميثرة" هناك في صحراء صعيد مصر وعلى مقربة من ساحل البحر الأحمر .

لقد كان سيدى أبو الحسن الشاذلي في طريقه إلى الحج كعادته في كل عام ولكنه وفي هذه المرة ووفق ما حكاه عنه بعض المؤرخين قد أصر على أن يصطحب معه "فأس وقفة" وكل ما كان يجهز به الميت! . إذ أدرك أن نهايته على الأبواب ، وقد جمع أصحابه وأبلغهم وصاياه ،كما طلب الماء واغتسل وصلى ركعتين ، وفي آخر سجدة فاضت روحه الطاهرة .

ضريحه ومسجده:

وفي المكان نفسه الذي مات فيه دفن الإمام الحسن الشاذلي ، حيث كان قد وصل إليه في طريقه إلى حج بيت الله الحرام ، وكما سبق وأسلفنا فإن هذا الإمام والولي الجليل قد شعر بدنو أجله أثناء هذه الرحلة فنزل إلى وادي حميثرة المرتبط بصعيد مصر وعلى مقربة من البحر الأحمر ، وهو واد ضيق تحيط به الجبال ، وكان من قبل مكان فضاء ليست به حياة . ولكن الله جعله عامراً بوجود ضريح هذا الشيخ الجليل إذ سعت الحكومة المصرية إلى بناء قرية في هذه المنطقة وبها خدمات كثيرة تلبي حاجات الزائرين لضريح أبو الحسن الشاذلي .

وتقول العديد من المصادر أن بناء ضريح هذا الإمام الجليل وكذلك بناء مسجده أيضًا في هذه المنطقة قد ارتبط بالعديد من القصص والحكايات . حيث يقول أهالي هذه المنطقة أن الملك فاروق كان قد حضر إلى الغردقة في سياحة من سياحاته الصحراوية من أجل الصيد البري، وسارت

قافلته حتى وصلت إلى مكان قبر أبي الحسن الشاذلي في وسط الصحراء وهناك أمر الملك فاروق ببناء ضريح ومسجد الشاذلي .

وظل هذا الأمر الملكي مهملاً من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٤٩ م حتى تولى اللواء محمد مجدي الزارع منصب محافظ البحر الأحمر وبعد وصوله بعدة أيام شاهد رؤيا في المنام بضرورة أن يقوم بزيارة لهذا الضريح الذي كان يقام بشكل بدائي وعلى مساحة صغيرة من الأرض . وفي صباح اليوم التالي كما يروى ذلك المحافظ نفسه قام باصطحاب المهندسين مع قافلة من الأهالي والعمال وبعض السيارات المحملة بمواد البناء ، واتجهت القافلة إلى مكان الضريح فلم تجد سوى مجموعة من الحجارة تحيط بالمقبرة ، وعلى الفور أمر المحافظ ببناء الضريح والمسجد والاستراحة.

ومنذ هذا التاريخ امتدت يد العمران والاهتمام ليس فقط للضريح ولا للمسجد فقط ، بل للمنطقة كلها والتي أصبح يتردد عليها كل عام الآلاف من محبي ومريدي هذا الإمام الجليل .

ونظرًا لقيمة هذا القطب الصوفي فقد فكرت الحكومة المصرية في تنفيذ أحد المشروعات الخاصة بإقامة معهد عالمي للدراسات والأبحاث الصوفية ولكنه لم ينفذ ، وتقدم لنا الدكتورة سعاد ماهر لمحة معمارية سريعة عن هذا الضريح ومسجده . فتقول فيما كتبت : يتكون المسجد من الضريح القديم والذي كان في الأصل مبنى مثمن الشكل ، وبكل ضلع من أضلاعه السبعة نافذة . ويتوسطه ثمانية أعمدة تقوم فوقها رقبة مرتفعة تعلوها قبة مدببة ، وفي جنوب هذا الضريح أقامت وزارة الأوقاف الآن مسجدًا ووصلت بينه وبين الضريح بحجر مسقوف ، كما تم تزويده بالمياه ودورة مياه . كما أقامت في الجهة الجنوبية منه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وسكنًا لشيخ المسجد والقائم بالتدريس فيه [(١)] .

•• سيدي عبد الرحيم القنائي :

وها نحن أمام حديث مشوق جديد عن أحد أولياء الله الصالحين من الذين ينتسبون إلى العترة الشريفة من آل البيت من الذين اختاروا مصرًا مقر إقامتهم حتى الوفاة .. وهو الشيخ الإمام الجليل عبد الرحيم القنائي والذي يعرف بأن سيدي عبد الرحيم أحمد بن حجون بن محمد العمدة ابن جعفر بن إسماعيل بن الحسن بن علي بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ـ د . سعاد ماهر .

العابدين بن الحسين ، وأمه السيدة سكينة بنت أحمد بن حمزة بن محمد بن حمزة الحداني بن محمد بن إسماعيل الأعرج بن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر علي زين العابدين ، وهكذا يلتقي نسبه من ناحية أبيه وأمه إلى آل البيت الشريف .

ورغم أنه ليس من مواليد مصر هذه الأرض الطيبة إلا أنه كان من بين هؤلاء الأولياء الذين اختاروها مقر ضيافة وإقامة حتى الوفاة .

ومثل غيره من هؤلاء الكرام من أولياء الله الصالحين ، فقد تحدث عنه وعن حياته ونشأته العديد من المؤرخين .. ومما قالوه في هذا السياق : ولد عبد الرحيم القنائي والذي ترجع شهرته بهذا الاسم إلى قنا في صعيد مصر والتي اختارها للعيش فيها فترة امتدت لأكثر من أربعين عامًا ، أقول وفق ما جاء في هذه المصادر أن هذا القطب الجليل ولد في بلدة اسمها "ترغاي" إحدى مقاطعات مدينة سبتا المغربية ، وذلك في أول شعبان عام ٥٢١هـ . وفيها حفظ القرآن الكريم مجوداً وتلاوة وتفسيراً وكان عمره آنذاك ثماني سنوات[(١)] .

وتأثر هذا الإمام الجليل طوال فترة حياته بمذهب الإمام مالك ، وعندما توفيت والدته ، وعلى إثر ما أصابه من حزن شديد اقترح أهله ضرورة أن يترك بلدته لعله ينجو من هذه الصدمة ، حيث كان عمره في ذلك الوقت اثنى عشر عامًا فقط ، وبالفعل ذهب به أخواله إلى سوريا حيث أقام في دمشق التي أخذ يقرأ فيها بفهم ويدرس بوعي ما كان يُتلى عليه من علماء دمشق ونظرًا لتفوقه طلبوا منه أن يكون مدرسًا ولكنه رفض بشدة . و أقام بينهم حوالي ثماني سنوات ، ثم سرعان ما عاد إلى بلدته بالمغرب من جديد ، وهناك ذاع صيته كأحد علمائها المهتمين والمتفوقين في علوم الدين والفقه والحديث والتصوف . وعندما شعر بما يحاق بحياته عندما اشتد تيار الرفض للدعوة الإسلامية من جانب بعض التيارات الفكرية في المغرب اتجه إلى الحجاز عبر القاهرة والاسكندرية، وهناك أقام مدة من الزمن في مكة ثم في المدينة .

وشاءت الظروف أن يلتقي بالشيخ مجد الدين القشيري والذي كان يعيش في مدينة قوص بصعيد مصر ، فألح عليه أن يحضر إلى مصر .. وبالفعل جاء إلى قنا التي وصلها بعد أن أقام في قوص عدة أيام إكرامًا لذلك الضيف الذي دعاه إليه أثناء هذا اللقاء في مكة ، وظل الشيخ عبد

---

(١) أولياء الله – مصدر سابق .

الرحيم إلى جانب اشتغاله بالعلم والدين يتاجر في الأسواق . وحتى لا يكون عالة على أحد ، وظل على هذا الحال إلى أن عينه والي مصر شيخًا لقنا . ومن يومها لقب بالشيخ القنائي .

وفي قنا أيضًا تردد عليه تلاميذ كثيرون ومن كل أنحاء مصر حتى أصبح صاحب مدرسة متميزة في التصوف ، كانت تقوم على منهج الإسلام في نطاق جغرافية الصعيد ، وفق رؤيته التي كان يرددها دائمًا في حديثه : "الدين الإسلامي دين علم وعمل وأخلاق ، فمن ترك واحدة فقد ضل الطريق" .

كما ظل هذا القطب الجليل من كبار المدافعين عن دين الله في صعيد مصر ضد حملات التبشير ، وظل وعلى مدى عشر سنوات يقوم بهذه المهمة بمعاونة صديقه سيدي أبو الحجاج الأقصري . كما عاونه في ذلك العديد من تلاميذه في كل محافظات مصر .

وتقول المصادر إن هذا الإمام الجليل قد عاش في مدينة قنا مدة وصلت إلى ٧١ عامًا . وقد توفي في عام ٥٩٢هـ .

ضريحه ومسجده :

تقول المصادر التاريخية أن مسجد سيدي عبد الرحيم القناوي أو القنائى والملحق به ضريحه والموجود حاليًا ، يرجع تاريخه إلى ا لنصف الأول من القرن العشرين ، وقد حل محل الزاوية التي كان قد بناها الشيخ الجليل في حياته والتي كان يتعبد بها ويستقبل فيها زواره ومريده .

وهناك مصادر تاريخية أخرى ذكرت أن تاريخ بناء هذا المسجد يرجع إلى عام ١١٣٦هـ . وتم إعادة بنائه على يد الملك فاروق في عام ١٩٤٨ م بعد إزالة المبنى القديم للمسجد والضريح والذي كان قد أقامه همام الهواري أمير الصعيد في ذلك الوقت ، ويقال إن الملك فاروق قد وضع حجر الأساس بنفسه كما هو موضح باللوحة الرخامية الموجودة في مدخل هذا المسجد . كما تم عمل مقصورة زجاجية على الضريح وهى الموجودة الآن . ثم تم تسوعة الميدان حول المسجد والضريح بمدينة قنا حتى أصبح يستوعب أكثر من مليون زائر سنويًا خلال احتفالات المحافظة بمولده في النصف الأول من شهر شعبان من كل عام .

ويتكون المسجد الحالي من صحن مربع مغطى بسقف به شخشيخة تعلوه قبة صغيرة ، ويحيط

بالصحن أربعة إيوانات متعامدة وأكبرها إيوان القبلة ، ويقع في الجهة الشرقية من المسجد ويتقدم كل إيوان عمودان كل منهما مكون من عمودين ملتصقين ويعلو هذين العمودين ثلاثة عقود تكون واجهة الإيوان . أما المدخل الرئيسي لهذا المسجد وفق ما ذكرته الدكتورة سعاد ماهر فهو يقع في الجهة الجنوبية وهو مرتفع إذ يصعد إليه بست درجات وتتقدمه مظلة ذات أعمدة ، أما في الركن الجنوبي الشرقي للمدخل توجد المئذنة وخلف الإيوان الشمالي يقع ضريح الشيخ القنائي ، وهو عبارة عن غرفة كبيرة مربعة الشكل تعلوها قبة ترتكز على رقبة تقوم على دلايات قصيرة في أركان المربع .

ويذكر في هذا السياق أن مساحة التوسعات في ساحة المسجد بلغت ٨٠٠م٢ ، وبتكلفة مليون جنيه ، وهو المسجد الموجود بحالته حاليًا .

•• الشيخ محمد متولي الشعراوي:

ومسك الختام لهذه الرحلة الإيمانية في رحاب أولياء الله الصالحين من الذين انتسبوا لآل البيت في مصر ، هو الحديث عن هذا الإمام الجليل الشيخ محمد متولي الشعراوي والذي ساهم مساهمة فعالة في تجديد الدين الإسلامي وعلى مدى أكثر من عشرين عامًا . ملأ خلالها الدنيا علمًا وعدلاً وخلقًا وكتبًا وتفسيرًا أيضًا ، والسبب الرئيسي الذي جعلنا نتحدث عنه كولي من أولياء الله الصالحين هو انتسابه لآل البيت الشريف لأننا وكما عرفتم من قبل قد خصصنا كل أوراق هذا الكتاب لسير هؤلاء الأعزاء من آل البيت الشريف من الذين وفدوا أو عاشوا في مصر.

ويعتبر الشيخ الشعراوي فوق هذه الأوراق رقم اثنين من أولياء ا لله الصالحين الذين ولدوا وعاشوا وماتوا فوق أرض مصر الطيبة ، وقد سبقه إلى هذا الشرف العظيم وكما أسلفنا الشيخ إبراهيم الدسوقي .

ونظرًا للمكانة العالية التي تبوأها هذا العالم الجليل في حياته ، فقد حظي باهتمام العشرات ، بل والمئات من المؤرخين سواء داخل مصر أو خارجها . كما حفلت الصحف والمجلات والعديد من الكتب بسيرة حياته العطرة والتي اقتربت كثيرًا من نسبة إلى آل البيت الشريف، سواء من ناحية والده أو والدته ، و الكاتب محمد محجوب حسن قد أكد ذلك في كتابه "محمد متولي الشعراوي من القرية إلى العالمية". مشيرًا في هذا السياق أنه هو السيد الشريف محمد بن السيد متولي الشعراوي ، الحسيني النسب ، ووالدة الشيخ هى الأخرى ينتهي نسبها إلى الإمام الحسين من ناحية أبيها.

ويؤكد مؤلف هذا الكتاب فيما أشار إليه : إن البيئة الريفية الوديعة بوقارها ونقائها لم تعرف الجدب وهى البيئة التي ولد فيها هذا الإمام الجليل والتي عاشت في أحضانها أسرته المتوسطة الحال في طبيعة الأصول ، حيث يمتد نسبها إلى آل البيت . وهذا ما تجدر الإشارة إليه ، حيث لم يشر كاتب واحد ممن كتبوا عن الشيخ الإمام إلى مثل ذلك . وقد حدثنا عن هذه المعلومة العارف بالله الشيخ محمد الخطيب[(١)] .

(١) الشيخ الإمام داعية الإسلام محمد متولي الشعراوي .. من القرية إلى العالمية – تأليف محمد محجوب حسن .

ليس ذلك فقط ؛ بل ويشير صاحب هذه الأوراق أن الشيخ الخطيب الذي أخبره بذلك هو أيضًا يعود نسبه إلى سلالة آل البيت .

والشيخ الشعراوي نفسه قد حدثنا عن البيئة التي تربى بها ، وقد نقل هذا القول العديد من المؤرخين ومما ذكره في هذا السياق قوله : من حسن حظي أن البيئة التي نشأت بها تتسم بالصلاح والتقوى ، فأما عن بيئتى الخاصة ، فقد كان أبي رجلاً طيبًا وجدي كان رجلاً له في طريق الله مجال، والبيئة العامة التي كنت أعيش فيها هى القرية ، والقرية عادة لا توجد فيها المباذل التي توجد في المدن ، وكل ذلك حصننا من السير في طريق الغوايات ، لأنه لم يكن في محيطنا أسباب للغوايات .

وفي هذا القول البليغ الذي سطره الإمام الشعراوي ، نراه قد لخص لنا بدايات حياته التي كان أسسها التقوى والإيمان ومصدرها البيئة والأسرة والنسب الشريف .

هذا الإمام الجليل وكما ذكرت كل المصادر ، قد ولد بقرية دقدوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية في ١٦ أبريل من عام ١٩١١هـ . ألحقه والده بكتاب الشيخ عبد المجيد باشا فأتم فيه حفظ القرآن الكريم كاملاً وكان عمره آنذاك أحد عشر عامًا . ثم التحق بالمعهد الابتدائي الأزهري بالزقازيق في عام ١٩٢٦م . وفي عام ١٩٣٢م التحق الشيخ الإمام بالقسم الثانوي بالمعهد ، حيث حصل على شهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٣٦م ومن بعدها التحق بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر وتخرج منها في عام ١٩٤١ م كما حصل على إجازة لتدريس في عام ١٩٤٣م .

ومن الأحاديث الخاصة للشيخ الإمام الشعراوي عرفنا بأنه فوجيء بقرار والده بإلحاقه بالمعهد الابتدائي الأزهري في الزقازيق . لأنه كان يريد أن يعمل بالزراعة في القرية . ولعل ذلك يبدو بوضوح في قوله : "الطفل في هذه المرحلة المبكرة من عمره ليست له إرادة ، ولا يبدي رغبة معينة، وليس له إدراك يمكنه من تحديد مستقبله ، ولك أن تتخيل أنني شخصيًا كنت أريد أن أكون فلاحًا، فلقد تعلقت بالحقل والعمل فيه ، استهوتني الزراعة ، ولم يستهوني الأزهر وقتئذ" .

ويضيف :ولكن الذي حدث أنني بعدأن حفظت القرآن الكريم ، قال والدي رحمة الله عليه: يا محمد ،قدمت لك طلبًا للالتحاق بمعهد الزقازيق الديني وغدا سوف يكشفون عليك طبيًا. وراعني الأمر فأنا أريد الزراعة لأنني متعلق بها ، وهو يريديني أن أكون طالب علم .

ويبدو أن رؤية والد هذا الإمام كـانت ثاقبة إلى حد بعيـد .. وربما شعر في هذه اللحظة بالدور الذي سوف يقوم به إبنه مستقبلاً في سبيل الدعوة الإسلامية وتجديدها .

وكما ذكرت كل المصادر فإن الشيخ الإمام قد استسلم لإرادة الله التي تبلورت في إرادة أبيه . حيث واصل مسيرتـه العلمية بعد أن تخرج من الأزهر ، وكانت البداية العمل مـدرسًا بمعهد طنطا الأزهري ثم بالأسكندرية ، ثم بالزقازيق . وظـل يعيش في مصر حـتى تم اختياره للعـمل مدرسًا للتفسـير والحديث بكلية الشـريعة بجامعـة ا لملك عبد العزيز بمكة المكـرمة بدءًا من عام ١٩٥١م . وهناك روايات عديدة نقلهـا البعض عمـا تحدث فيه الـشيخ عن الظروف المعيـشية الصعـبة والتي واجهته أثناء عـمله في التدريس سواء في طنطا أو في غيرها من المدن المصـرية التي كان بها آنذاك معاهد أزهرية .

وقد ظل صابرًا على أمل أن يفوز مثل غيره ببعثة تعليمية . وقد كان عندما تحقق حلمه في عام ١٩٥١م وسافر إلـى السعودية ـ كمـا أسلفنا منذ لحظات ـ وقد ظل يعمل بهـا قرابة تسع سنوات حتى تركها عـلى إثر توتر العلاقات بين مصر والسعـودية في عهد جمال عبد النـاصر . وهو يعبر عن ذلك بقوله : "وحـينما ساءت علاقة مـصر مع المملكة العربية السـعودية في عهد عـبد الناصر انقطعت صلتي العلمية بالمملكة ، وشاء الله أن تسـتقل الجزائر في تلك الفترة ، ومكثت هناك ست سنوات ، حتى عادت الميـاة إلى مجاريها بين مصر والسـعودية فعدت من جديد أستـاذًا في جامعة الملك عبد العزيز بمكة وجدة .

وبعد هذه الفترة الزمنية عاد الإمام إلى مصـر فعمل وكيلاً للأزهر ، ثم وزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر لمدة عامين من نوفـمبر عـام ١٩٧٦م وحتى أواخر عـام ١٩٧٨ م. ومن بعدها تفـرغ الشيخ الإمام للدعوة الإسلامـية وتفسير القرآن الكريم وإصدار الكتب . حتى أصبح من أشهر المجددين في الدعوة الإسـلاميـة خلال المائة عـام الماضية ، كـما أصـبحت برامج التليـفزيون التي يظهـر بها مفسرًا لخواطره الإيمانية من أشهر البرامج الدينية في العالـم الإسلامي كله. وظل هذا الشيخ الجليل في حـالة تألق علمي عظيم . حـتى توفاه الله في ١٧ يونيـة من عام ١٩٩٨م. وقـد فاز بلقب إمـام الدعاة والمفسرين .

●● ضريحه ومسجده :

من خلال متابعة متأنية لرحلة حـياة هذا الإمام الجليل . لاحظنا أنه قد أصيب بعدة أمراض في

أخريات أيامه كان من أخطرها ما كان يشعر به من ضيق في التنفس نجم عن ارتباطه بالسجائر على مدى مشوار حياته ، ولذلك سافر إلى العديد من بلدان أوروبا من أجل العلاج . ولكن مشيئة الله قد نفذت وانتقل إلى الحياة الأخرى بعد أن قضى بيننا ٨٨ عامًا في حالة تألق وازدهار . ولما توفي رحمة الله عليه نقل على الفور إلى بلدته دقدوس كي يدفن هناك في ذلك الضريح الذي كان قد تم إعداده مسبقًا .

والعجيب أن جثمان هذا الشيخ الجليل قد نقل من القاهرة إلى قريته في سرية تامة وكان الناس من مريديه ينتظرون الاحتفاء والاحتفال برحيله مثل غيره ، ولكن يبدو أن تلك كانت وصية الشيخ الإمام . إذ فاضت روحه في منزله بالهرم فجر يوم الأربعاء الموافق ٢٣ صفر عام ١٤١٩هـ . ١٧ يونية في عام ١٩٩٨ م.

وفور رحيل هذا الشيخ الجليل حيث دفن في مسقط رأسه في قريته دقدوس ، وذهب وراءه العديد من المريدين ومن أتباعه وأحبائه .. من أجل الوقوف عند ضريحه وقراءة الفاتحة على روحه الطاهرة . وهناك من حدثنا عن هذا الضريح وكذلك عن المسجد الذي ألحق به والذي بناه في حياته بالقرية ويحمل اسم الشيخ محمد متولي الشعراوي وكان يريد أن يسميه دار الثقافة الإسلامية .

وبجوار هذا المسجد الكبير وهذا المجمع الإسلامي أقام ابنه الشيخ عبد الرحيم الشعراوي ضريح والده ، بعدما أنفق عليه أكثر من نصف مليون جنيه ، هذا الضريح تعلوه قبة عالية وأقيم على مساحة ١٣٠ مترًا ، وكان الشيخ الإمام قد اشتراها . وتقول المصادر أن ابن الشيخ الإمام لم يبدأ ببناء هذا الضريح إلا قبيل رحيل الشيخ ربما بيومين . وكان ابنه قد اختار موقع هذا الضريح بجوار الجامع الذي أعاد الشيخ الشعراوي بناءه من جديد .

الفصل الرابع

المصريون والاحتفال بآل البيت

هناك العديد من المظاهر التي تجلت في ذلك الاحترام العظيم والذي أصبح يلاقيه أهل البيت من الموجودين في مصر ، هذه المظاهر ربما غير موجودة بهذا الشكل في شعب آخر من شعوب الكرة الأرضية ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن تنشأ هذه المظاهر أو تفرض نفسها بدون أن يكون داخل المصريين أنفسهم حب شديد لآل البيت ولصاحبه عليه الصلاة والسلام ، ويبدو أن آل البيت أنفسهم قد عرفوا وعلموا وشعروا بهذه الأحاسيس الطيبة التي يكنها المصريون لآل البيت ولصاحبة عليه الصلاة والسلام . وربما كذلك قد عرفوا الأسباب التي من أجلها سعوا للإقامة في هذه الأرض الطيبة .

إذن نحن هنا أمام رافدين للحديث عن توقير المصريون لآل البيت والاحتفال بهم كل عام ..

الرافد الأول يصب في مجرى تلك الأسباب التي جعلت من هؤلاء الناس الطيبين يختارون مصر من دون غيرها كمقر للإقامة في الدنيا وفي الآخرة ، أو فوق أرضها ثم تحتها أيضًا . أما الرافد الثاني فهو تلك المظاهر التي اشتهر بها المصريون للاحتفال بآل البيت .. بالاضافة إلى حرصهم الشديد على زيارة أضرحتهم وبشكل دوري سواء يوميًا أو أسبوعيًا أو شهريًا . هذه المظاهر الاحتفالية دفعت العديد من الدارسين في مصر وفي غيرها لوضع العشرات من المؤلفات التي تناولوا فيها ظاهرة الموالد والتي امتدت لكي تشمل أيضًا أولياء الله الصالحين باعتبارهم امتدادًا لآل البيت أو من الذين عاصروهم وعايشوهم ، وبالتالي أصبحوا كمثلهم من حيث الاحترام والتوقير .

ولسوف نتناول نحن في هذه الأوراق وبالتفصيل المطلوب.. حديث هذين الرافدين. كي نستكمل به فائدة كل هذه الأوراق خروجًا من نطاق التاريخ إلى المعايشة في الواقع.

•• أسباب اختيار آل البيت لمصر :

من البداية نؤكد تحت هذا العنوان الفرعي والذي هو طريقنا للحديث عن الرافد الأول والمشار إليه آنفًا .. أن هؤلاء الناس الطيبين من آل البيت لم يكن لهم ليختاروا هذا البلد الأمين كموطن ثان لهم بدون أن يكون لهم أسبابهم الخاصة ، سواء التي عرفوا بها ممن كانوا حولهم أو مما عرفوه من جدهم العظيم رسول الله ﷺ . ليس ذلك فقط ، بل وربما معرفتهم بتاريخ هذا البلد الأمين وارتباطه بالأنبياء الذين وفدوا إلينا ، كان من بين هذه الأسباب .

وعلى أية حال سوف نلقي الأضواء المبهرة على كل هذه الأسباب وبالتفصيل المطلوب . ولعلنا نبدأ هذه الرحلة بالتنقيب في أوراق التاريخ عن أشهر الذين وفدوا إلى مصر من أنبياء الله . ثم نعرج بعد ذلك لحديث آخر عن ارتباط هذا البلد الأمين برسولنا الكريم ﷺ اتباطًا خاصًا .. تجلى في زوجته السيدة ماريا المصرية أو القبطية والتي أنجبت له الولد في أخريات أيامه . ومن قبل هذه الخطوة وتلك كان علينا أيضًا أن نتحدث عن مصر في القرآن الكريم وكيف احتفل بها هذا الكتاب الكريم ، وذلك يدخل أيضًا ضمن معرفة آل البيت بمنزلة هذا البلد .

لقد جاءت كلمة مصر في القرآن الكريم وكما يشير إلى ذلك الدكتور أحمد صبحي منصور في خمسة مواضع هي في قوله تعالى :

﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ .

وفي قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ .

وفي قوله تعالى :

﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

وفي قوله أيضًا :

﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر ﴾.

وأخيرًا في قوله تعالى :

﴿ اهبطوا مصر ﴾ .

وذكر ربنا لهـذا البلد الأمين مصر الغـالية في قرآن الكريم ، قـد ارتبط بعدة مواقف مهـمة في تاريخ الإنسانيـة وكذلك بعدة قـصص مشهـورة أيضًا . أما عن هذه المواقف فـأكثرها مـوجود في قصة يوسف عليه السلام ، وقصة موسى وأخيه هارون وقومه من بني إسرائيل . والدكتور منصور فيما ذكره أيضًا عن وجود اسم في القـرآن الكريم يوكد على شيء مهم للغاية وهو أن كلمة مصر قد ذكرت في كـتاب الله بمعنيين الأول معنى الوطن الذي يعيش فيـه المصريون والثاني بمعنى المدينة المتحضرة[١] .

ليس ذلك فقط بل لـقد أشار القرآن الـكريم لما كانت عليه مـصر من حضـارة وتقدم وازدهار خاصة في المجـال الزراعي ، وهناك من المصادر التاريخـية التي ذكرت أن مصراً كـانت سلة العالم القديم لأنها كانت تقدم لهم ما يلزمهم من منتجات زراعية كان أهمها ولا يزال القمح .

وحين نعـود من أجل أن نربط بين هذه القيـمة ا لـتي تحدث عنهـا القرآن الكريم لمصـر ، وبين اختـيار آل البيت لهـا كمقـام أمين لهم سوف نتكشف أن آل البيت قـد عرفوا هذه القـيمة جـيداً . وكانوا يتمنون داخل قرارة أنفسهم أن يذهبوا إلى مصر .. ليس للإقامة فربما للزيارة أو غير ذلك . ولكن الظروف السياسـية التي فرضت عليهم أثناء صـراع الخلافة في العهدين الأمـوي والعباسي جعل عدداً كبيراً من آل البيت يختارون مصر دار إقامة وبذلك تحقق ما كانوا يحلمون به .

والمسألة في هذا السـياق لم تتوقف عند حدود ما جـاء في كتاب الله عن مصـر . بل أيضًا جاء ذكرها في الكتب الســماوية ا لأخرى . وكذلـك بعض أحاديث النبي الكريم ﷺ . مثلمـا جاء في الحديث الشريف والذي روتـه أم سلمة من أن رسول الله ﷺ أوصى بأهل مصر حين بـدأ ا لتفكير في فتـحها حـيث قال عليه الصـلاة والسلام : "إنكم سـتفتـحون مصـر ، وهي أرض يسمى فيـها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحمًا"[٢] .

وبخلاف هذه الأقوال الشريفة سواء ما كان منها في كتاب الله أو في أحاديث رسوله الكريم : فإن هناك أحداث بعينها قد ارتبطت في واقع الأمر برسولنا الكريم ومصرنا الحبيبة . هذه الأحداث تجلت بوضوح أولاً في : حـادث الإسراء والمعراج .. وبالذات في رحلة ا لإسـراء التي أُسري من

(١) مصر في القرآن الكريم – د. أحمد صبحي منصور .
(٢) الحديث في صحيح مسلم .

خلالها بالرسول الكريم من مكة إلى بيت المقدس . وكانت مصر إحدى البقاع المباركة التي نزل بها رسولنا الكريم وصلى فوق أرضها ركعتين .

ولقد تناولنا هذا الحدث وبكل تفاصيله في كتابنا "الأماكن المشهورة في القرآن الكريم" وكذلك كتاب "الأماكن المشهورة في حياة محمد ".. ومما ذكرناه في هذا السياق أن رسولنا الكريم وفي حديثه الشريف الذي رواه ابن مسعود عن رحلة الإسراء . نزل عندما أمره جبريل عليه السلام كي يصلي ركعتين فوق رمال سيناء . ولما سأله نبينا الكريم ﷺ عن اسم هذا المكان ، أخبره بأنه قد صلى ركعتين في الموضع أو المكان الذي كلم الله تعالى فيه نبيه موسى عليه السلام . ولا شك أن هذه الزيارة ورغم قصر مدتها إلا أنها قد تركت أثرًا عظيمًا داخل نفس وعقل هذا النبي الكريم . لأنه ﷺ قد قرأ ما جاء في كتاب الله العزيز عن هذه الأرض الطيبة ، ونراه قد تمنى في قرارة نفسه أن يزورها ، وبالتالي حقق الله تعالى له هذه الأمنية .

ليس ذلك فقط .. بل وتحولت هذه الأمنية إلى واقع ملموس عايشه رسولنا الكريم عندما أُهديت إليه سارية من مصر وهى مارية القبطية التي اختارها زوجة له فأنجب منها الولد ، وقد تناولنا ذلك أيضًا وبالتفصيل في الباب الأول . وأيضًا لم يكن آل البيت ببيعدين عن كلذلك . بل عايشوه وعرفوه ولمسوا آثاره الطيبة داخل نفوس كل من كانوا حول الرسول الكريم من صاحبته ومن الذين سارعوا أيضًا لزيارة مصر ، بل والبقاء فوق أرضيها . والموت تحت ثراها .

ولو تعمقنا قليلاً في تاريخ البشرية وارتباطه بتاريخ الأديان لعرفنا كذلك أن مصر قد ارتبطت بعدة أنبياء جاؤها إما للزيارة أو للهروب أو للتزود بالمؤن والنساء . وكان من أشهر ما جاءها من أنبياء الله هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام والذي زار مصر ، وأقام بها ربما لعدة أشهر ، ولما ثم تزوج من إحدى بناتها وهي السيدة هاجر رضي الله عنها والتي أنجبت له سيدنا إسماعيل جد رسولنا الكريم . ثم زارها وعاش بها كل من نبي الله يوسف وإخوته وأبويه . و كل من هارون وموسى من أنبياء بني إسرائيل . وكذلك عيسى ابن مريم الذي جاءها هربًا من بطش الرومان هو وأمه ، وعاشا بأرض مصر حتى شعرا بالأمان فعادا من جديد إلى أرض فلسطين .

وأيضًا لم تكن كل هذه الارهاصات التاريخية ببعيدة عن آل البيت الطيبين ، وربما كانت تزيد من رغبتهم في زيارة مصر والعيش بها إقامة دائمة حتى الموت . وكما نعرف فقد ساهم في تحقيق كل ذلك تلك الظروف السياسية التي مروا بها وانعكست آثارها على كل أفراد آل البيت ، وربما قد عجلت تلك الظروف بتحقيق ما كان ينام بين أضلعهم من أمنيات رأوها لا تحقق إلا في مصر.

ولسوف نتبين ذلك عندما نذكر ما ارتبط بالسيدة زينب باعتبارها أول مهاجرة من آل البيت إلى مصر هذه السيدة الطاهرة عندما أخذت تبحث عن مكان يأويها هي وأولاد أخيها الإمام الحسين بعدما صدر الأمر من الخليفة بنفيها من المدينة خوفًا على خلافته ، ولما أخذت تسأل عن هذا المكان الأمين الذي يضمها مع بقية من كان معها من آل البيت . نصحها ابن عمها وقال لها : "ارحلي إلى بلد آمن" ، فقد كانت مصر في هذه الأونة ووفق ما جاء في كتاب مروج الذهب أكثر البلاد أمنًا واستقرارًا ، فالحجاز وحاضرتاه مكة والمدينة قد اشتعل غضبًا على يزيد [(١)] .

•• مظاهر احتفال المصريون بآل البيت :

كما نعرف جميعًا فإن حالات الحب المصاحبة لتقديرك لشخص ما لا تقف عند حدود الكلمات فقط . كأن تقول أنني أحبه وأقدره . ويظل هذا الحب بلا معنى إذ لم تعبر عنه تعبيرًا صادقًا سواء في السر أو في العلن . وهذا حالنا نحن المصريين مع آل البيت الذين أحببناهم وقد لمسنا فيهم الخير لأنهم من عترة هذا النبي الكريم والذي نؤمن بما جاء به من البينات والتي تجلت في هذا الدين الحنيف ، دين الإسلام ..

ولقد تجلى هذا الحب في عدة مظاهر عبرت عن نفسها أثبتت بالفعل أن الحب لا يتوقف عند حدود الكلمات ، بل وتعدى ذلك إلى الفعل نفسه . وهناك العشرات من مظاهر هذا الحب والذي أظهرته مواقف المصريين منذ الوهلة الأولى ، أي منذ أن وطأت أقدام أولى المهاجرات إلى مصر السيدة زينب رضي الله عنها أخت الإمام الحسين .

وقد استطعنا أن نحصر هذه المظاهر في خمسة فقط وهي ربما أكثر من ذلك في تصور الآخرين . هذه المظاهر الخمسة سوف نسوقها على سبيل المثال ثم من بعدذلك نبدأ حديث التفصيل .

ويعتلي هذه المظاهر من حيث المكانة.. ترحيب المصريين بآل البيت سواء في حياتهم أو في مماتهم . وثانيًا : إقبال كل المصريين وبكل فئاتهم على توسعة مقابرهم وأضرحتهم ، بل وبناء المساجد التي ألحقت بهذه الأضرحة . وثالثًا : ما يدفعه المصريون منذ زمن بعيد وإلى اليوم من نذور في سبيل المساهمة في إعاشة الذين ارتبطوا بآل البيت وبمساجدهم واستخدام بعضها في التوسعة والرعاية . أما رابع هذه المظاهر فهو حرص كل أو معظم المصريين على زيارة آل البيت

(١) مروج الذهب - المسعودي .

في كل أسبوع على الأقل .. وإن لم يكن بشكل يومي خاصة للذين يسكنون إلى جوارهم أو بالقرب منهم . وهذا ما يتعذر على ساكني المحافظات والمدن البعيدة. وهم لذلك ينتهزون الفرصة حين يأتون إلى ا لقاهرة لزيارة هؤلاء الأولياء من آل البيت . وأخيرًا يطفو إلى السطح أعظم هذه المظاهر .. وهو إقامة الموالد السنوية سواء للاحتفال برحيلهم أو بمولدهم .

وعلينا منذ هذه اللحظة وكما قلت آنفًا له نستعرض هذه المظاهر ونتحدث عنها بالتفصيل:

الترحيب بآل البيت:

لقد مر علينا ونحن نسوق قصص هؤلاء القوم من آل البيت الطيبين . كيف كان حال المصرين عندما كانوا يعلمون فقط بمقدم أحد من آل البيت .

ليس ذلك فقط ، بل وروينا أيضًا - كيف كان يغامر أهل مصر من أجل سرقة رأس هذا الشريف أو ذاك من أجل دفنه في أرض مصر والتبرك به .. ولسوف نسوق هنا بعض الأمثلة كي نؤكد على هذا المظهر العظيم والخاص بالترحيب بآل البيت مصر.. ونبدأ هذه الأمثلة بما ارتبط بمقدم أولى المهاجرات إلى مصر وهى السيدة زينب ابنة الإمام علي رضي الله عنه .. حين تقول المصادر التي سجلت هذه اللحظات الطيبة :

"وتجهزت زينب وأعدت نفسها لتنزل إلى أرض الكنانة مصر . وقطعت المسافات الطويلة متجهة إلى الفسطاط قصبة مصر الإسلامية لتنعم بين أهلها الذين يجلون آل البيت ، وكلما اجتازت مرحلة على الطريق ازدادت يقينًا بحسن اختيارها للموضع الآمن والمواطن الذي يتمتع أهله بالسكينة والطمأنينة والبعد عن المشاحنات السياسية والمذهبية التي كانت تموج بها المدن الأخرى مثل الحجاز والشام والعراق ، وغيرها . وعندما بلغ والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري أن السيدة زينب في طريقها إلى مصر توجه ومعه لفيف من أعيان مصر ووجهائها وعلمائها فاستقبلوها استقبالاً يليق بمكانتها ، والتقى هذا الجمع بركب السيدة زينب عند قرية العباسية على طريق مصر الواصل إلى الشام إلى الشرق من بلبيس ، وقد استقبلها أهل مصر بالترحاب والتبكير .

ومن مظاهر هذا الحب أيضًا .. أن أهل مصر وتكريمًا لها أنزلها واليها في داره المعروف بالحمراء القصوى عند قنطرة السباع وبالقرب من خليج أمير المؤمنين[(١)] .

(١) الإصابة لابن حجر - مصدر سابق .

وكما نعرف ، وكما مر علينا أيضًا آنفًا فإن مظاهر هذا الترحيب قد أصبح إحدى سمات حب المصريين لآل البيت جميعًا بدليل استمرار ترحيبه بكل من جاء إلى مصر بعد السيدة زينب . والمصادر التاريخية مملوءة بمثل هذه الحفاوات التي كان يحظى بها كل أفراد آل البيت .

ومن عجيب هذ النوع من ا الترحيب أن المسألة لم تكن تتوقف عند حدود الأشخاص وهم أحياء ، بل وامتدت لكي تشمل أجسامهم ورءوسهم أيضًا . وقد حدث ذلك حين خروج كل المصريين لاستقبال الرأس الشريفة للإمام الحسين وكذلك لحفيده الإمام زيد بن علي زين العابدين.

وهناك وثيقة تاريخية مهمة أشار إليها الأستاذ الدكتور محمود شرف الدين تبين مظاهر هذا الترحيب عندما علم أهل مصر بمقدم رأس الإمام الحسين . حيث يقول: إن هناك وثيقة تم العثور عليها بين طيات الكتب لرحالة من متجولي العرب زار القاهرة في سنة ٥٤٨هـ ، وهى منقولة من رحلة له مخطوطة ببعض المكتبات الأندلسية.

وتقول هذه الوثيقة في بداية ما سطر فيها :

"وفي يوم الأحد ثامن من جمادى الآخرة أصبح الناس يتأهبون لاستقبال وفد جليل وركب مقدس يقدم عليهم نحو بلاد الشام ، وكانوا على اختلاف أجناسهم وطوائفهم يظهرون الأسف والحزن ، ويتأوهون من أعماق قلوبهم" .

وفي فقرة أخرى من هذه الوثيقة ذكر صاحبها : "وكنت أرى بعض التجار من محبي الخير والإحسان يوزعون الصدقات على الفقراء والمعوذين وبعضهم يغرس في حانوته خوانًا من أدم ويضع عليه الطعام ثم يدعو المارة أيًا كان نوعه إلى الأكل على روح سيد الشهداء الحسين رضي الله عنه" .

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على أن هذا الترحيب الحار بآل البيت قد أصبح سمة مميزة وخاصية من خصائص احترام المصريين وتقديرهم لآل البيت من الذين كانوا يوفدون إلينا تباعًا وعبر الأيام والأشهر والسنوات التي تلت وصول السيدة زينب رضي الله عنها وأرضاها . ففي عام ١٩٣هـ ، عندما جاءت السيدة نفيسة إلى مصر وبصحبة أبيها الإمام الحسن بن زيد وزوجها .

تلقاها المصريون بالحفاوة والإجلال وحيثما ذهبت لا تجد إلا ترحابًا من وفود الجماعات التي أتت من ريف مصر وصعيده وبدوه وحضره فور علمهم بمقدمها[1] .

ليس ذلك فقط ، بل لقد تجلى هذا الترحيب في المكان الذي تم اختياره كي تنزل به – حيث نزلت السيدة نفيسة أول الأمر في دار كبير التجار : جمال الدين الجصاص ، فأقامت مع أسرته أشهر قليلة إلى أن حطت رحالها بعد ذلك في مكان يسمى دار أم هانئ على أطراف مدينة العسكر وكان عمرها آنذاك ثمانية وأربعين عامًا[2] .

إقامة الأضرحة والمساجد وتوسعتها باستمرار :

ثم نأتي لحديث هام عن المظهر الثاني من مظاهر حب المصريين لآل البيت ألا وهو إقبال كل المصريين وبجميع فئاتهم على المشاركة من أجل بناء أو إعادة بناء الأضرحة الخاصة بآل البيت والعناية بها ثم السعي نحو توسعتها دومًا . وإلحاق المساجد بها . وهذا ما نراه بالضبط الآن أمام عيوننا جميعًا . من الاهتمام بالأضرحة الخاصة بآل البيت في مصر . وقد سبق الاهتمام بمنازلهم وهم أحياء ، هذه المنازل التي تحولت بعد رحيلهم إلى أضرحة ثم إلى مساجد ألحقت بها هذه الأضرحة. ومن أشهر ما تم في هذا السياق ما حدث مع كل من السيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة نفيسة وهم أحياء .. ثم ما حدث مع رأس الإمام الحسين والإمام زيد بن علي زين العابدين.

ومن الملاحظات الواجب الإشارة إليها في هذا السياق أن المصريين ونظرًا للمبالغ الكبيرة التي يتطلبها إقامة ضريح أو مدفن أو مقام يليق بآل البيت ، فإنهم يتكاتفون مع بعضهم البعض من أجل جمع ما يحتاجون من أموال ، لهذا الغرض . والتاريخ يؤكد لنا أن كبار المصريين من التجار والحكام أيضًا كانت لهم اليد الطولى في هذه المهمة ، والتي ما زالت إلى يومنا هذا . وربما السبب الرئيسي وراء ظهور ما نسميه الان بالوقف ، هو العناية بهذه الأضرحة والإنفاق عليها . إذ وجدنا أن العشرات بل والمئات من المصريين الذين كانوا يخصصون أراض بعينها وبيوت وضياع وحدائق ، من بعد رحيلهم من أجل الإنفاق على هذه الأضرحة مما يخرج منها من ريع وأرباح وإيجارات وخلافه .

(١) أهل بيت النبوة – مصدر سابق .
(٢) حسن المحاضرة – الإمام السيوطي .

والمسألة في هذا السياق لم تتوقف عند حد بعينه . بل أصبح الطريق مفتوحًا لكل المصريين من القادرين الذين يخصصون هذه الأموال أو هذه الأفدنة لهذا الغرض النبيل ، وذلك حبًا في آل البيت وصاحبه الكريم ﷺ .

وإذا ما تركنا عامة الشعب وفئاته من التجار وغيرهم . كي ننظر إلى طبقة الحكام سوف نلاحظ أيضًا أن هؤلاء الحكام كانوا كثيرًا ما يعتنون بهذه الأضرحة وبهذه الأماكن ، وقد تجلى ذلك بوضوح في إعادة بنائها أو توسعتها أو بناء المساجد حولها أو بجوارها . وكان عامة الناس يشاركونهم أيضًا إما بجمع التبرعات أو التنازل عن بيوتهم ودورهم التي كانت تجاور هذه الأضرحة من أجل توسعتها ، وقد ظل ذلك مستمرًا عبر العصور والأزمنة حتى أن الحكومات في مصر وخلال هذه العصور قد خصصت أموالاً من أجل الإنفاق على كل ذلك ، كما أنشأت وزارة تولت هذه المهام .

ولا بد من الإشارة في هذا السياق إلى أن الاهتمام بإعادة بناء الأضرحة الخاصة بآل البيت وتجديدها قد مر بمراحل كثيرة حتى وصلت لما هي عليه الآن سواء من حيث السعة أو الاهتمام أو النظافة أو غير ذلك . ولسوف نحاول أن نقترب كثيرًا من بعض هذه الأضرحة من أجل أن نسجل ما كانت عليه من حالة تطورت مع مرور الزمن . ولا يجب أن ننسى أن نشير كذلك إلى أن الاهتمام بهذه الأضرحة من جانب حكام مصر . كان يرتبط بالمذهب الديني الذي كان يسود مصر - وفق أهواء ومشاعر هؤلاء الحكام - ولذلك نجد أن الاهتمام بهذه الأضرحة كان على أشده أيام الدولة الفاطمية ، أكثر من غيرها . ولكنه ونظرًا لأن جميع المصريين يحبون آل البيت وصاحبه فإن هذه الظاهرة بدأت تتلاشى . حيث امتد الاهتمام بهذه الأماكن إلى كل المصريين بلا استثناء .

وبشكل عام فقد أثبت الأثريون وكل المهتمين بتاريخ العمارة الإسلامية أن كل مسجد من مساجد آل البيت في مصر قد بُني أولاً على هيئة زاوية صغيرة أقيمت بجوار الضريح الخاص به ، ولأن كل ضريح هو منسوب إلى أحد آل البيت فقد كان من الأعمال المفضلةوالمقربات إلى ا لله ، قيام حكام مصر وأمرائها وأعيانها بعمارة هذه الزوايا . ثم توسعتها على هيئة مساجد ، ورفع سقوفها المزخرفة على أعمدة من الرخام وتزيين جدرانها بكتابات قرآنية أو قصائد من المدائح النبوية وفرش أرضها بأفخر أنواع البسط والسجاد ، كما أقاموا على قبورهم التوابيت المصنوعة من الخشب النقي المزخرف بالأشكال الهندسية الجميلة والرسوم الدقيقة ، وأحاطوا هذه التوابيت

بالمقاصير الخشبية المطعمة بالصدف . وأضاءوها بالمصابيح والثريات الكهربائية .. ذات النور الساطع .

إذن هناك مراحل تاريخية متعددة مرت بها هذه الأضرحة وتلك الزوايا حتى وصلت إلينا إلى ما هي عليه الآن ، وكان وراء كل ذلك جموع المصريين على اختلاف أطيافهم كرامة وحبًا في رسول الله وآل بيته الكرام .

ويشير الشيخ محمد عثمان إلى أن من أشهر الحكام المصريين الذين ارتبط اسمهم بهذه الزوايا وتلك الأضرحة من حيث الاهتمام بها وتوسعتها هو الأمير عبد الرحمن كتخدا . إذ يعود إليه الفضل وفق ما سجله التاريخ إلى بناء مساجد مشهورة لآل البيت مثل مسجد الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة نفيسة والسيدة عائشة وآخرين .

ولقد مر علينا ذلك من قبل وبالتفصيل المطلوب . ورغم ذلك سوف نتوقف لبعض لحظات كي نبين تلك التطورات التي لحقت ببعض هذه الأضرحة خاصة مما كتبه الرحالة والمؤرخون . ونبدأ بما لحق بضريح أو مسجد السيدة زينب .. إذ كنا قد أشرنا من قبل أن هذه السيدة الطاهرة عندما توفيت دفنت في مكان إقامتها عندما وفدت إلى مصر في دار مسلمة بن مخلد والي مصر قبل يزيد بن معاوية . وبمرور السنين على هذه الدار اندثر جزءاً كبيراً منها إلا ما كان من الضريح الطاهر ، والذي كان مقصداً دائمًا للزيارة ، وموضع تبجيل واحترام كل المصريين من العامة والخاصة والذين كانوا يتعهدونه بالتعمير والبناء والاصلاح ، وبناء كل كان يتصدع من جدرانه . وكان هذا المقام الكريم كما يقول علي أحمد شلبي رئيس مجلس إدارة المسجد الزينبي من جملة المشاهد التي يتناوب على خدمتها إناس انقطعوا لهذا العمل الطيب الجليل ، كما كان يصرف عليهم من وجوه الخير ومن ريع الأعيان والممتلكات التي أوقفت على هذا الضريح الطاهر .

ويشير كذلك إلى ما سبق وأشرنا إليه من اهتمام الحكام بهذه الأضرحة خاصة ضريح ومقام السيدة زينب رضي الله عنها . مؤكداً على أنه في زمن دولة أحمد بن طولون (٢٥٤ - ٢٦٣هجرية ، ٦٨٦ - ٩٠٥) ميلادية أجرى على هذا المشهد الطاهر ما أجُرى على المشاهد الأخرى من عمارة وترميم (١) .

(١) ابنة الزهراء وبطلة الفداء - زينب رضي الله عنها - تأليف علي أحمد شلبي .

ولما جاءت الدولة الفاطمية في الفترة من (٣٥٨ - ٥٦٧هـ ، ٩٦٩ - ١١٧١م) ، كان أول من بني عمارة جليلة وعظيمة على هذا المشهد الطاهر من الخلفاء الفاطميين هو أبو تميم معد نزار بن المعز وذلك في سنة ٣٦٩هـ .

ليس ذلك فقط ، بل ويسوق لنا رئيس مجلس إدارة المسجد الزينبي رواية على لسان أحد الرحالة . يكشف لنا فيها عن حالة هذا الضريح من قبل أن تمتد إليه يد الرعاية ، والعناية فيقول: لقد ذكر الرحالة الأديب أبو عبد الله محمد الكوهيني الفارسي الأندلسي ، أنه دخل القاهرة في ١٤ من المحرم سنة ٣٩٦هـ . وقام بزيارة مشهد السيدة زينب بنت الإمام علي ، فوجده داخل دار كبيرة وهو في طرفها البحري ويشرف على الخليج ، وقال فيما دونه أيضا : فنزلت إليه بدرج ووعاينا الضريح وشممنا منه رائحة طيبة ، ورأينا بأعلاه قبة من الجص ، وفي صدر الحجرة ثلاثة محاريب وعلى كل ذلك نقوش في غاية الاتقان ، ويعلو باب الحجرة أية قرآنية قرآنًا فيها بعد البسملة ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الجن : الآية : ١٨) : هذا ما أمر به عبد الله ووليه أبو تميم أمير المؤمنين الإمام العزيز بالله صلوات الله تعالى عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين وأمر بعمارة هذا المشهد على مقام السيدة الطاهرة بنت البتول زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب ، صلوات الله تعالى عليها وعلى آبائها الطاهرين وأبنائها المكرمين .

وفي الكتاب المنوه عنه آنفًا ، أخذ على أحمد شلبي يتتبع المراحل الزمنية التي مر بها هذا المشهد حتى وصل إلى ما هو عليه الآن . وكذلك المسجد أيضًا .

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على أن ما مر به ضريح السيدة زينب من تطورات هي نفسها تقريبًا ما مرت به كل الأضرحة والمشاهد التي ارتبطت بآل البيت في مصر . ولسوف نضرب مثالاً آخر على هذه التطورات . من واقع ما سجله التاريخ عن ضريح ومسجد السيدة نفيسة رضي الله عنها وأرضاها . إذ قال الكاتب الصحفي حسن الحفناوي في كتابه "كرامات السيدة نفيسة" أن المشهد النفيسي بُني في عهد الأمير المصري ابن السري بن الحكم . والذي أشرف بنفسه على تشييده . وقد أقامه على القبر الذي حفرته السيدة نفيسة بيدها أثناء حياتها ، ودفنت فيه بعد موتها عام ٢٠٨هـ . وتفاصيل ذلك كان مكتوبًا على اللوح الرخامي الموضوع على باب الضريح [(١)] .

(١) كرامات السيدة نفيسة - حسن الحفناوي .

ليس ذلك فقط ، بل لقد وصف العلامة علي مبارك في كتابه الخطط التوفيقية ضريح السيدة نفيسة والمسجد الملحق به وصفاً مستفيضًا ، وذكر كذلك أنه قد تم تخصيص أربعمائة وخمسون فدان وعدد من ريع الحوانيت من أجل الصرف عليه ، هذا بالإضافة إلى ما كان يتجمع في صندوق النذور والتي كانت تبلغ في السنة في ذلك العهد ما قيمته خمسة وعشرين ألف قرش ، كما كانت نظارة الأوقاف تصرف له ثمن الزيت والحصر والبسط وملء الميضأة .

النذور والزيارات المستدامة :

لقد اقترب بنا المؤرخ والعلامة علي مبارك فيما كتبه في خططه عن النذور وأهميتها في تعمير المساجد والأضرحة والتي كان ولا يزال يتبرع بها المصريون على اختلاف مشاربهم ، أقول لقد اقترب بنا من حديث المظهر الثالث من مظاهر حب المصريين لال البيت . ولما كانت هذه النذور في أغلبها ترتبط بزيارات عديدة لهذه الأضرحة وتلك الأماكن المقدمة فإننا سوف نتحدث عنها كذلك باعتبارها تقع من حيث الترتيب والذي أشرنا إليه من قبل في المرتبة ا لرابعة من مراتب مظاهر حب المصريين لآل البيت .

والنذور في معناها اللغوي .. هى ما ارتبط بما يخرجه الإنسان من صدقات يوهبها لأصحاب الأضرحة والمشاهد والمقامات سواء ممن ينتمون إلى ال البيت أو من أولياء الله الصالحين ، والهدف في واقع الأمر واحد .. وهو المشاركة بأموال قليلة في إصلاح وتجديد هذه الأضرحة ، ويخصص جزء منها للانفاق على ا لقائمين عليها . وكثيراً ما يجد الإنسان منا راحة نفسية غير مسبوقة حين يخرج من جيبه قروشًا قليلة كهبة لصاحب هذا الضريح أو ذاك . أو أن يبذل من أجله بعض الأطعمة سواء النيئة أو المطبوخة! .

وكثيراً ما نجد مظاهر هذه النذور وأنواعها في مواسم دينية بعينها ، كما نلاحظ أن أهل الريف والصعيد هم من الذين نراهم يسارعون لدفع هذه النذور عن طواعية وحب .

ليس ذلك قط ، بل إن النذور أيضًا نجدها مرتبطة بما جاء بشأنها في القران الكريم، ذلك الكتاب المجيد الذي يحضنا على بذل هذه النذور دون انتظار النتائج . بشرط أن تكون لله وحده .. وليس لصاحب هذا المقام أو ذاك . وهناك العديد منا من يربط بذله لهذه النذور أو إخراجها .. بما يريد تحقيقه من أمال ، وما يتمناه من شفاء من مرض عضال . وهذه هي الغاية الغالبة لمعظم الذين

يزورون أولياء الله الصالحين وكذلك لأصحاب المقامات الرفيعة من آل البيت من الذين لهم أضرحة مشهورة في مصر كالإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة عائشة .

بل ونستطيع أن نجزم في هذا السياق أن معظم ما تحويه صناديق النذور هذه من أموال إنما يكون مصدره هذه الهبات التي يخرجها أصحابها في زياراتهم المتعددة تحقيقًا لأمنية خاصة بهم أو بأسرتهم وأولادهم ، وكذلك نلاحظ أيضًا أن هذه الصناديق تملأ عن آخرها أيام الموالد والاحتفالات وفي المواسم الدينية.. ونظرًا لكثرة ما يكون بها من أموال فإن هناك قواعد تحكم سبل صرف هذه النذور ، حيث يذهب معظمها إلى تعمير المكان وصيانته ، وجزء من هذه النذور يذهب إلى ا لقائمين على خدمة هذه الأماكن الطاهرة وهذه الأضرحة والمشاهد .

والتاريخ يقول لنا .. إن فكرة النذور هذه هي فكرة قديمة قدم الإنسان نفسه ، وأنا أعتقد أنها صفة ذرعها رب العالمين بداخل صدورنا من أجل الإسراع في مساعدة الآخرين مع اختلاف الأشكال والوسائل . وربما أيضًا انتقلت لنا هذه الرغبة من أجدادنا القدماء الذين كانوا يجذلون العطاء لمن حولهم مما كانوا يعتقدون فيهم القوى الخفية التي ربما تشفيهم أو تساعدهم في تحقيق ما لم يستطيعون تحقيقه بما يملكونه من إمكانيات ، يرونها قد عجزت عن ذلك .

ولا نريد أن نؤكد من جديد على أن جزل العطاء وملأ صناديق النذور يرتبط بزيارة أولياء الله الصالحين وأضرحة ومساجد آل البيت . ولذلك تكثر هذه النذور وكما قلنا من قبل في مثل هذه الزيارات . ومن بعدها يخرج صاحب النذر من المكان الذي كان فيه منذ لحظات منشرح الصدر ولديه إحساس بالراحة والتفاؤل ، حتى ولو لم يتم تحقيق أمانيه وما كان يعتقده من أجل الإسراع في تحقيق ما يتمناه .

بالإضافة إلى ذلك فإن الفائدة تعم .. إذ يستفيد من هذه الصناديق صاحب الضريح بإجراء تجديده وتعميره دائمًا .. واستفادة من يعملون فيه على خدمته ورعايته ، بالحصول على أموال تساعدهم في معيشتهم ، وتسبب لهم نوعًا من السعادة التي يرونها تزداد بركة إلى جوار هؤلاء من أصحاب المقامات والأضرحة.. ونحن نعتقد أننا في مصر نتميز به عن غيرنا .. فيما ارتبط بأصحاب هذه الأضرحة خاصة من آل البيت . هذا التميز الذي يبدو جليًا في الإقبال المستمر على تغذية صنادق النذور ، إيمانًا من الزائرين بأنهم يساهمون ولو بشكل غير مباشر في تعمير وتجديد

وصيانة هذه الأضرحة وما حولها من مساجد . أملاً في نيل رضى الله تعالى.. ما داموا يتقربون بأموالهم إلى هؤلاء الأولياء .

الموالد والاحتفالات الموسمية :

وأخيراً سوف نتحدث عن أشهر مظهر من مظاهر حب المصريين لآل البيت . والمتمثل في إقامة ألوان الاحتفالات الدينية في مناسبات وفاة أو ميلاد هذا الإمام أو غيره من الأولياء . ونظراً لارتباط المصريون دون غيرهم بهذه الظاهرة الاجتماعية والتي اصطبغت بالصبغة الدينية ، فقد تناولتها دراسات اجتماعية ودينية متعددة سواء باللغة العربية أو باللغات الأجنبية .

ليس ذلك فقط ، بل كانت من أعظم مظاهر حب المصريين لآل البيت والتي لفتت أنظار كل زائريها سواء من العرب أو من الأجانب ، ونراهم لذلك قد عبروا عنها في كل كتاباتهم ، بل وحللوها ودروسوها. وحاولوا التوصل من خلال هذه الدراسات إلى نتائج يعرفون عن طريقها عادات وتقاليد المصريين .

ولقد ظهرت هذه الدراسات بكثرة في فترة احتلال الأجانب لمصر . حتى أن بعضهم فكر في مشاركة المصرين في هذه الاحتفالات ! على أمل التقرب إليهم أو خداعهم للفوز بالمزيد من الوقت الذي يقضونه أو كانوا يقضونه بينهم .

ليس ذلك فقط ، بل وكانت هذه الموالد .. مناسبات مهمة يراها بعض الحكام سواء أيام الاحتلال أو أيام محمد علي أو أيام الدولة العثمانية فرصة للتقرب من أبناء الشعب ، والفوز برضاهم ، ما داموا معهم داخل خيام الموالد ، يرددون ما يرددونه من كلمات وأشعار أو يهتزون مثلهم داخل حلقات الذكر على أصوات الدفوف والطبول! .

وإذا ما تركنا كلام الاسترسال إلى حديث الأرقام وما يتعلق بها فيما يخص الموالد . سوف نكتشف مثلاً أن هناك دراسة مهمة حصرت عدد هذه المواليد الشعبية بصرف النظر عن ارتباطها بآل البيت أو بغيرهم من أولياء الله الصالحين في أكثر من ألفين وخمسمائة مولداً شعبيًا! . وكما يبلغ عدد زائريها نحو ٤٠ مليون شخص على مدار العام ! .

ليس ذلك فقط ، بل ولا تخلو أية محافظة أو مدينة مصرية من مولد . وبالتالي فهي تعتبر

بانوراما مصرية خاصة لارتباطها في العقل الشعبي بتراكم خبرات السنين. بالاضافة إلى ارتباطها بسير أولياء الله الصالحين سواء من آل البيت أو من غيرهم ، وتخليداً لذكراهم . وهي لذلك تعتبر سوقًا يرتاده كل فئات الشعب المصري خاصة من الفقراء وأبناء ا لسبيل . كما تعد موسمًا مربحًا للغجر والحواة وأصحاب السيرك والملاهي والألعاب الشعبية .

ونظرًا لأهميتها اجتماعيًا فقد خصصت العديد من الدراسات الأكاديمية أو الميدانية والتاريخية أيضًا أوراقها لبحث هذه الظاهرة الإجتماعية هذه الدراسات التي أكدت أن الموالد الشعبية والاحتفال بآل البيت وأولياء الله الصالحين قد دخلت حياتنا ولأول مرة في العصر الفاطمي ، ثم استمرت إلى يومنا هذا رغم انقطاعها في بعض الفترات التاريخية .

ومن بين هذه الدراسات ما جاء فيما كتبه الدكتور محمد جمال الدين سرور حيث أشار إلى أن الخلفاء الفاطميون قد اهتموا في مصر بالاحتفالات والأعياد الدينية في شيء كثير من الأبهة والعظمة ، وكان من بينها عيد الفطر والأضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبي ﷺ ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ويوم عاشوراء . هذا إلى جانب مواسم أخرى مثل ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه [(١)] .

وفي كل ما قرأناه من مصادر لاحظنا وجود تأكيد على أن الاحتفال بهذه الموالد كعادة مصرية. ظهرت بوضوح في عصر الدولة الفاطمية . وربما ذلك يثير تساؤلاً مهمًا ربما غفل عنه الكثيرون ألا وهو : وهل هذه الاحتفالات التي اصطنعها الفاطميون وصارت إحدى ركائز العادات والتقاليد المحدودة لدى الشعب المصري ، كان من دوافعها تعويض آل البيت عما لاقوه من أذى وتشريد وتقتيل على يد خصومهم سواء في أيام الدولة الأموية ، أو أيام الدولة العباسية؟! .

والإجابة على هذا السؤال المهم لا بد لها من تأصيل فكري وتاريخي موسع وبالتالي فالمقام هنا لا يصلح لذلك ، لكنني وعلى مسئوليتي العلمية أؤكد أن مثل هذا التكريم لآل البيت كان من أهم دوافع ظهور مثل هذه الاحتفالات الدينية التي وجدت صدى طيبًا داخل عقول وقلوب كل المصريين بدليل استمرارها إلى اليوم . لأنه من المعروف اجتماعيًا أن أية دولة مهما ملكت من

---

(١) موسوعة تاريخ مصر عبر العصور - تاريخ مصر الإسلامية لعدة مؤلفين .

سلطان لا تستطيع أن تفرض عادات بعينها على مواطنيها ، إلا إذا لاقت قبولاً بداخل نفوسهم. وإلا فسوف يكون مصدرها الفشل والاختفاء وعدم الاستمرار . وربما نراها متألقة في عصر هذه الحكومة أو تلك بحكم البطش والقوة ، ولكنها أبدًا لا تستمر إلى الأبد مثلما هو حادث مع الموالد والاحتفالات الشعبية في مصر .

ولعلنا نختتم هذه الجولة المرتبطة بحب آل البيت داخل عقول وقلوب كل المصريين ، ومظاهر هذا الحب ، بالحديث المفصل عن أشهر هذه الموالد وهذه الاحتفالات الدينية ، وليس ذلك فقط ، بل وسوف نشير وربما ينشر ذلك لأول مرة في كتاب عن آل البيت إلى أسماء ومواعيد هذه الموالد المنتشرة في كل ربوع مصر .

أما من حيث الحديث عن أشهر هذه الموالد .. فقد استطاع أطلس الفلكلور المصري أنه يحضر هذه الموالد فيما يلي : موالد الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة عائشة بالقاهرة، ومولد أحمد البدوي في طنطا ، وإبراهيم الدسوقي في كفر الشيخ وعبد الرحمن القنائي في قنا . وأبو الحجاج الأقصري في الأقصر والمرسي أبو العباس في الأسكندرية وسيدي جابر.

وفيما يتعلق بمواعيد وتواريخ بعض هذه الموالد فهي كالتالي :

- **السيدة سكينة :** في ٧ جمادي الأولى من كل عام ويستمر حتى يوم ٢٦ جمادي الأولى .
- **السيدة نفيسة :** في ٢٨ جمادى الأولى وحتى ٨ جمادى الآخرة .
- **السيدة رقية :** من ٢٨ جمادى الأولى إلى ٩ جمادى الآخرة .
- **سيدي علي زين العابدين :** ٨ جمادى الآخرة - ٢٥ جمادى الآخرة .
- **السيدة فاطمة النبوية :** ١٨ ربيع أول - ٢ ربيع ثان .
- **الإمام الحسين :** من ٨ ربيع ثان - ٢٤ ربيع ثان .
- **السيدة عائشة :** ١ شعبان - ١٥ شعبان .
- **السيدة زينب :** ١٢ رجب - ٢٦ رجب .

فهـــرس المصـــادر

١ - القرآن الكريم .

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة .

٣ - فاطمة الزهراء والفاطميون - محمود عباس العقاد .

٤ - محمد رسول الله - محمد رضا .

٥ - نساء النبي - د. عائشة عبد الرحمن .

٦ - حياة محمد - د. محمد حسين هيكل .

٧ - خديجة أم المؤمنين - السيد عبد الحميد الزهراوي .

٨ - طبقات ابن سعد .

٩ - تاريخ الطبري .

١٠- كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني .

١١- رجال ونساء حول الرسول - محمد علي قطب .

١٢- موسوعة أهل البيت - إبراهيم صبحي .

١٣- أسد الغابة في معرفة الصحابة - لابن الأثير .

١٤- تاريخ مدينة دمشق - تراجم النساء لابن عساكر .

١٥- في البيت النبوي الكريم للشيخ محمد عثمان .

١٦- بنات النبي - الدكتورة عائشة عبد الرحمن .

١٧- أخبار الزينبات للعلامة أبي الحسين يحيي بن الحسن .

١٨- أهل البيت في مصر - مجموعة من المؤلفين .

١٩- ابنة الزهراء بطلة الفداء ـ علي أحمد شلبي .

٢٠- الطاهرة السيدة زينب - عبد الخبير الخولي .

٢١- أهل بيت النبوة وسيرة وقضايا - د. محمود شرف الدين .

٢٢- السيدة زينب - محمود الشرقاوي .

٢٣- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون - د. سعاد ماهر .

٢٤- الآثار الإسلامية في مصر - د. مصطفى شيحة .

٢٥- سكينة بنت الحسين - د. بنت الشاطىء .

٢٦- الخطط التوفيقيةلعلي مبارك .

٢٧- تهذيب التهذيب لابن حجر .

٢٨- أحكام النساء لابن الجوزي .

٢٩- السيدة نفيسة - توفيق أبو علم .

٣٠- طبقات الشعراني .

٣١- لوافح الأنوار للإمام الشعراني .

٣٢- مقابر المشاهير من آل البيت - حنفي المحلاوي .

٣٣- أهل بيت النبوة .

٣٤- الإمام الحسين : حياته واستشهاده - مأمون غريب .

٣٥- الخطط لتقي الدين المقريزي .

٣٦- رحلة ابن جبير .

٣٧- أئمة الفقه التسعة - عبد الرحمن الشرقاوي .

٣٨- الفضائل الباهرة في محاسن مصر الحاضرة لابن ظهيرة .

٣٩- معاقل الطالبين لابن الفرج الأصفهاني .

٤٠- البداية والنهاية لابن كثير .

٤١- المحدثون في مصر والأزهر ودورهم في إحياء السنة النبوية الشريفة - د. أحمد عمر هاشم .

٤٢- رحلة أولياء الله في مصر المحروسة - سعيد أبو العينين .

٤٣- محمد بن إدريس الشافعي - سعد القاضي .

٤٤- أولياء الله - علي عيسى .

٤٥- الشيخ الإمام داعية ا لإسلام محمد متولي الشعراوي من القرية إلى العالمية - محمد محجوب حسن .

٤٦- مصر في القرآن الكريم - د. أحمد صبحي منصور .

٤٧- مروج ا لذهب للمسعودي .

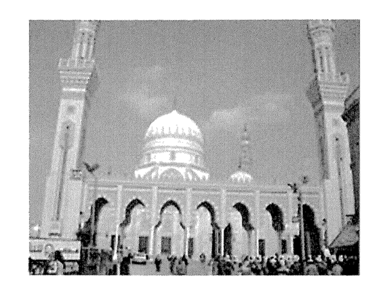
٤٨- حسن الحاضرة للإمام السيوطي .

٤٩- كرامات السيدة نفيسة - حسن الحفناوي .

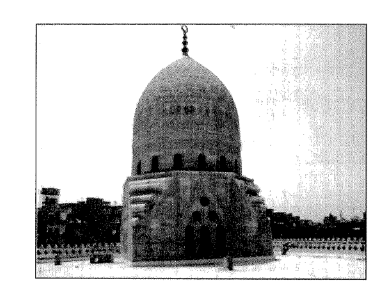
٥٠- موسوعة تاريخ مصر عبر العصور وتاريخ مصر الإسلامية - لعدة مؤلفين .

فهرس الكتاب

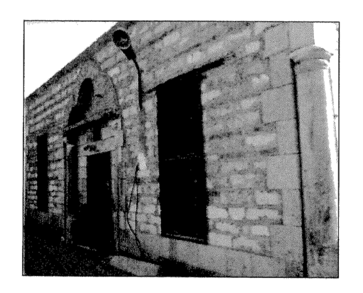
فهرس الكتاب



مسجد
السيد البدوى- طنطا- مصر

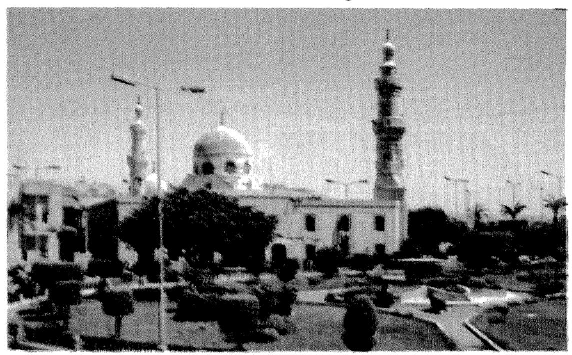


ضريح
السيدة سُكينة - القاهرة

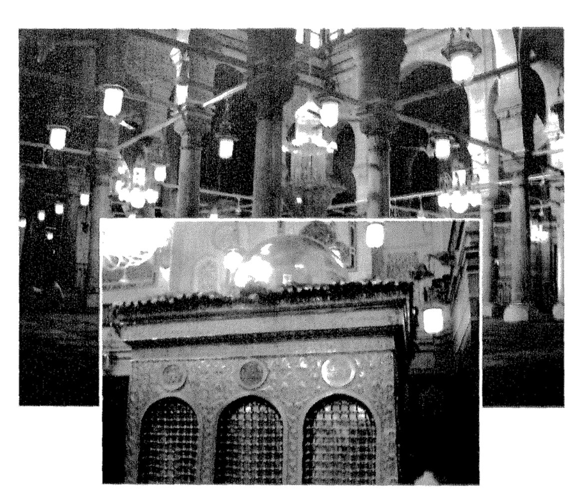


ضريح السيدة أم كلثوم
(كلثم) بنت قاسم الطيب

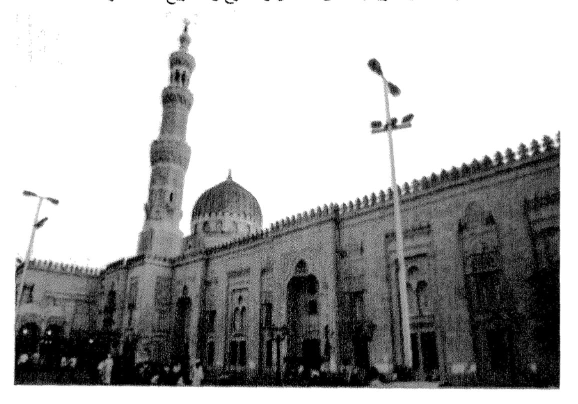
ضريح زين العابدين - القاهرة

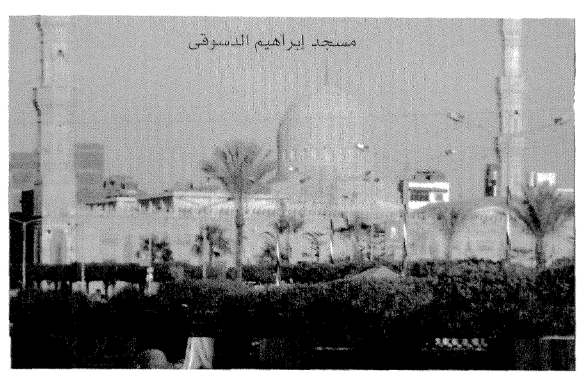


مسجد السيدة نفيسة - القاهرة

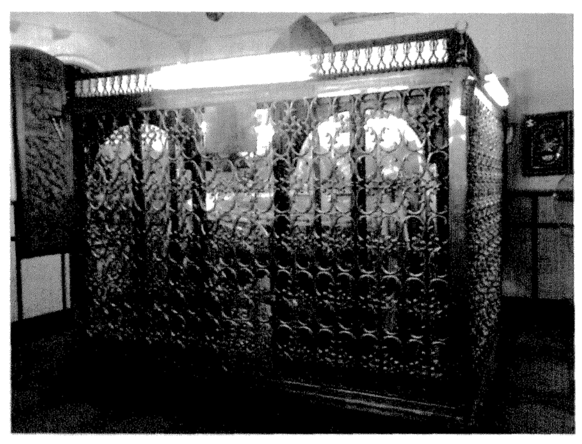


مسجد السيدة زينب - من الداخل والخارج والضريح - القاهرة

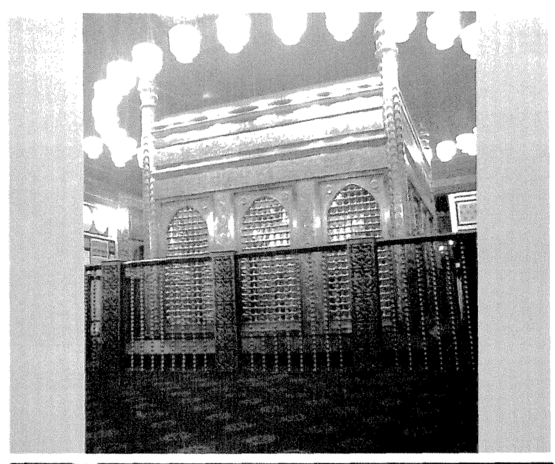




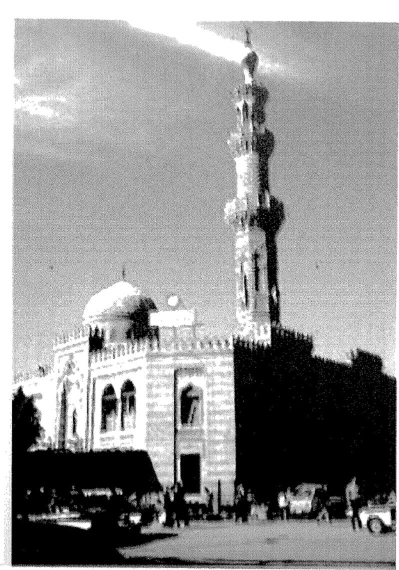
ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها



ضريح سيدى حسن الأنوار رضى الله عنه



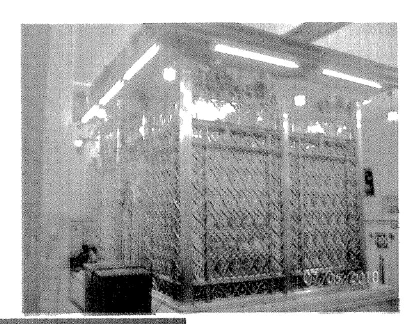

مسجد ومقام الحسين رضى الله عنه
القاهرة



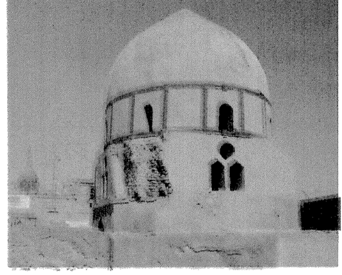
مسجد
السيدة عائشة - القاهرة



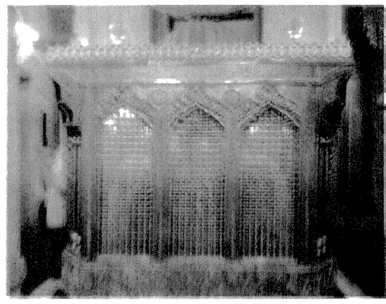
ضريح السيدة عائشة رضى الله عنها



مقـام
السيدة فاطمة النبوية

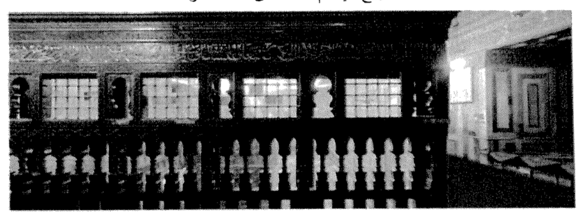


ضريح الإمام القاسم الطيب
بن محمد المأمون (الملقب بالديباج)
ابن الإمام جعفر الصادق



مقام السيدة رقية
بنت الإمام على بن أبى طالب

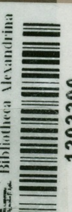
ضريح الإمام الشافعى - القاهرة





رجال ونساء آل البيْت
ومساجدهم فى مصر

هذا الكتاب الذى بين أيدينا والذى اخترت له اسما تقول كلماته " نساء ورجال آل البيت ومساجدهم فى مصر واعتمدت فى خطة عملى فوق أوراقه على تقسيمه الى جزئين كبيرين أو بابين كبيرين الاول تحدثت فيه عن آل البيت والنبوة من الذين عاشوا وماتوا داخل ارض الحجاز خاصة فى مكة والمدينة وسعيت من وراء ذلك لعمل ربط جيد للحديث القادم عن هؤلاء القوم الكرام من الذين جاءوا وعاشوا ثم ماتوا على ارض مصر ، وهو ما سوف نتناوله فى الباب الثانى ولم انس فى هذا السياق ايضا الحديث وفى القسم ذاته عن أولياء الله الصالحين من الذين ينتسبون الى آل البيت والذين وفدوا وعاشوا فى مصر ودفنوا فيها ايضا وختاما كان لابد من الحديث ايضا عن مظاهر حب اهل مصر لآل البيت وأهم مظاهر هذا الحب والذى تجلى بشكل كبير فى اقامة الاضرحة والمساجد واحياء ذكراهم كل عام ، وهو ما أصبح يعرف فى تاريخنا باسم المولد.




ISBN 977-232-903-4
9 789772 329038

www.alamalkotob.com